صحابيّات

الجزء الثاني

الدكتورة لينة الحمصي

هذّبه واعتنى به المفكر الإسلاميّ

المهندس أنور وردة

***

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: ٢٥٦٧٥ / ٢٠٢٢

***

الصحابيةُ الجليلة

زينبُ بنتُ محمد (ص) (زينبُ الكبرى)

(١)

سنحلّق معاً في رحلتنا حول صحابيات الرسول (ص)، لنتحدث عن ابنة خير خلق الله، محمد (ص).

سيرة هذه الصحابية الجليلة تختلف بجوّها وطعمها، الذي ألفناه يوم تحدثنا عن زوجات النبي رضي الله عنهن أجمعين.

عندما استعرضنا حياة أمهات المؤمنين في بيت النبوة، ورأينا كيف كان (ص) يتعامل مع زوجاته.. كيف كان يحبّهن ويتلطّف معهن ويتودّد إليهن، وكيف كان يعدل بينهنّ في المبيت والنفقة.

نعم.. رأينا كل هذا، ورجونا أن يكون في هذه المسيرة الزوجية الناجحة والموفقة قدوة لكل خاطبين يخطوان على أعتاب الحياة الزوجية، ويطمحان أن تكلّل مسيرتهما بالنجاح والتوفيق والسعادة.. وقدوة أيضاً لكل زوجين خاضا غمار هذه التجربة، فتعثّرت خطواتهما تارة واستقامت أخرى.. تمتّعا بحلاوة العسل مرة، وذاقا لسعات النحل مرات، عسى أن تكون حياةُ النبي (ص) الزوجية خيرَ معين لهما في مسيرتهما، تعلّمهما كيف يجتازان عقبات الطريق دون أن يكبوَا أو يتراجعا، وكيف يجنيان العسل دون أن تؤذيهما الإبر واللسعات..

حديثنا في هذا البحث والأبحاث التالية سيكون عن الحياة الأبوية للنبي (ص)...كيف كانت محبته لأولاده، وكيف كان يوجههم ويتعامل معهم، وكيف نقتدي بهديه عليه الصلاة والسلام في تعاملنا مع أولادنا.

ولست أشك بأنكم قرّائي الكرام في شغف وظمأ لمعرفة كل هذا... فأبناؤنا وبناتنا هم أكبادنا تمشي على الأرض، إن هبّت الريح على بعضهم لم تشبع العين من الغمض..

والحديث عن أولاد النبي شائقٌ وجذّاب وممتع، ولكننا سنكتفي بالحديث عن بناته: زينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة رضوان الله عنهن، وذلك لسببين:

الأول: أن هذا الكتاب مخصص للحديث عن النساء الصحابيات.

والثاني: أن أولاد النبي (ص) الذكور القاسم وعبد الله وإبراهيم، توفّوا جميعُهم في سن صغيرة، لحكمة أرادها الله تعالى.

زينب التي نحن في رحابها هي أكبر بنات النبي عليه الصلاة والسلام، ولهذا لُقّبت بزينب الكبرى، ولتتميز من جهة أخرى عن زينب بنت فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين...

نعود إلى الوراء، إلى اليوم الذي وَلدت فيه أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ابنتها زينب.

هناك اختلاف بين العلماء حول البكر من أولاد النبي (ص): هل هو القاسم أم زينب، ولكن مما لا اختلاف فيه أن القاسم (على فرض ولادته قبل زينب)، لم يلبث إلا قليلاً حتى توفي وهو في المهد صبياً...

كانت ولادة زينب على الأرجح في وقت لم يكن لدى الزوجين الحبيبين ولد آخر...

يحلو لنا هنا أن نتساءل: **كيف استقبل الزوجان هذه الأنثى؟**

قد يستغرب البعض هذا التساؤل، ويقول: طبعاً بالفرح والسرور والولائم والاحتفالات..

أقول: هذا ما حدث فعلاً، فقد فرح سيدنا محمد وزوجته خديجة بتلك المولودة أشدّ الفرح، وذبحت الذبائح احتفالاً بمولدها...

ولكن هذا الفرح بولادة الأنثى تمّ على خلاف ما كان شائعاً في الجزيرة العربية آنذاك من كراهية الإناث وحبّ الذكور، فقد كان العرب يعتقدون أن المرأة المنجبة في عرفهم هي التي تلد ثلاثة بنينَ فأكثر... ولا يعتبرونها منجبة، ولو ولدت خمسين بنتاً وأكثر!!

وكراهية العرب آنذاك للأنثى، ذكرها القرآن الكريم على سبيل الذمّ والقدح فقال: **(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)**[1].

قد تكون كراهيتهم للأنثى ومحبتهم للذكور ناتجةً عن ظروف الحياة الصعبة، التي كانوا يقاسونها في جزيرة العرب، فالأنثى لا تحمل السلاح، ولا تحارب، ولا تردّ طمع الطامعين، بل هي مطمع للأعداء المغيرين، يسبونها ويسترقّونها، فتورث قبيلتها ذلّ العمر وعار الأبد...

كل هذا دفع بعض عرب الجاهلية إلى الشطط في هذه الكراهية، لدرجة دفعتهم إلى وأد البنات وهنّ أحياء، والمدهش في هذا أن بعضهم كان يدعي أنه وأد ابنته رحمة بها وشفقةً عليها، ممّا قد يخبّئه لها الدهر من مآسٍ ومخازي.

قال بعض الشعراء:

أحبّ بنيّتي ووددت أني

دفنت بنيَّتي في قاع لحدي

وما بي أن تهون عليّ لكن

أخاف بأن تذوقَ الذُّلَّ بعدي

فإن زوُّجتها رجلاً فقيراً

أراها عنده والهمُّ عندي

وإن زوّجتها رجلاً غنياً

فيلطمُ خدّها ويسبُّ جدي

سألت الله يأخذَها قريباً

ولو كانت أحبَّ الناس عندي

وقال شاعر آخر:

وزادني رغبةً في العيش معرفتي

ذلَّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

أخشى فظاظةَ عمّ أو جفاءَ أخٍ

وكنت أبكي عليها من أذى الكَلِمِ

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً

والموتُ أكرم نزّال على الحُرَمِ

ووصف شاعر ما وجد في موت ابنته من راحة البال فقال:

فالآن نمت فلا همٌّ يؤرّقني

بعد الهدوء ولا وجدٌ ولا حُلُم

* * *

هذا صنف من الناس فكّر بهذه الطريقة العجيبة الغريبة..

وهناك صنف آخر فكر بطريقة أعجب وأغرب، فقد كان يئد ابنته، لأنه كان يتصور ما يمكن أن يكون بينها وبين زوجها من حياة خاصة، فتثور غيرته، فيقتلها سلفاً ليتحاشى ذلك!!

إذاً، في هذا الجوّ الجاهليّ المفعم بكراهية الأنثى، ولدت زينب بنت محمد، صلى الله على محمد، ثم تلاها ثلاث بنات: رقية ثم أم كلثوم ثم فاطمة، وجميعهن ولدن قبل البعثة.

كان استقبال النبي (ص) لبناته الأربع بالفرح والسرور، وتعامله معهنّ بالرأفة والرحمة والحب، دليلاً على إنكاره لعادات قومه في كراهية الأنثى.

كان هذا قبل أن يبعث، فلما بعث أكد على أهمية محبة الأنثى والفرح بولادتها والإحسان إليها، فقال: ***من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها**[2] **أدخله الله الجنة***[3].

وقال أيضاً: ***من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو*** وضمّ أصابعه[4]. أي نكون معاً في الجنة بإذن الله.

وتروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي (ص) فحدثته بأمرها فقال: ***من يلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهنّ، كنّ له ستراً من النار***[5].

وكان عمر بن الخطاب يقول: والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم[6].(أي الميراث).

إذاً نشأت زينب وأخواتها في بيت مفعم بحب الوالدين وعطفهم وحنانهم والترفّق بهنّ والانتصاف لهنّ...

وقد كان لتعامل النبي (ص) مع بناته الإناث أثر جذريّ في تغيير سلوكيات الصحابة رضوان الله عنهم، والذين كانوا يرون في كل حركة من حركات النبي (ص) في بيته وخارج بيته، في سفره وإقامته، في نومه وأكله وشربه، وفي جميع أفعاله وأقواله هدياً نبوياً، عليهم أن يتتبعوه ويقتفوا أثره ويقتدوا به...

بينما نرى اليوم من المسلمين من يزيغ بصره عن رؤية هذا الهدي النبوي، فيضيق صدره لولادة الأنثى، خصوصاً إذا كانت أولى أولادِه، أو تكررت ولادتها دون أن يرزقه الله تعالى بالذكور، وقد ينعكس ضيقه وتبرّمه بها على أرض الواقع من خلال استقبالها بجفاءٍ ومعاملتها بغلظة، وقد تتعدّى هذه المعاملةُ الازدرائية البنتَ إلى أمها التي ولدتها، وكأنها أتت بهذه البنت من بيت أبيها، ولا علاقة له بها من قريب أو بعيد.

أليست هذه النظرة مستوردةً من أيام الجاهلية التي جاء الإسلام لتغييرها واستبدالها؟

يحكى أن رجلاً يدعى أبو حمزة، أنجبت له زوجته البنات دون البنين، فتزوج غيرها وهجرها وأقام عند ضرَّتها، فسمعها يوماً تنشد:

ما لأبي حمزة لا يأتينا

يظلّ في البيت الذي يلينا

غضبانَ أن لا نلد البنينا

تالله ما ذاك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا

عند ذاك ثاب أبو حمزة إلى رشده وراجع نفسه، وقفل راجعاً إلى بيته..

نعود إلى زينب، كبرى بنات النبي (ص) لنراها وقد بلغت مبلغ النضج، وهي تزفّ إلى أبي العاص بن الربيع ابن خالتها هالة بنت خويلد...

كان أبو العاص شاباً وسيماً ذكياً نشيطاً، يعمل في التجارة بين مكة والشام واليمن، وكان كثير التردد على بيت خالته خديجة، فأعجبته زينب بملاحتها وذكائها ولطف طباعها، فخاف أن يسبقه إليها أحد من بني عمومتها بني هاشم، فسارع إلى طلب يدها، وكان ذلك قبل بعثة النبي (ص)، وما هي إلا فترة وجيزة من زواجهما حتى بعث النبي (ص) برسالة الإسلام، فكانت زينب رضي الله عنها من أوائل من آمن به رسولاً ونبياً..

أما زوجها أبو العاص بن الربيع فقد بقي مصرًّا على دين آبائه وأجداده، كما هو حال الكثيرين من سادات قريش، وعلينا أن ننتظر انقضاء العهد المكي ثم جزءاً كبيراً من العهد المدني حتى يسلم أبو العاص..

يهمّنا هنا أن نعرف: **كيف كانت العلاقة بين أبي العاص من جهة، وبين زوجته زينب وأبيها رسول الله من جهة أخرى؟**

وكيف واجهت زينب كفر زوجها؟ وكيف كانت حياتهما الزوجية في تلك الفترة الطويلة؟

لم تتغير محبة أبي العاص لزوجته زينب ولأبيها وعائلتها، رغم إصراره على الكفر والشرك.

يروى في هذا أن نفراً من قريش جاؤوا إليه يرغّبونه في فراق زوجته زينب إمعاناً منهم في إيذاء أبيها محمد بن عبد الله، إذ إن كفار قريش لم يتركوا وسيلة يمكن أن يضغطوا بها على النبي إلا واتبعوها، وكانوا قد ذهبوا قبل أبي العاص إلى عتبة وعتيبة ابني أبي لهب، فاستجابا لهم وطلّقا أمّ كلثوم ورقية.

أما أبو العاص فكان عاقلاً حكيماً محباً لزوجته، وعندما عرضوا عليه الأمر قائلين: فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأيّ امرأة ترغبها من قريش، أجابهم: لا والله ما أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة أخرى من قريش..

وكثيراً ما كان النبي (ص) يثني على أبي العاص فيقول: * **حدثني فصدَقَني، ووعدني فوفّى لي***[7].

من المؤكد أن زينب كانت تتمنّى أن يتبع زوجها الإسلام، وأنها كانت تفعل ما بوسعها لإقناعه، وتتضرّع إلى ربها أن يهديه إلى الحق، ولكن.. إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء.

عاشت زينب المسلمة مع زوجها الكافر أبي العاص في مكة في بيت واحد، إذ لم يكن الإسلام قد فرق بينهما بعد، ولم يذكر أن خلافاً جرى بينهما آنذاك... وفي تلك الفترة أنجبت زينب ولدين: عليًّا وأمامة...

ولما هاجر النبي (ص) إلى يثرب، بقيت زينب مع زوجها في مكة، بينما هاجرت أخواتها الثلاث رقية وأم كلثوم وفاطمة.

لا شك أن حزناً عميقاً موحشاً سكن قلب زينب حين هاجر أحبابها: والدها وأخواتها، ولربما وجدت في قبر أمها خديجة، الحبيبة الراحلة، ما يواسي شعورها بالغربة المريرة، ويخفّف عنها شيئاً من كربتها، فكانت تكثر من زيارة مقبرة الحجون، حيث تَثوي أمها...

لكنّ حزنها وألمها زاد وتفاقم عندما لاحت في الأفق بوادر عاصفة عاتية بين قومها وبين أبيها، حين حاول النبي (ص) وصحابته الاستيلاء على تجارة لقريش قافلة من الشام، ليستعيضوا بها عن جزء من أموالهم، التي استولت عليها قريش في مكة بعد هجرتهم إلى يثرب...

لشدّ ما آلم زينب أن ترى قومها يعزمون على قتال أبيها وأصحابه رغم نجاة قافلتهم، فلقد شدّوا رحال الحرب إلى بدر، ومعهم زوجها أبو العاص...

ولسنا ندري السبب الذي دفع بأبي العاص لمرافقة قريش في حربها ضد النبي (ص)، رغم محبته له، ورغم الاحترام المتبادل الذي يكنّه كل منهما للآخر!!

قد تكون العصبية الجاهلية، أو ربما الخوف من كلام الناس وشائعاتهم واتهاماتهم... الله أعلم...

ما يهمنا هنا هو الموقف الصعب الذي لاقته زينب في تلك الواقعة: أبوها الحبيب وزوجها الحبيب في خندقين متصارعين...

يا له من موقف لا تحسد عليه!!

مشاعر الخوف القاتلة كانت تتناوشها من كل مكان، ففقد أحد الحبيبين يعني إما يتمها أو ترمّلها ويتم ولديها: عليّ وأمامة، وحسبك من أمرين أحلاهما مرّ...

انتهت موقعة بدر بانتصار المسلمين..

إذاً، فاز أبوها وانتصر والحمد لله، ولكن من المؤكد أن زينب كانت تريد أن تطمئن على حياة زوجها أبي العاص...

واطمأنت عليه.. إنه حيّ، ولكنه أسير هناك في يثرب.. بين يدي المسلمين!

لم يكفها معرفتها بوصايا والدها الرسول لصحابته، بأن يحسنوا معاملة الأسرى، لتنتزع من قلبها القلق والاضطراب.. كانت تريد أن ترى زوجها حراً طليقاً.

أتتها الأخبار تباعاً، فقد قبل النبي أن يفتدي أسرى بدرٍ أنفسهم بالمال أو بتعليم المسلمين القراءة والكتابة.

لم تقبل زينب أن يرسل أهل زوجها المال لفكّ أسيرهم.. فأبو العاص لم يكن بالنسبة لها كباقي الأسرى.. إنه أبو العاص.. زوجها.. له عندها مكانة مميزة، ويجب أن يكون فداؤه مميَّزاً مثله.

فكّرت زينب وفكرت، واهتدت إلى فداءٍ يرضيها.. فداءٍ مبتكر، ينمّ عن ذكائها ورهافة حسها وعمق معرفتها بأخلاق أبيها وطباعه.

أرسلت لفداء زوجها ما هو أغلى من المال...

أتعرفون ماذا أرسلت؟!

أرسلت قلادة أهدتها إياها أمها خديجة يوم زفافها...

قد لا تساوي تلك القلادة من المال شيئاً كثيراً، لكنها ثمينة جداً، ثمينة بما تحتوي من معاني الذكرى والحب والوفاء..

لم يخب ظنّ زينب في وقع تلك القلادة على نفس أبيها، فلقد وصل عمرو بن الربيع أخو أبي العاص إلى المدينة المنورة، وقدّم للنبي صرّة صغيرة، وقال له:

بعثتني زينب بها فداءً لزوجها أبي العاص. -

فتح النبي (ص) الصرّة، فوجد فيها القلادة، فرقّ قلبه رقة شديدة..

ابنته الحبيبة تستشفع عنده بقلادة الحبيبة لفداء الزوج الحبيب!!

نعم.. أهاجت تلك القلادة ذكريات الوفاء والحب والإخلاص، التي ما برحت تسكن سويداء النبي (ص) منذ أن فارقت خديجة الحياة.

ما زال النبيّ يذكر خديجة كل يوم، ولا يكاد ينساها في صباح أو مساء. وكان إذا ذبح شاة أرسل منها إلى صديقات خديجة، وإذا ما جاءته يوماً صديقة لخديجة أحسن إليها، وهو يقول: حسن العهد من الإيمان. فكيف به اليوم وهو يرى ابنته زينب تستشفع عنده بقلادة الحبيبة!!

لمح الصحابة الكرام في عينّي الرسول التأثر لمرأى القلادة، ولمسوا في صوته نبرة الحزن، وهو يقول لهم:

إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها وتردّوا لها قلادتها فافعلوا.. -

لم يتردّد الصحابة في تحقيق رغبة النبي، فسارعوا إلى إطلاق سراح أبي العاص، وردّوا لزينب قلادتها، ولم يخطر ببال أحدهم أن يعترض على تخصيص أبي العاص بتلك المكرمة، مع العلم أن لكثير منهم قرابةً مع هذا الأسير أو ذاك!

أرأيتم إخوتي ماذا يفعل الحب المخلص!! إنه يفعل الأعاجيب!

إذاً، أطلق النبي سراح صهره الأثير الأسير، بعد أن طلب منه يرسل إليه زينب، لأن الإسلام فرّق بينه وبينها.

ما أعظمك يا رسول الله!!

لاحظوا إخوتي الكرام أن النبي لم يطلب من أبي العاص في تلك اللحظات الحرجة أن يسلم، فهو لا يريد لأحد أن يسلم إلا عن قناعة تامة، ولكنه طلب منه أن يرسل زوجته المسلمة إلى قومها المسلمين، لأن الكفر والإسلام لا يجتمعان في بيت واحد.

عاد أبو العاص إلى مكة، وهو يحمل بين جنبيه الإكبار لمحمد بن عبد الله، ويحمل نية صادقة بتنفيذ الوعد، الذي أعطاه للنبي (ص)، رغم كراهيته لذلك..

تجهّزت زينب وولداها عليّ وأمامة للرحيل، وودّعت زوجها وداعاً عاطفياً، تلاحمت فيه الأرواح دون الأجساد، ولم يستطع أبو العاص أن يتحمّل لوعة الفراق، فترك لأخيه كنانة مهمّة إيصال زينب إلى المكان، الذي اتفق عليه مع النبي، حيث ينتظرها زيد بن حارثة لاصطحابها، وعاد أدراجه حزيناً هائماً على وجهه.

لكنّ أبا العاص وأخاه أخطأا خطأً ذريعاً، إذ رحّلا زينب وولديها جهرة أمام أعين قريش، الذين ما زالت آلام خسارتهم في معركة بدر تأكل قلوبهم، فخرج بعضهم يريدون أن ينتقموا لقتلاهم بإيذاء زينب وولديها، وقد ملأ الحقد على الإسلام ونبيه قلوبهم.. وكان أسبقَ الناس إلى زينب رجلٌ يدعى هبّار بن الأسود الأسدي ومعه رجل آخر، فنخسا البعير الذي كانت تركبه، فوقعت على الأرض، وكانت حاملاً، فطرحت ولدها على رمال صحراء مكة...

لم تستطع زينب إكمال رحلتها، فعادت إلى دارها في مكة، وعكف أبو العاص على تمريضها حتى تحسّنت صحتها، فأرسلها مع أخيه مرة ثانية، ولكن.. سراً في هذه المرة، حتى سلّمها هي وولداها لزيد بن حارثة، وسار بها زيد إلى أبيها... صلى الله على أبيها وسلم تسليماً كثيراً.

يحكى في هذا أن هند بنت عتبة، رغم حقدها على الإسلام والمسلمين، ورغم رغبتها الجامحة للانتقام من المسلمين، الذين قتلوا أباها وأخاها وعمها وأبناء عمومتها في معركة بدر، استهجنت ما فعله المشركون بابنة الرسول، فأخذت تعيّرهم وتسخر منهم قائلة: أمعركة مع أنثى عزلاء؟ هلا كانت هذه الشجاعة يوم بدر؟ ثم أنشدت تقول:

أفي السلم أعيارٌ[8] جفاءً وغلظة

وفي الحرب أشباه النساء العوارك[9]

ولنا أن نتساءل هنا عمّا فعله النبي (ص) عندما بلغه خبر ما صنع هبار بن الأسود وزميله بابنته زينب.

يروى أنه (ص) قال لصحابته: ***إن لقيتم فلاناً وفلاناً فحرّقوهما بالنار***[10].

لكنه تراجع عن ذلك فقال: ***إني كنت أمرتكم أن تحرّقوا فلاناً وفلاناً بالنار، وإن النار لا يعذّب بها إلا الله، فإن أخذتموهما فاقتلوهما***[11].

قد يحلو للبعض أن يسأل هنا: أليس هذا ردَّ فعل انتقامي**!!**

أقول: لقد حزن النبي (ص) واستاء استياء شديداً من الأذى، الذي ألحقه الوغدان بابنته العزلاء المسالمة، التي لم تشارك في الحرب برأي أو قتال، ومن حق النبي (ص) أن يقرر على أولئك المجرمين عقوبة تتناسب مع ذنبهما المقترف.

إنه منطق الجريمة والعقاب، الذي أقرّته شرائع السماء، وأقرّته قوانين البشرية، ولم يكن الانتقام لمجرد الانتقام يوماً ما سلوكاً نبوياً، ولا أدلُّ على هذا مما حدث حين جاءه هبار بن الأسود بعد فتح مكة مسلماً، فعفا عنه وأحسن إليه، رغم أن ابنته زينب كانت قد توفيت من أثر تلك السقطة، التي ظلّت تعاني من آثارها سنوات طويلة.

ونعود إلى زينب رضي الله عنها عندما وصلت إلى المدينة المنورة، حيث استقبلها أهلها باحتفال مهيب.. ولا عجب في ذلك، فهي الحبيبةُ بنتُ الحبيب..

واحتضن النبي (ص) ابنته بحب عظيم، ثم قال عن زوجها أبي العاص مادحاً: ***حدثني فصدقني، ووعدني فوفّى لي***[12].

ولكن كيف أمضت زينب حياتها في المدينة المنورة؟

وهل أسلم أبو العاص أم أنه مات مشركاً كافراً؟

وهل كان الفراق بينهما أبدياً، أم أن المياه عادت إلى مجاريها؟

سوف نجيب عن هذه الأسئلة وغيرها في البحث القادم، ففي سيرة زينب بنت محمد (ص) تفصيلات كثيرة، تستحق الوقوف عندها والتمعّن فيها...

***

الصحابيةُ الجليلة

زينبُ بنتُ محمد (ص) (زينبُ الكبرى)

نتابع رحلتنا مع السيدة زينب رضي الله عنها، ابنة النبي (ص). (٢)

رأينا في البحث الماضي كيف آمنت زينب واتبعت دين الإسلام، بينما بقي زوجها أبو العاص بن الربيع على كفره. وتتبعنا حياة هذين الزوجين في مكة، وعلمنا أن الإسلام لم يفرّق بادئ الأمر بين الزوجين، إذا أسلم أحدهما وأصرّ الآخر على كفره، فانقضى العهد المكي كلُّه، وزينب وزوجها يعيشان في بيت واحد، يجمعهما الحب والإلفة والسكينة، ولم يكن ينغّص على زينب حياتها الزوجية سوى إصرار زوجها على الكفر والوثنية.

وعندما هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة، بقيت زينب مع زوجها أبي العاص في مكة، فلما وقعت غزوة بدر وأسر أبو العاص، أرسلت زينب قلادة أهدتها إياها أمها خديجة، وطلبت افتداء زوجها بها، ورقّ قلب النبي (ص) عندما رأى قلادة الحبيبة بنت الحبيبة، وقال لصحابته: إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا.

وتراكض الصحابة ينفّذون رغبة نبيهم الحبيب، وعاد أبو العاص إلى مكة محمَّلا بأثقل وأشدّ أمانة حملها.. لقد كان عليه أن يفارق زوجته، لأن الإسلام فرّق بينه وبينها، وأن يسيّرها مع ولديها إلى المدينة المنورة.

كان أمام أبي العاص خياران: أولهما أن ينفّذ ما وعد به محمداً بن عبد الله رغم كراهيته لذلك، فزينب زوجته التي يحبها، وهي أم ولديه أمامة وعليٍّ، ولقد رفض أن يستبدلها بأية امرأة من قريش، عندما سعى إليه أعداء أبيها، الذين جاؤوا يحثّونه على فراقها.

وكان أمامه خيار ثان: أن يضرب عرض الحائط بالعهد الذي قطعه لمحمد (ص)، وأن يعيش في مكة هانئاً مع أسرته، بعيداً عن كل ما يذكّره بأيام الأسر وما فيها من قهر وانكسار.

أتدرون إخوتي القرّاء أيَّ حلّ اختار أبو العاص؟!

طبعاً اختار الوفاء بالوعد، مهما كلّفه هذا الوفاء من خسائر، فسيّر زوجته وولديها إلى المدينة، وبقي وحده في مكة، يعاني شجو البعاد ومرارة الأشواق.

قد يتساءل البعض: **ما الذي دفع بأبي العاص ليفي بوعده وعهده، وهو غير مسلم، ولا شيء يجبره على الوفاء؟**

أقول: من حق هذا البعض أن يطرح هذا التساؤل، وخاصة عندما يرى إخلاف الكثيرين لوعودهم حتى في مجتمعاتنا الإسلامية.

لكني أقول: بعض مجتمعاتنا لم يبق فيها من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه. نحن مسلمون، ونحن نعلم أن النبي (ص) قال: ***آية المنافق ثلاث. من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان***[13].

ومع ذلك نجد من يحدّث فيكذب، ومن يعد فيخلف، ومن يؤتمن فيخون!!

هذه مشكلة منهجية في العقل والسلوك.. مشكلة تعكس نوعاً من الانفصام في الشخصية، فعندما يكون حديث الإنسان في اتجاه، وسلوكه في اتجاه آخر، يسقط هذا الإنسان، وتسقط معه أقواله وتوجيهاته، إذ كيف يقبل الناس حديثاً عن الصدق من كاذب، وحديثاً عن الوفاء من غادر، وحديثاً عن النجاح من فاشل، وحديثاً عن الالتزام من ماجن متحلّل مستهتر؟!

وعندما نتمعن في وفاء أبي العاص بوعده وعهده رغم كفره وشركه، نزولاً عند أخلاق المروءة والشرف والوفاء التي كان يتصف بها العربي قبل الإسلام، والتي قال فيها النبي (ص): ***بعثت لأتمم مكارم الأخلاق***[14]، ندرك الكارثة الأخلاقية التي ابتليت بها بعض مجتمعاتنا، لتصبح في مستوى أخلاقي أدنى من مستوى المجتمع الجاهلي.

نعود إلى زينب رضي الله عنها، وقد مضت أربع سنوات من هجرتها إلى المدينة المنورة..

كانت مسرورة لوجودها في كنف أبيها وأخواتها أم كلثوم ورقية وفاطمة، تنعم بقربهم وبحبهم وحنانهم وعطفهم...

ولكن.. في قلبها غصّة كبيرة، كانت تعكّر عليها صفوها، إنه زوجها وأبو ولديها.. ما زال على كفره، وما زال بعيداً عنهم هناك في مكة...

شمل عائلتها مشتّت، ولا سبيل إلى جمعه إلا بإسلام أبي العاص.. أتراه يأتيها يوماً ليشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟!

الله الله.. يا لها من أمنية عاشت سنوات على أمل أن تتحقق...

* * *

كان ذلك في السنة السادسة للهجرة، وبالتحديد قبل صلح الحديبية، كانت زينب في إحدى الليالي كعادتها تدعو ربها أن يهدي زوجها إلى طريق الحق والرشاد، ويلمّ شمل عائلتها المشتت، وفيما هي بين النوم واليقظة، خيّل إليها أنها ترى زوجها أبا العاص يدخل عليها...

لم تصدق عينيها.. كأنها تسمعه يقول ملهوفاً: أجيريني يا زينب.. أجيريني يا ابنة محمد.. أجارك الله.

ظنت نفسها تحلم، ولكنها اكتشفت أنها الحقيقة.. الحقيقة الجميلة.. إنه أبو العاص.. هو هو بشحمه ولحمه..

رحّبت به.. وهرعت إليه..

أرادت أن تقترب منه، ولكنها تذكرت أمراً لا يجوز أن تنساه، فرنَت إليه بنظرة متسائلة! ففهم ما يجول في خاطرها، فطأطأ رأسه وهو يقول: كلا يا زينب.. لم آت مسلماً.

لم يأت أبو العاص مسلماً!! إذاً لماذا أتى؟! هل اشتاق لها ولأولاده؟!

هو يعرف موقفها وموقف الإسلام منه مادام كافراً، فلماذا أتى؟!

في الواقع كان أبو العاص عائداً من تجارة له من الشام إلى مكة، فلما صار قرب المدينة المنورة، لقيته سريّة أرسلها النبي (ص) لتفقّد الحدود واستطلاعها وحراستها، فلما أيقن أنه سيقع في قبضتها، ترك ما معه من أموال، وفرّ ناجياً بنفسه من الأسر...

لم يستطع أن يبتعد كثيراً، فما زال رجال السرية في إثره، والوقت ليلٌ ولا ملجأ له من مراقبيه، فلم يجد بدًّا من أن يدخل المدينة متخفياً، ويتجه إلى بيت زوجته زينب بنت رسول الله، عساها تجيره من أن تطاله يد بأذى.

أخبر أبو العاص زوجته بهذا كله، وطلب منها أن تجيره وتحميه، فكانت زينب عند زوجها كما تأمّل ورجا.

عندما أذّن بلال لصلاة الفجر، وكبّر النبي للصلاة، صاحت زينب من صفوف النساء: أيها الناس.. إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

عندما انتهى النبي وصحابته من الصلاة، التفت إليهم وقال:

أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم. -

قال: أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم..

صمت الناس، وقد عرفوا أن زينب بنت النبي (ص) قد أجارت زوجها أبا العاص، واشرأبّت أعناقهم لمعرفة ما سيقوله النبي (ص) في ذلك.

لم يطل صمتهم كثيراً، فقد هزّ النبي (ص) رأسه وقال: ***يجير على المسلمين أدناهم***[15].

أجارت زينب زوجها.. وأقرّ النبي (ص) جوارها.. فالله الله!

لم يألف العرب من قبل أن تجير أنثى أحداً من الخصوم، فقد كان ذلك حكراً على الرجال..

يحكي لنا التاريخ عن إجارة أبي طالب للنبي (ص)، وإجارته لبعض الصحابة حين عادوا من الحبشة، وعن إجارة المطعم بن عدي للنبي (ص) عند عودته من ثقيف، وعن إجارة الوليد بن المغيرة وابن الدُّغُنة وغيرهم لفلان وفلان من الناس، ويحكي لنا كيف كانت تلك الإجارة مسموعةً مطاعة، فلم يكن بعدها لأحد أن يطال أحداً ممن أجيروا بأذى.

ولكن لم يحكِ التاريخ شيئاً عن أنثى واحدة استطاعت أن تجير أحداً، فقد كانت الأنثى برأيهم أضعفَ وأدنى من أن تجير، فللإجارة أهلها من الرجال الأسياد الأقوياء، الذين يستطيعون حمل السلاح وحماية المجار، والأنثى ليست أهلاً لذلك!!

لكن النبي أقرّ إجارة زينب لأبي العاص، وأعلن بذلك أن الأنثى في الإسلام تجير وتحمي كما يحمي الرجال، وأنها مثلهم، لا فرق بينها وبينهم في الذمّة أو العقل أوالمسؤولية.

ربما يظن البعض أن النبي (ص) رضي بتصرف زينب لأنها ابنته، ولكن ذلك الظن خاطيء وقاصر، فقد أكد النبي (ص) سريان هذا الحكم بشكل عام عندما قال: ***المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم***[16].

وهذا يعني أن دماء المسلمين متكافئة، لا فرق بين دم ذكر ودم أنثى في وجوب القصاص من القاتل، وكان العرب قبل ذلك لا يقتصون من ذكر إذا قتل أنثى.

ولقد أجارت أم هانيء بنت أبي طالب رضي الله عنها رجلاً من أحمائها عام الفتح، فقال لها النبي (ص): ***قد أجرنا من أجرت يا أم هانيء***[17].*

نعود إلى زينب رضي الله عنها، وقد دخل عليها أبوها محمد (ص) بعد انصرافه من المسجد، فوجد عندها زوجها أبا العاص، فقال لها مبتسماً كعادته:

أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصنّ إليك فإنك لا تحلّين له. -

وفهم النبي (ص) من صهره أبي العاص ما جرى، فقال لأصحابه وفيهم رجال السرية، التي صادرت ماله:

إن هذا الرجلَ منّا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، - وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به.

فقالوا: بل نردّه إليه يا رسول الله...

طبعاً نردّه إليه...

جواب لا نتصور من صحابة الرسول الكريم، الذين أحبوه أكثر من أنفسهم وأموالهم وأولادهم، أن يجيبوا بغيره...

وانطلق المسلمون فأحضروا مال أبي العاص، وردّوا له حتى الدلو الرخيص والإناء الصغير والسّقاء البالي، فحمله أبو العاص وقفل عائداً إلى مكة...

ودّعته زينب بدموع عينيها، ثم رفعت يديها إلى السماء فقالت: اللهم ردّ إلي زوجي أبا العاص مسلماً يشهد بشهادة الإسلام...

كان أبو العاص يقطع طريقه إلى مكة وقد استولى على تفكيره حبّ صحابة الرسول للرسول!

حبٌّ لم ير مثله من قبل عند أحد لأحد... ولا حتى عند ملوك الروم والفرس.

اعتراه شعور غريب جميل... فهزّ رأسه وعلت وجَهه ابتسامةٌ حلوة..

وصل إلى مكة، وأعاد لأهلها أموالهم التي ائتمنوه عليها في تجارته بين مكة والشام، ثم ناداهم قائلاً: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟

أجابوه: لا، وجزيت خيراً يا أبا العاص، فقد وجدناك وفيًّا كريماً.

عندها هتف بصوت يهدر منه الحق والثبات والإيمان: **فإني أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.**

بهت أعداء الإسلام بهذا الإعلان المفاجيء، وتساءلوا: لماذا ترك أبو العاص يثرب وعاد إلى مكة، ما دام مصمماً على الإسلام؟

الحقيقة أن أبا العاص بيّت الإسلام منذ أن كان في يثرب بجوار زوجته، ولكنه لم يعلنه آنذاك، إذ كان يشعر بثقل الأمانة التي حمّله إياها أهل مكة، حين وثقوا به ليتاجر بأموالهم، فعاد إليهم ليؤدّي أمانته، ثم قفَل راجعاً إلى المدينة المنورة...

وهناك بين يدي رسول الله (ص)، وأمام زوجته وولديه، كرّر النطق بشهادة الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

كان ذلك في شهر المحرم من بداية السنة السابعة للهجرة.

لنا هنا أن نتصور فرحة اللقاء بين أفراد هذه العائلة التي اجتمع شملها!

ولنا أن نتساءل: **كيف عاد الزوج إلى زوجته وقد فرّق الإسلام بينهما بنصّ القرآن الكريم:**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن

تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[18].

للجواب عن هذا السؤال وردت روايتان مختلفتان:

الرواية الأولى تقول: إن النبي (ص) ردّ زينب لأبي العاص بنكاحها الأول، ولم يُحدث عقداً ولا صداقاً جديداً[19].

والرواية الثانية تقول: إن النبي (ص) ردّها بعقدٍ جديد ومهر جديد[20].

ولنا هنا وقفة هامة مع حالات مشابهة تحدث في البلدان الغربية حين تسلم الزوجة ويبقى الزوج على دينه.. أو يبقى بدون دين!

هناك من يرى وجوب حدوث التفريق بين هذين الزوجين مباشرةً، بمعنى الطلاق البائن الذي لا رجعة معه أثناء العدة.

ومستند هؤلاء الرواية التي تذكر أن النبي (ص) ردّ زينب إلى زوجها بعقد جديد.

ولكنّ لابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمهما الله رأياً وجيهاً في هذا، مفاده أنه يجوز للزوجة التي أسلمت ولم يسلم زوجها، أن تطلب من القاضي التفريق بينها وبينه مباشرة، كما يجوز لها أن تتربّص ريثما يسلم، ولو مكثت على ذلك سنين، بشرط أن لا تمكّنه من نفسها، وحجتهما في هذا الرواية التي تذكر أن النبي (ص) أجاز لزينب أن تلتقي مع زوجها حين أجارته، ولكنه أمرها بأن لا تسمح له بالاقتراب منها كزوجة، ثم ردّها إليه بعد إسلامها بالنكاح الأول، دون أن يُحدث عقداً جديداً.

وبهذا الرأي أفتى عمر رضي الله عنه، فلقد أسلمت امرأةٌ نصرانية في عهده ولم يسلم زوجها، فأراد بعض المسلمين أن يفرّقوا بينهما، فراجعوا عمر رضي الله عنه فخيّرها في ذلك.

أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فله في هذا الموضوع اجتهاد متفرّد، فقد أباح للمرأة التي أسلمت، ولم يسلم زوجها أن تمكّنه من نفسها، فيما لو كانا في بلد الكفر، أما إذا هاجرت من بلدها، فلا يحق له عند ذلك أن يقربها.

نعود إلى الأسرة السعيدة التي جمع الله شملها بعد طول انتظار، لنقول:

لم يستمرّ الفرح فيها أكثر من سنة، فقد امتدت يد المنية في بداية السنة الثامنة للهجرة، لتختار زينب رضي الله عنها إلى جوار ربها، إثر العلّة التي ظلت تشتكي منها، منذ أن وقعت من على ظهر بعيرها ليلة هجرتها..

لا تذكر لنا كتب السنة والتراجم والسيرة شيئاً كثيراً عن وقع وفاتها على أبيها الرفيق الرحيم، ولا على زوجها الحبيب...

لم يرد في هذا سوى أن النبي (ص) لما ماتت ابنته زينب، قال لمن يغسلنها: ***اغسلنها وتراً ثلاثاً أو خمساً، واجعلن في الخامسة كافوراً أو شيئاً من كافور، وإذا غسلتُنّها فأعلمنني***[21].

فلما أعلمنه أعطاهم إزاره ليكفنّها به، ونزل في قبرها وهو مهموم ومحزون، فلما خرج سرّي عنه، وقال: ***كنت ذكرت زينب وضعفها، فسألت الله تعالى أن يخفّف عنها ضيق القبر وغمّه، ففعل وهوّن عليها***[22].*

تروي كتب السنة والسيرة شيئاً قليلاً عن مدى تأثّر النبي (ص) لفقد ابنته الحبيبة، فلقد صبّ رعايته على حفيدته أمامة، وكأنه وجد فيها عزاءً له عن فقد أمها.

كان النبي (ص) يحب أمامة منذ أن كانت صغيرة، فقد كان يأنس بها، ويهشّ لها إذا خرجت عليه وهو بين أصحابه، وكثيراً ما كان أصحابه يشهدونه وهو يحملها على عاتقه ويصلي بها، فإذا سجد وضعها، ثم إذا قام حملها[23].

ربما يستغرب بعض الناس أن يحمل النبي (ص) طفلة صغيرة، ويصلي بها أمام أصحابه وهو إمامهم، ويتساءلون عن الحكمة من ذلك، ولهؤلاء أقول:

لا يقتصر الهدي النبوي على اقتدائنا بالنبي (ص) في صلاته وقيامه وسَمْته وأخلاقه، فتعامل النبي (ص) مع أولاده وأحفاده هدي لنا أيضاً.

إنّ في حمله لأمامة على عاتقه إرشاداً لكل أب كيف يحب بناتِه وأولادَه، وكيف يتعامل معهم ويداعبهم ويؤانسهم..

ورد في حب النبي (ص) لأولاد بناته أحاديثُ كثيرة، انتقيت منها نزراً يسيراً أحببت أن أتبادله وإياكم.

من هذه الأحاديث أن النبي (ص) يوم فتح مكة، أردف حفيده علياً بن زينب على راحلته، يجول معه في مكة فرحاً مستبشراً بنصر الله تعالى، وكان آنذاك فتيًّا.

ومن هذا أنه قبّل الحسن بن علي وفاطمة رضي الله عنهم مرّة، وكان عنده الأقرع بن حابس التميمي، فاستغرب الأقرع من ذلك، وعقب قائلاً: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ، فقال (ص) : ***من لا يرحم لا يُرحم***[24].

وكان (ص) يفصح عن محبته للأولاد أمام أصحابه، من هذا قَوله لِلحَسَن: ***اللَّهُمَّ إِنِّى أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ، وَأَحْبِبْ مَنْ يُحِبُّهُ***[25].

وَقوله عن الحسن والحسين: ***هُمَا رَيْحَانَتَاىَ مِنَ الدُّنْيَا***[26].

يحكي أحد الصحابة القصة التالية فيقول: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ (ص)، فَأَقْبَلَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رضى الله عنهما، وعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْثُرَانِ في مشيتهما، فنزل النبي (ص) من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم عاد فأكمل خُطبته وهو يقول: ***نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما***[27].

وسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): أَيُّ أَهْلِ بَيْتِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ فقَالَ: ***الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ***. وَكَانَ يَقُولُ لِفَاطِمَةَ: **ادْعِى لِى ابْنَىَّ.** فَيَشُمُّهُمَا وَيَضُمُّهُمَا إِلَيْهِ[28].

وكان (ص) يسجد، فيجيء الحسن أو الحسين فيركبان ظهره، فيطيل السجود فيقال: يا نبي الله أطلت السجود! فيقول: ***إن ابني قد ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى أقضي حاجته***[29].

وكثيراً ما كان النبي (ص) يلاعب زينب ابنة زوجته أمِّ سلمة، ويدلّعها قائلاً: يا زوينب يا زوينب... ولما كبرت زينب سئلت عن السر في احتفاظها بنضارة وجهها رغم تقدم سنها، فعزت ذلك إلى نضح النبي الماء في وجهها مداعباً إياها.

إذاً هكذا كان النبي (ص) مع أولاده: والداً وصديقاً.. محباً رحيماً، يتتبع الوسائل العملية التي تقرّبه منهم وتمتن صلته بهم. وكان يؤكد هذا لصحابته قائلاً: ***كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلاَّ ثَلاثًا رَمْيَهُ عَنْ قَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلاعَبَتَهُ أَهْلَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنْ الْحَقِّ***[30].

بينما نرى اليوم كثيراً من الآباء من يتعاملون مع أولادهم بالقسوة والغلظة، وتفصل بينهم وبين أولادهم حواجز كثيرة، ثم هم فوق هذا كله يظنون أنهم يقومون بواجبهم الأبوي، لأنهم حسب رأيهم يقدمون لهم الطعام واللباس، ويزوّدونهم بما يحتاجونه من المال.

المشكلة تكمن في تغيّر النظرة إلى دور الأب من مربٍّ وناصح ومرشد إلى مموّل مالي، يكدح ويعمل ليل نهار، ليجني الأموال من أجل أن يعيش أولاده عيشة كريمة، لا يحتاجون فيها إلى أحد.

وبهذا انتقلت مسؤولية التربية، لتقع بكاملها على عاتق الأم وحدها، وكان من نتائج هذه المفاهيم المغلوطة، ما نراه اليوم من بعد الشقة بين الأبناء وآبائهم، مما انعكس على ارض الواقع تردِّيا أخلاقياً وتفلتاً قيمياً بسبب لجوء الأبناء إلى رفقاء السوء وأحضان الرذيلة، يستعيضون بهما عما افتقدوه من المشاعر الأبوية الحانية والصادقة.

أخي الأب الكريم..

قد تكون القُبلة الدافئة والمعانقة الحانية والمحادثة الراقية والمداعبة والممازحة خيراً للابن وأفضل وأنفع من المال واللباس والطعام.

إنها باختصار.. الرباط الوثيق والحبل المتين والعروة الوثقى بينك وبين أولادك، فهلاّ كنت ذلك الأب الحنون!!

نعود إلى أمامة، لنراها وقد كبرت، فكان النبي (ص) يعبّر عن حبه لها بطريقة مختلفة، عما كان يفعله معها وهي صغيرة..

تهادوا تحابوا..

طالما علّم النبي (ص) أصحابه أهمية الهدية، والأثر الحسن الذي تتركه الهدايا في القلوب.

تروي أم المؤمنين عائشة أنه أُهدي إلى النبي (ص) قلادةٌ، فقال: لأدفعنّها إلى أحبّ أهلي إلي. فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة (أي عائشة)..

تقول عائشة: فأظلمت علي الأرضُ خشية أن يضعها في رقبة غيري منهن (أي من ضرائرها)، ولا أراهنّ إلا قد أصابهن مثلُ الذي أصابني، ووجمنا جميعاً، فأقبل بها حتى وضعها في رقبة أمامة بنت أبي العاص، فسرِّي عنّا[31].

وتروي أم المؤمنين عائشة أيضاً أنّ النجاشي ملك الحبشة، أهدى النبي (ص) حلية من ذهب، فيها فصّ حبشيّ، فأعطاها لأمامة وقال لها: ***تحلّي بهذا يا بنيّة***[32].

نتساءل هنا عن حال الزوج المحب أبي العاص بن الربيع بعد وفاة زوجته!

من المؤكد أنه حزن على زينب حزناً عظيماً، ووجد في ولديه عليٍّ وأمامة بعض العزاء.

ولكن الله تعالى شاء أن يمتحنه مرةً أخرى، فقد توفّي ابنه عليّ وقد ناهز الحُلم، وبقيت أمامة تؤنس وحشة أبيها، وتأسو جراحه، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب.

وفي عام اثنتي عشرة للهجرة توفي أبو العاص، وابتسامة حلوة تعلو محيّاه، وكأنه كان على موعد مع زينب، حان وقته بعد طول انتظار...

وبقيت أمامة وحيدة في كنف ابن خال أبيها: الزبير بن العوام رضي الله عنه، وما لبثت أن تزوجت من عليٍ بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك بعد أن توفيت السيدة فاطمة بمدة من الزمن.

توفيت أمامة دون أن تنجب أولاداً، وبذلك انتهى عقب زينب الكبرى بنت رسول الله (ص) دون أن يكون لها خلف وذرّية.

فسلام عليك منّا يا زينب.. يا بنت رسول الله.

وسلام على كلّ من أحب زينب وأباها.

* * *

بعد أن تحدثنا عن زينب، سنتحدث في الصفحات القادمة عن أختيها: رُقيّة وأمّ كلثوم، رضي الله عنهما، وصلّى على أبيهما محمد (ص).

***

---

1 سورة النحل، الآية: ٥٩-٥٨.

2 لم يؤثر أولاده الذكور عليها.

رواه أبو داود في السنن، ٤/٥٠٢، حديث (٥٢٤٨). وضعفه الألباني. 3

رواه مسلم في الصحيح، ٨/٣٨، حديث (٦٨٦٤). 4

رواه البخاري في الصحيح، ٥/٢٢٣٤، حديث (٥٦٤٩). 5

رواه البخاري في الصحيح، ٤/١٨٦٦، حديث (٤٦٢٩). 6

رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٣٧٢٩). 7

الأعيار: الحمير، ومفردها (عير). 8

العوارك: النساء الحيّض. 9

رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٠٧٩، حديث (٢٧٩٥). 10

رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٠٧٩، حديث (٢٧٩٥). 11

رواه البخاري في الصحيح، ٣/١١٣٢، حديث (٣٩٤٣). 12

أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الإيمان رقم (٣٣). ومسلم في كتاب الإيمان رقم (٥٩). 13

رواه الحاكم في المستدرك، ٢/٦٧٠، حديث (٤٢٢١). 14

رواه الحاكم، ٤/٤٩، حديث (٦٨٤٢). وصححه الألباني. 15

السنن الصغير للبيهقي، ٦/٣٤٨، حديث (٢٣٤٦). 16

رواه البخاري في الصحيح، ٣/١١٥٧، حديث (٣٠٠٠). 17

سورة الممتحنة، الآية: ١٠. 18

رواه أبو داوود في سننه، رقم (٢٢٤٢)، وصححه الألباني. 19

رواه الترمذي في سننه، رقم (١١٧٢)، وضعفه الألباني. 20

رواه مسلم في الصحيح، ٣/٤٧، حديث (٢٢١٦). 21

المعجم الكبير للطبراني، ١/٢٥٧، حديث (٧٤٩). 22

رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٥١٦). 23

رواه البخاري في صحيحه، ٥/٢٢٣٥، حديث (٥٦٥١). 24

رواه البخاري في صحيحه، ٥/٢٢٠٧، حديث (٥٥٤٥). 25

26. رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٣٧٥٣).

27. رواه الترمذي، ٥/٦٥٨، حديث (٣٧٧٤). وصححه الألباني.

28. رواه الترمذي، ٥/٦٥٧، حديث (٣٧٧٢). وضعفه الألباني.

29. رواه النسائي في سننه، حديث (١١١٤٩). وصححه الألباني.

30. رواه الإمام أحمد في المسند، ٢٨/٥٧٣، حديث (١٧٣٣٧).

31. المعجم الكبير للطبراني، ٢٢/٤٤٢، حديث (١٨٩٣٢).

32. رواه أبو داود في السنن، ٤/١٤٨، حديث (٤٢٣٧). وحسّنه الألباني.

الصحابيّتان الجليلتان

رُقَيَّةُ وأمُّ كلثوم (بنتا محمد (ص))

سأبدأ حديثي عن هاتين الصحابيتين الفاضلتين من حادثة مفصلية في حياتهما وحياة كل أنثى...

طرق بابَ بيت النبي (ص) أحدُ صحابته في وقت الظهيرة، وهو وقت قلّما يتزاور فيه الناس، بل يأوون إلى منازلهم اتقاءً لحرّ شمس الحجاز الملهبة.

استقبل النبي (ص) الطارق، وعلم منه النبأ المزعج...

لقد طلّق عتبةُ وعتيبةُ ابنتيّ النبيّ رقية وأم كلثوم!!

صُدمت البنتان بالنبأ، فقد كانتا تستعدّان للزفاف القريب، لكنّ خديجة رضي الله عنها سارعت لتضمّ ابنتيها إلى صدرها، وتقول مواسية:

- لا عليكما.. لا تبتئسا.. لن يتخلّى الله عنكما.. هو وكيلكما.. وسيعوّضكما عن عتبة وعتيبة بمن هو خير منهما..

رددت رقيّة: حسبنا الله.. نعم المولى ونعم النصير..

واكتفت أمّ كلثوم بأن هزّت رأسها، وهي تداري دمعة كانت تترقرق في عينيها..

كانت خديجة تدرك أن هذا الزواج لن يتمّ، حتى من قبل أن تنزل رسالة الإسلام على زوجها محمد، صلى الله على محمد...

لماذا كانت تتوقع أن لا يتمّ هذا الزواج؟!

لأنها كانت تعرف الصفات التي جبلت عليها أمُّ جميل، زوجةُ أبي لهب، حماةُ ابنتيها رقيةَ وأمِّ كلثوم..

كل من في قريش كان يعرف غلظة أخلاقها وقسوة قلبها وسوء طبعها وحدّة لسانها وغيرتها وحسدها وصلفها وطيشها..

كل هذه الصفات، وأكثر منها، كانت موجودة في أم جميل، أروى بنت حرب بن أمية بن عبد شمس، وكان زوجها أبو لهب، رغم قوته وجبروته، ينساق وراءها مسلوب النخوة.. فاقد المروءة والإرادة..

كانت خديجة تشفق على ابنتيها من الزواج بابنيّ أم جميل وأبي لهب.. ولكنها لم تستطع أن تنبس ببنت شفة، يوم جاء أبو طالب بصحبة أخيه عبد العزّى، الملقّب بأبي لهب، لخطبة رقية لعتبة وأم كلثوم لعتيبة.

كم تمنّت يومها أن ترفض هذا الطلب.. أن تقول: لا.. لكنّ أبا طالب لا يُرد له طلب عند زوجها، لما له من أيادٍ بيضاء..

ثم إنها خشيت أن تتهمها قريش بأنها تفرق بين زوجها وبين آله من بني هاشم، خصوصاً وأن زوج ابنتها الكبرى زينب هو ابن أختها هالة بنت خويلد، أي من غير بني هاشم...

بعد الخطبة بفترة وجيزة نزل الوحي على النبي (ص) برسالة الإسلام.

كانت خديجة أول من آمن، وتبعتها بناتها الأربع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة...

وعندما بلغت الدعوة إلى الإسلام مسامع القرشيّين، ساءهم أن يسفّه محمد أحلامهم ويعيب آلهتهم، فبدؤوا يكيدون له المكايد، ويدبّرون له صنوف الأذى، وكان أول ما بدؤوا به أن ألّبوا عليه أصهاره قائلين: إنكم قد فرّغتم محمَّدا من همّه، فردوا عليه بناته واشغلوه بهنّ.

لم يستجب أبو العاص بن الربيع زوج زينب لوسوساتهم، فقد كان يحب زينب ولا يستبدلها بأية امرأة من قريش، مهما علا نسبها وفاق جمالها. بينما تعاضدت أم جميل مع قوى الشر في قريش ضد الإسلام ونبيه، فظلّت تؤلّب زوجها حتى قال لولديه: رأسي من رأسيكما حرام، إن لم تطلّقا ابنتيّ محمد.

وطلّق عتبة رقية، وطلّق عتيبة أم كلثوم دون تردد أو تلكؤ...

كيف واجهت البنتان هذه المصيبة؟

وكيف تلقّت عائلة النبي هذا النبأ، الذي يعتبر طعناً بكرامتها وإيلاماً لبناتها؟

الصمود.. الصبر.. الثبات.. الإيمان.. التسليم والرضا بأمر الله وقضائه..

هذا هو الزاد والعتاد، الذي حملته أسرة النبي الكريم في تلك المحنة.

كانت رقية وأم كلثوم تعرفان أن والدهما على الحق، وأنه لا بدّ لإحقاق الحق من دفع الثمن مهما كان باهظاً.. فكل شيء يهون في سبيل نصرة الحق والحقيقة...

كانتا تعرفان أن للباطل جولاتٍ وجولات، وقد يبدو لوهلةٍ أن الغلبة لجانبه، ولكن أنّى للزبد أن يبقى صامداً؟ وأنى تكون له الغلبة؟

هذا لا يكون أبداً..

أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

لابدّ للحق أن ينتصر.. أمّا متى يكون ذلك، فتوقيته بيد الله وحده.. ولا بد من الصبر والصمود والثبات.. إلى أن ينتصر الحق ويعلو.

هكذا كان والدهما الرسول يقول ويعلّم، وهكذا كانت والدتهما خديجة تكرر وتؤكد..

ألا يدعونا موقف رقية وأم كلثوم أن نستغرب من مواقف بعض فتياتنا اليوم؟!

يأتي العريس ليخطب الفتاة.. يراها محجبة ملتزمة، فيعترض على هذا قائلاً:

أنا لا أحب التزمّت.. أنا أحب الدين الموديرن العصريّ.. أنا لا أحب المانطو.. أنا أحب أن تضع خطيبتي على وجهها قليلاً من المكياج..

هكذا يقولها بكل صراحة..

البعض يقولها قبل عقد الزواج، والبعض ينتظر إلى أن ينعقد الزواج، على مبدأ: تَمَسْكَن إلى أن تمَكَّن..

قليلات هنّ اللواتي يقفن موقف الصمود والثبات، ومعظم الفتيات يبدأن بتلبية الطلبات على حساب دينهنّ، فتخلع الفتاة المانطو لتبدو أرشق، وتصبغ وجهها لتبدو أجمل، وتلبس الأحمر والأزرق وفواقع الألوان، وقد تنسى الصلاة وتخالط الأصدقاء وتتحلّل من الضوابط الشرعية شيئاً فشيئاً، وكل ذلك من أجل العريس**!!**

أغلب الفتيات يتنازلن عن أكثر من ٢٠ ٪ من الثوابت التي كنّ يؤمن بها.. من أجل من؟**!**

من أجل العريس..

أين هنّ من حديث النبي (ص): ***إنَّما الطاعة في المعروف***[33]، ومن قول الله تعالى عن الوالدين:(وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[34].هذا عن الوالدين، اللذين هما أغلى من في الوجود، فما بالكم بمن هو دونهما منزلة ومقاماً؟**!**

الزواج المبنيّ على تنازلات يبغضها الله ورسوله، يصعب أن يكون مصيره النجاح والسعادة، لأنّ ما بُني على باطل مصيره إلى الشقاء والتعاسة..

نعود الآن إلى بيت النبي (ص)، لنرى وقع طلاق رقية وأم كلثوم عليه.

لسنا نشكّ أن الألم اعتصر قلبه عليه الصلاة والسلام، وهو يرى ابنتيه الحبيبتين تطلّقان دونما ذنب بدر منهما، سوى أن والدهما يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأوثان.

وكان (ص) يدرك أن إيذاءه في ابنتيه ما هو إلا بداية البداية، وأن هناك عقباتٍ أكبر وأصعب سوف تعترض مسيرة دعوته إلى الله والإسلام، ولكنه أمر الله... فيا مرحباً بالأذى في سبيل الله..

ورحم الله الشاعر حيث قال:

سأحمل راية الإسلام وحدي

ولو انّ العالمين لها أساؤوا

فتلك عقيدة سكنت فؤادي

كما سكنت شراييني الدماء

وإن كان الفناءُ سبيلَ خُلد

فمرحى ثم مرحى يا فناءُ!

هذا لسان حال من يريد أن يصمد على الحق، وعندما ترحّب المسلمة حتى بالفناء في سبيل الله، يصبح الطلاق من زوج كعتبة وعتيبة أهون ما يمرّ عليها.

كانت أسرة النبي (ص): خديجة وبناتها عوناً للرسول بكل ما تحمله كلمة عون من معنى.. فلم تتضجر إحداهنّ من الإيذاءات المتوالية، ولم تأسف ولم تندم. ولكأني برقية وأم كلثوم، تقتربان من والدهما، وتلقيان بنفسيهما في حضنه قائلتين: لا بأس عليك يا أبتاه.. فهوانا في هواك..

وحصل ما توقعه النبي (ص) من استمرار أذى قريش عموماً، ومن أذى عمّه عبد العزى (أبي لهب) وزوجته خصوصاً.. فلم يكفِ أمَّ جميل وزوجَها أن آذياه بطلاق ابنتيه، بل حملا سلاح عداوته مواجهة، فما كان أحدٌ أشدّ عداوة له منهما، ولا بلغ أحدٌ من أذاه ما بلغا..

ورد أنه لما أنزل الله تعالى أمره للنبي (ص) بالجهر بالدعوة:﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[35]، صعد النبي ص) على جبل الصفا، ونادى أهل قريش، فلما اجتمعوا قال لهم: ***أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد) أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ؟*.**

قالوا: نعم.. ما جربنا عليك إلا صدقاً.

فقال (ص): ***إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد*.**

فقال عمه أبو لهب مستهزئاً: تباً لك.. ألهذا جمعتنا؟

فنزل قوله تعالى:﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[36].

أما امرأته أمّ جميل فسماها القرآن الكريم بـ (حمّالة الحطب)، لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي (ص) حيث كان يمرّ.

ولما سمعت حمّالة الحطب ما نزل بها وبزوجها من القرآن، أتت النبي (ص) وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وبيدها حجر ملءُ كفّها، فلما وقفت أمامهما، أعمى الله بصرها عن رؤية النبي (ص)، فلم تر إلا أبا بكر فسألته: أين صاحبك يا أبا بكر؟ فلقد بلغني أنه يهجوني.. والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم أنشدت تقول:

مذمَّما عصينا.. وأمرَه أبينا.. ودينَه قَلينا.

فلما انصرفت قال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟

فقال (ص): ما رأتني.. لقد أخذ الله ببصرها عني.

وكانت قريش لشدة غيظها من النبي (ص) تدعوه مذمَّما بدل محمد، كما فعلت أمّ جميل حمّالة الحطب، فكان ص) يبتسم ويقول لأصحابه: ***ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟! يشتمون مذممَّاً،) ويلعنون مذمَّما، وأنا محمد*.**[37].

وعندما كان النبي (ص) يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج قائلاً: أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، كان أبو لهب يتبعه ويقول: إنه صابئ كاذب.. لا تتبعوه...

فينصرف عنه بعض الناس، وهم يقولون: عمّه أعلم به.

وكان (ص) في كل ذلك يصبر ويقول: ***يرحم الله موسى.. قد أوذي بأكثر من هذا فصبر***[38].

ولكن.. ماذا حدث لرقية وأمّ كلثوم بعد هذا الطلاق الجائر من عتبة وعتيبة؟!

فما هي إلا مدّة حتى تقدم لخطبة رقيةَ فتىً من أعرق فتيان قريش نسباً: عثمان بن عفان، وهو قريب النبي عليه الصلاة والسلام، يلتقي معه من جهة الأب عند عبد مناف بن قصيّ، ومن جهة الأم عند عبد المطلب بن هاشم.

وإلى جانب النسب كان عثمان بهيّ الطلعة، هنيّ الخلق، موفور المال، قال فيه عبد الله بن مسعود: **كان عثمان أوصلنا للرحم، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين.**

كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، ومن العشرة المبشرين بالحنة رضي الله عنهم أجمعين...

تزوج عثمان من رقيّة، فكان نعمَ الزوج: دين وخلق ونسب ومال..

صدق الله العظيم: (فَإِنَّ مَعَ العسر يسرا * إِنَّ مَعَ العسر يسرا)[39].

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)[40].

يروى أن النساء غنّين في عرس رقيّة وعثمان رضي الله عنهما!

أحسنُ شخصين رأى إنسانُ

رقيَّة وبعلُها عثمانُ

كان ذلك الزواج مثار تعجّب مَن كفرَ من قريش وبالغَ في أذى النبي محمد بن عبد الله، كيف يزداد هذا الرجل قوة وثباتاً! وكيف يربط رجلٌ كعثمان بن عفان مستقبله بمستقبل رجل مجهول المصير والمستقبل، يتعرّض للإيذاءات المتنوعة، ولا يدري أحد إلى أين سيصير أمره؟!

أمعن القرشيون في اضطهاد المسلمين، ولم يسلم من أذاهم حتى وجهاءُ مكة وساداتُها حسباً ونسباً... وعثمان واحدٌ منهم.

عندما رأى النبي (ص) ما يصيب أصحابه من البلاء، دون أن يقدر على حمايتهم ودفع الأذى عنهم، قال لهم: ***إنّ بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه***[41].

استجاب بعض الصحابة الكرام لهذه النصيحة، وكان العروسان عثمان ورقيّة من أوائل من هاجروا إلى الحبشة...

وامتدح النبي (ص) صهره المهاجر في سبيل الله بقوله: ***والذي نفسي بيده إنه أول من هاجر بعد إبراهيم ولوط***[42].

إذن هاجرت رقيّة، وفارقت أبويها الحبيبين وأخواتها الغاليات: زينبَ وأمِّ كلثوم وفاطمة، وتركت بلدها الحبيب مكة ومن فيها من صديقات مقرّبات.. تركت كل ذلك في سبيل الله تعالَى.. ورحلت إلى بلدٍ بعيدة تقاسي مشاق الطريق ووعورتها مع إخوتها في الله المهاجرين إلى الحبشة...

وهناك في الحبشة وجدت رقية في عثمان زوجاً خيرَ زوج.. زوجاً لا يُقارن بعتبة الذي طلّقها تشفِّيا من أبيها..

وكان عثمان بأخلاقه الدمثة، يخفّف عنها الغربة وما فيها من ضيق وكربة، كما كانت تجد فيمن حولها من الصحابيات المهاجرات كأسماء بنتِ عميس ورملة بنت أبي سفيان وأم سلمة هند بنت أبي أمية وغيرِهن تجسيداً حقيقياً لمعاني الأخوة في الله، التي كان أبوها محمد (ص) يحدّثهم عنها عندما كانوا في مكة، الأمر الذي جعلها تصبر على فقدها للحبيبة زينب وللرفيقة أم كلثوم وللأنيسة المؤنسة فاطمة.

الأخوّة التي تربطها بالصحابة والصحابيات، الذين هاجروا معها إلى الحبشة، تنطبق عليها كثير من أحاديث أبيها النبي (ص) كقوله: ***لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه***[43]. وقوله: ***المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً***[44].

وينطبق عليها قول الله تعالى في الحديث القدسي: ***وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ***[45].

وهاهي رقية اليوم تعيش هذه المعاني العظيمة، وهي راقدة في فراشها إثر مرض ألمّ بها، فقدت على إثره جنينها البكر، وها هنّ أخواتها في الله يطفن حولها متفقّدات راعيات معينات...

الأخوّة في الله أيها الكرام شيء عظيم، وهي أن يحب المرءُ أخاه في الإسلام في ذات الله تعالى، فلا يهدف من وراء هذا الحب الحصول على مال، ولا يبتغي الوصول إلى جاه أو رفعة، ولا ينوي التزلف والتملّق للوصول إلى منفعة، بل الهدف الأول من هذا الحب: إلهي انت مقصودي ورضاك مطلوبي.

تتساءلون كيف يكون هذا الحب في ذات الله وسبيله ؟

أقول: من أولى واجبات الأخوّة في الله، أن يبذل الأخ في الله جهده لمعونة أخيه مادياً وجسدياً ومعنوياً بحسب ما يستطيع، وعلامة هذا الحب الأخوي الصادق، أنه لا يزيد بالبرّ ولا ينقص بالجفاء، لأنه حب خالص لوجه الله تعالى..

قد يندهش البعض ويتساءلون: أين هم الأخوة في الله اليوم؟

إننا لا نرى فيمن حولنا إلا أناس لا تهمهم إلا مصالحهم الشخصية بالدرجة الأولى، على مبدأ المثل القائل: أنا ومن بعدي الطوفان.

والحقيقة أننا بتنا نفتقد وللأسف هذه المعاني السامية في كثير من الأحيان، ونحتاج لأن نعمل على إحيائها وزرع مفاهيمها الصحيحة في القلوب والنفوس من جديد.

نعود إلى رقية رضي الله عنها لنراها بعد مدة يسيرة من إجهاضها، وقد أكرمها الله تعالى بغلام أسمته عبد الله، ووجدت في تربيته ومحبته سلوى لها، عمّا تلاقيه من مشاقّ الغربة ومصاعبها...

ذات يوم دخل عثمان على زوجته رقية فرحاً مسروراً، وهو يقول: أبشري يا أم عبد الله فقد جاء الفرج، لقد أسلمت قريش وآمنت بأبيك محمد بن عبد الله (ص).

صاحت رقية: وافرحتاه... هيا.. هيا يا أبا عبد الله.. لنعد إلى مكة الحبيبة.

إثر هذا الخبر الذي وصل المسلمين المهاجرين في الحبشة، انقسموا إلى فريقين، أحدهما يرى أن لا جدوى إذاً من البقاء في الحبشة، ما دام الإسلام قد انتشر في مكة، أما الفريق الثاني فآثر الانتظار، ريثما يتمّ التحقق من هذا الخبر..

كان عثمان وزوجته رقية ضمن الفريق الأول، الذين شدوا الرحال قافلين إلى الديار، وعددهم قرابة الثلاثين.

طارت فرحة القوم عندما وصلوا إلى مشارف مكة، وصكّ سمعَهم كذبُ تلك الأخبار، التي وصلتهم هناك في الحبشة... فأهل مكة مازالوا على ما هم عليه من الشرك والكفر والكيد للإسلام والمسلمين..

أسرعت رقيّة الخطا، فهي في شوق للقاء الأحبة...

دلفت منزل أبيها، وقد جلّل بكاءُ الفرح وجهها النضر... وها هو والدها (ص) يضمّها إلى صدره فرحاً مسروراً.

أسرعت زينب وأم كلثوم وفاطمة إليها مهلّلات مقبّلات معانقات...

تلفتت رقية هنا وهناك..

لماذا لم تهرع أمّها لاستقبالها؟!

سألت إخوتها: أين أمّي؟!

لم يجبنها بشيء!

نادت بصوتٍ مرتجف: أمي.. أمي..

نظرت إلى من حولها، وقد وقفوا صامتين يحاولون كبت دموعهم، فأدركت ماذا حدث..

كم عانى المسلمون الأوائل حتى وصل إلينا هذا الدين العظيم!

ذهبت رقية إلى الحجون حيث قبرُ الحبيبة، وهناك وقفت تذرف الدموع على أغلى الغوالي، على أمها خديجة بنت خويلد، ولكن قّدر الله وما شاء فعل.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثلاث سنوات وربما أقل، أمضتها رقية في مكة بصحبة زوجها عثمانَ بن عفان وولدها عبد الله، بين عائلتها وأحبابها وإخوانها في الله..

وعندما جاء الإذن الإلهي للصحابة بالهجرة إلى يثرب، شدّت الرحال إليها مع زوجها وولدها، بينما بقيت أختاها أم كلثوم وفاطمة وزوجة أبيها سودة بنت زمعة ينتظرن في مكة، ريثما يرسل أبوها من يأتيه بهنّ..

بعد سنة ونصف من وصول رقية إلى يثرب أصابتها حمّى، فقعدت طريحة الفراش..

ولما تجهّز النبي (ص) لغزوة بدر الكبرى كان المرض قد أنهكها وتمكّن منها.. فزارها والدها النبي (ص) قبل الخروج للغزوة. وكأنه شعر بدنوّ أجلها، فأخذته الرأفة والرحمة بها، وتمنّى لو يبقى بجانبها يملّي عينيه منها قبل أن تفارق الحياة، ولكنه دين الله.. يهون في سبيله كل شيء.. حتى الأولاد ريحانة الأكباد..

قبل أن يغادر بيتَ رقية، نظر إليها نظرة وداع، ثم همس في أذن زوجها يطلب إليه أن لا يرافقهم في تلك الغزوة، وأن يبقى بجوار زوجته ليمرّضها ويرعاها.

أسابيع قليلة.. جاء بعدها زيد بن ثابت يبثّ لأهل المدينة بشرى الانتصار، ولكنه فوجئ بيثرب واجمةً حزينة.. فبنتُ رسول الله (ص) رقيّة تُوارى مثواها الأخير الآن...

تمازجت الأخبار واختلطت المشاعر، أفراح وأحزان في لحظة واحدة.. فلله في خلقه شؤون..

عندما عاد النبي (ص) إلى المدينة كان من أوائل ما فعله زيارةُ قبر ابنته الحبيبة رقيّة...

وهناك أمام القبر الذي ضمّ رفات الابنة الحبيبة، وقف النبي (ص) وقد طافت في خياله ذكريات الأحبّة الذين سبقوها إلى دار البقاء: خديجة والقاسم وعبد الله..

تلفّت عليه الصلاة والسلام، فإذا ابنته فاطمة تبكي بجوار قبر أختها بصمت وألم، فمسح عليه الصلاة والسلام دموعها بطرف ثوبه..

لم تتمالك النساء الواقفات أمام القبر أنفسهنّ، فأجهشن بالبكاء بصوت مرتفع، فزجرهنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكنّ النبي (ص) قال له: ***دعهنّ يا عمر يبكين***. ثم التفت إليهنّ وقال: ***ابكين وإياكنّ ونعيق الشيطان، فإنه مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان***[46]. والمراد باليد واللسان: الاعتراض وضرب الخدود وشق الجيوب، فهو من وسوسوسات الشيطان.

أما عبد الله بن رقية رضي الله عنها، فقد اختلفت الروايات بشأنه، ورد في بعضها أنه توفي بعد وفاة أمه بمدة يسيرة إثر نقرة ديك في وجهه، وكان عمره آنذاك ست سنوات، فحزن عليه أبوه عثمان بن عفان، وجدُّه رسول الله (ص). وصلّى عليه النبي (ص)، ونزل أبوه في قبره، فوسّده التراب..

بينما تؤكد روايات أخرى، أنه توفي في حياة أمه، وأنها أرسلت إلى النبي (ص) تخبره بأن ابنها يفارق الحياة، فلما أتاها ورفع إليه الصبي، وقد بلغت روحه الحلقوم، فاضت عينا النبي (ص) من الحزن، فقال له أحد أصحابه متعجباً: ما هذا يا رسول الله؟ فقال (ص): ***هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء***[47].

بلى والله.. فإن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن على فراق الأحبة، ولكن: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وصبر النبي (ص) على فراق رقية وولدها، فلله ما أعطى وله ما أخذ.

وكذلك فعل عثمان بن عفان الزوج المحب والأب الثاكل.

أشهر معدودة فقط عوّض الله عثمان خيراً عمّا فقده، بما جعل المسلمين يلقّبونه ب (ذي النورين) إلى يوم القيامة.

أتدرون ما هي قصة هذا اللقب؟!

سأحدثكم عن هذه القصة الجميلة الجليلة.

* * *

تبدأ القصة عندما عرض عمر بن الخطاب على صديقيه الحميمين وأخويه القريبين أبي بكر وعثمان، أن يتزوج أحدهما ابنته حفصة، بعد أن توفي زوجها خنيس بن حذافة السهمي إثر إصابته بجراحات في غزوة بدر.

أما أبو بكر فاستمهله أياماً ولم يجبه، وأما عثمان فقال: ما أريد أن أتزوج الآن!

فوجيء عمر بهذه الردود، فذهب إلى النبي (ص) وشكا إليه صاحبيه.. فابتسم النبي (ص) وقال له: ***يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة***[48].

سمعت أم كلثوم أباها، وهو يقول لعمر هذا الكلام، وكانت ما تزال أيَّما لم تتزوج، منذ أن طلّقها عتيبة بن أبي لهب قبل ستة عشر عاماً..

ربما تساءلت في نفسها: من هي التي يقول عنها النبي إنها خير من حفصة وسيتزوجها عثمان؟!

أتراه يقصدها؟! الله أعلم!

إن كان يقصدها فسيفاتحها بالموضوع، فلمَ الاستعجال!

وصدق حدس أمّ كلثوم، فلقد عرض عليها النبي (ص) الزواج من عثمان بن عفان.. صهرِها السابق.. زوج أختها الراحلة رقيّة.

عادت بها الذكرى إلى اليوم الذي خطبها فيه ابن عمّها عتيبة بن أبي لهب، وعقدت المقارنة بين شعور الكآبة الذي خالطها يوم ذاك، وبين شعور الفرح والسرور الذي تشعر به الآن..

فمن خيرٌ من عثمان، وهو من هو في الخُلق والنسب والدين؟!

لقد كانت تراه، وهو يتعامل مع أختها رقيّة بأحسن ما تكون به المعاملة بين زوجين..

وافقت أم كلثوم على هذا الزواج، وزُفّت إلى بيت عثمان في السنة الثالثة للهجرة، مية أ

وعاشت معه قرابة ست سنوات، شهدت فيها انتصار الإسلام، ورأت أباها يخوض الغزوة تلو الأخرى في سبيل الله، يصحبه زوجها مؤيداً وناصراً وعضداً معيناً.

كان عثمان رجلاً غنياً، سخّر ماله كله في خدمة دين الله.. وعندما قال النبي (ص) للمسلمين: ***من يشتري بئر رومة وله الجنة؟*** وكانت ليهودي يمنع عن المسلمين ماءها إلا بالمال، قال عثمان: أنا يا رسول الله. فاشتراها ووهب المسلمين ماءها لوجه الله تعالى[49].

وعندما قال (ص): ***من يزيد في مسجدنا؟*** قال عثمان: أنا يا رسول الله. فاشترى الموضع الذي بجانب المسجد فزاده فيه[50].

ولقد جهّز عثمان جيش العُسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً، عندما سمع النبيَّ (ص) يقول: ***من جهّز جيش العُسرة فله الجنّة***[51]. وكانت أم كلثوم في كل ذلك تشجّعه وتؤيّده وتثبّته وتدعمه.. إلى أن سُمع النبي (ص) وهو يقول: ***اللهم إني بتّ راضياً عن عثمان فارضَ عنه***[52].

وشاءت أقدار الله أن تفارق أم كلثوم الحياة في السنة التاسعة للهجرة، عن غير ولد.

ومن رحمته تعالى بها أنها لم تشهد وفاة أبيها بعدها بعام واحد، ولم تشهد استشهاد زوجها بعد ذلك بنحو ربع قرن.. بل ماتت قبل الأب الوالد، والزوج المؤانس..

ماتت.. وترك موتها في قلب أبيها وزوجها حزناً لا يندمل أثره..

يقول أنس بن مالك: رأيت النبي (ص) واقفاً على قبرها وعيناه تدمعان[53]..

نعم.. فالبكاء على فراق الأحبة رحمة، طالما أنه كان في حدود الشرع، ليس فيه ضرب لخدّ ولا شقّ لجيب ولا اعتراض على أقدار الله...

صلى الله على معلم الناس الخير، فهو قدوة لنا في السراء والضراء.. في البلاء والرخاء.. في العسر واليسر..

* * *

بقي من بنات النبي (ص) السيدةُ فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرضاها.

ولفاطمة الزهراء موضعٌ مميزٌ في قلب أبيها النبي (ص)، وفي قلوب المسلمين عموماً، وفي التاريخ الإسلامي بشكل أعمّ.

ما هو سرّ هذا الوضع المميّز؟!

هذا ما سنعرفه في الصفحات التالية إن شاء الله.

جرنا من أجرت

***

---

33. رواه البخاري في الصحيح، ٦/٢٦١٢، حديث (٦٧٢٦).

34. سورة لقمان، الآية: ١٥.

35. سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

36. رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٤٧٧٠).

37. رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٣٥٣٣).

38. رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٢٤٩، حديث (٣٢٢٤).

39. سورة الشرح، الآية: ٦-٥.

40. سورة النسا، الآية: ١٩.

41. السنن الكبرى للبيهقي، ٩/٩، حديث (١٧٥١٢).

42. المستدرك على الصحيحن، ٤/٥٠، حديث (٦٨٤٩).

43. رواه مسلم في الصحيح، ١/٤٩، حديث (١٧٩).

44. رواه البخاري في الصحيح، ١/١٨٢، حديث (٤٦٧).

45. رواه مالك في الموطأ، ٥/١٣٩١، حديث (٣٥٠٨). وصححه الألباني.

46. رواه ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس.

47. رواه البخاري في صحيحه، ١/٤٣١، حديث (١٢٢٤).

48. رواه الحالكم في المستدرك على الصحيحين، ٤/١٦، حديث رقم (٦٧٥١).

49. رواه البخاري في الصحيح، ٢/٨٢٧. حديث رقم (٧).

50. جامع الأحاديث للسيوطي، ٢٩/٤٧.

51. رواه البخاري في صحيحه، ٢/٨٢٧. حديث رقم (٧).

52. جامع الأحاديث للسيوطي، ٤٠/١٨٥.

53. رواه البخاري في صحيحه دون ذكر اسم ابنة الرسول التي تُوفّيت، حديث رقم (١٢٨٥).

الصحابيةُ الجليلةُ

فاطمةُ بنتُ محمّد (ص)

(١)

سأحدّثكم الآن عن صحابية مميزّة بكل ما في كلمة مميزة من مبانٍ ومعاني.

صحابية لقبت بالزّهراء والبتول (المنقطعة للعبادة)، واستحقّت أن تُسمّى بـ (أم أبيها)..

صحابية ربّت سيدي شباب أهل الجنة.. الحسن والحسين رضي الله عنهما وعن أمهما وأبيهما، وصلى الله على جدّهما إلى يوم الدين.

طبعاً عرفتم من هي هذه السيدة العظيمة!!

إنها فاطمة بنت محمد، صلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً..

سأبدأ الحديث من هناك..

من حيث كانت فاطمة طفلة صغيرة، تركض في أرجاء مكة، تتبع ظل أبيها بخوف وحذر وقلق..

لم تستمتع فاطمة بطفولتها منذ أن تخطّت الخامسة من عمرها.. بل آثرت أن تهجر ملاعب الطفولة والصّبا، وتنبذَ صحبة الأتراب، لتكون ظلاً ملازماً لأبيها أينما ذهب وحيثما ارتحل...

لماذا فعلت فاطمة الصغيرة هذا، مع أن كل من هو في مثل سنّها، يحب اللعب والاندماج مع أولاد الجيران والأقارب المقاربين في الأعمار؟!

هل لأنها كانت تحب أباها؟

هذا سببٌ، لكنه ليس سبباً وحيداً، فكل الأولاد يحبون آباءهم. ولكن السبب المهمّ، هو أنها بحكم صغر سنها، كانت تستطيع دخول جميع الميادين، التي يدخلها أبوها، فكانت تدخلها بجرأة قلّ نظيرها عند غيرها، ممّن هنّ في نفس عمرها، لتدافع عن أبيها وتحرسه بقدر ما تستطيع..

نعم تحرسه!

تحرسه من طواغيت مكة، الذين كانوا له بالمرصاد، يريدون أن يلحقوا به الأذى والألم، بسبب الإسلام الذي كان يدعو إليه.

سمعَتهم وهم يتّهمونه، بأنه كذاب وشاعر ومجنون وساحر.. ورأت عقبةَ بن أبي معيط، أشقى المشركين، يتقدم من أبيها، وهو يصلي أمام الكعبة المشرّفة، فيضع ثوبه في عنقه فيخنقه خنقاً شديداً.. خنقاً كاد يؤذيه، لولا أن هرول أبو بكر الصديق إليه، فدفع عقبة وأبعده عن النبي (ص) بكل ما أوتي من قوة، وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله!![54].

كاد قلبها ينفطر ألماً وحزناً، عندما رأت عقبة هذا، يقترب من أبيها مرة أخرى، وهو ساجد أمام الكعبة، وقد أمسك بيديه سلا جزور، والسلا هو: ما ينزل مع ولد الناقة من أقذار ودماء، فيضع السّلا على رأس النبي ص)، بينما وقف المشركون مسرورين ضاحكين..)

لم يكن حول النبي (ص) في تلك اللحظة من يجرؤ على الدفاع عنه، فهرعت فاطمة الصغيرة إليه، لتزيل عنه الأذى، وهي تدعو على المشركين، ودموعها تنحدر على وجهها، ثم وقفت ترقب أباها وتحرسه ريثما ينتهي من صلاته.

سمعته عندما رفع رأسه من السجود، وهو يدعو على هؤلاء الملأ من قريش قائلاً: ***اللهم عليك الملأ من قريش: أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف، وأبيّ بن خلف***[55].

وجَفت قلوب المشركين لدعائه، وغضّوا أبصارهم خوفاً وشفقة من تحقّقه.. وانصرف النبي من صلاته، واتجه إلى بيته تصحبه ابنته الحبيبة فاطمة..

بعد بضع سنوات استجاب الله دعوة نبيه، وشهدتهم فاطمة كما شهدهم بقية المسلمين، وهم صرعى مضرّجون بدمائهم أمام ماء بدر..

لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يدعو على أحد، ولو كان من رؤوس الكفر، بل اعتاد أن يقول: ***اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون***[56].

ولما سأله ملك الجبال أن يُطبق على أهل الطائف المشركين الجبلين، عندما آذوه وطردوه، قال: ***لا، إني أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبدُ الله***[57].

لكنه في هذه الحادثة دعا عليهم، لأنهم تمادَوا في الاعتداء عليه والإساءة إليه مستغلّين ضعف حيلته وقلّة وسيلته.. وثقته آنذاك بأنّ له رباً يحميه وينصره ويدفع عنه الظلم والكيد والعدوان، أنطق لسانه بالدعاء لربه، ليكفيه هؤلاء المشركين، بما شاء، وحيث شاء، وكيفما شاء..

وشاء الله تعالى أن تكون نهاية أولئك الفجرة في معركة بدر.

إذاً هكذا كان حال فاطمة الزهراء رضي الله عنها.. تشهد مع أبيها ما شهده، وتحمل في قلبها الصغير آلاماً كبيرة، ويزيدها ما يعانيه أبوها محبة له والتصاقاً به، ومن أجل هذا سميت بـ (أمّ أبيها)..

ولنا أن نتساءل: كيف كان حال النبي (ص) مع ابنته فاطمة؟

كيف كان يعاملها؟

وكيف كانت مكانتها في قلبه؟

تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله (ص) أكثرَ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها، فقبّلها ورحّب بها، وكذلك كانت هي تصنع به (ص)[58].

وكان (ص) يقول عنها: ***فاطمة سيدة نساء أهل الجنة***[59].

وكان يقول أيضاً: ***فاطمة بَضعة مني، فمن أغضبها أغضبني***[60].

وكان إذا قدم من غزو أو سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين، ثم أتى بيت فاطمة يسلّم عليها، وذلك قبل أن يدخل على نسائه..

كثيرون هم الذين يستغربون، أن تحتلّ فاطمة من أبيها مكانة، لم تحتلَّها بقية بناته (ص)، ويتساءلون عن السبب!

والحقيقة أن النبي (ص) كان يحب بناتِه جميعَهن، ونستطيع أن نستشفّ هذا الحب الأبوي العظيم من خلال المواقف والقصص، التي ذكرَتها كتب السيرة والسنة النبوية. لكننا نلاحظ أن هذه الكتب استفاضت في الحديث عن فاطمة الزهراء أكثر من أخواتها، وذلك لأن فاطمة كانت أكثرَ ملازمة لأبيها في دعوته إلى الإسلام خارج حدود البيت، الأمر الذي أتاح للصحابة أن يعرفوا أكثر وأكثر عنها وعن سيرتها ومواقفها، وأن يروا حبّها لأبيها وحبّه لها بأعينهم، ويلمسوه بمشاعرهم، ومن ثم يتناقلوه فيما بينهم..

وهناك سبب مهم في إفصاح النبي (ص) عن حبّه لفاطمة..

فقد كانت فاطمة رابع بناته، والبيئة التي ولدت فيها كانت تكره الأنثى، وتعتبرها مَجلبَة للعار والنقص والمذمّة، فكان عليه الصلاة والسلام يظهر محبته لها أمام أصحابه، ليجلو عنها بعض ما قد يعتريها من آثار ذلك المفهوم الجاهلي عن الإناث، وليعلّم صحابته كيف يكون الاحتفاء بالأنثى، وكيف يجب أن تُعامل الأنثى، ولو كانت الرابعة أو الخامسة أو حتى العاشرة**!!**

شهدت فاطمة الزهراء أحداثاً مفصليّة مهمة في بيت النبوة، فلقد تزوجت أختاها زينبُ ورقية، وتوفيت أمها السيدة العظيمة خديجة بنت خويلد، فشعرت أن عليها مسؤولياتٍ مضاعفةً، من أهمها رعاية أبيها وإزالة الهموم التي اعترته إثر وفاة زوجته المخلصة ومستشارته الذكية الواعية. وخصوصاً أن وفاة أمها تزامن مع وفاة أبي طالب عمّ النبي (ص)، داعمه ومؤيده ضد قِوى الشر والطغيان..

وعندما عرضت الصحابية خولة بنت حكيم على النبي (ص) أن تخطب له سودة بنت زمعة، وتمّ الزواج المبارك، وانضمّت سودة إلى بيت النبي (ص)، رحّبت فاطمة بها، فقد كانت تأمل أن يجد والدها الرسول لديها، ما يؤنسه ويخفّف عنه ما يكابده من شجو فراق الزوجة الحبيبة خديجة، ويزيل عنه بعض ما يلاقيه من أذى قريش وتكذيبهم..

بعد سنتين ونيف من زواج النبي بسودة، أذن الله تعالى للمسلمين بالهجرة إلى يثرب، وبدأ الصحابة يشدّون الرحال إلى تلك الأرض الطيبة..

وعندما أذن الله تعالى لنبيه بالهجرة، فهاجر يصحبه أبو بكر رضي الله عنه، بقيت فاطمة وأختها أم كلثوم وخالتهما أم المؤمنين سودة في مكة، حتى إذا ما استقرّ النبي (ص) في المدينة، وبنى المسجد وبجانبه بيته، أرسل زيداً بن حارثة إلى مكة، ليأتيه بابنتيه وزوجته.

وهناك على مشارف مكة، كانت فاطمة تحثّ الخطا، وشوقُها للقاء الأب الحبيب والرسول الكريم يسبقها إلى طيبة الطيب. وعندما نظرت خلفها لتمتّع عينيها برؤية مكة لآخر مرّة وجف قلبها، فقد كان نفر من الكفار يجدّون السير خلفهم، حتى إذا ما اقتربوا منهم أحاطوا بهم من كل جانب، وتقدّم أحدهم واسمه الحويرث بن نقيذ من راحلة فاطمة وأختها أم كلثوم فنخسها، فرمت بهما على أديم الصحراء..

وقامت الأختان متحاملتين على نفسيهما، لتكملا المسير الشاقّ إلى المدينة، وقد أعياهما الألم والتعب والنّصب..

وفي المدينة علم النبي (ص) ما فعله الحويرث بابنتيه الحبيبتين، فآلمه أن يستوطن الحقد في نفوس القوم لدرجة أن يُعملوا كيدهم في نساء لم يتعرضن لهم بسوء.

تصرّف الحويرث هذا كان على خلاف ما اشتهر به العرب من النخوة والشهامة والمروءة..

بقي هذا التصرف الوضيع، الذي فعله الحويرث محفوراً في ذاكرة النبي (ص)، فلما فتح مكة، عفا عن أهلها الذين آذَوه وآذوا أصحابه، وحاربوهم وجهاً لوجه، وقال للجميع: *اذهبوا فأنتم الطلقاء*، لكنه لم يعفُ عن الحويرث بن نقيذ، لأن فاقد النخوة والكرامة.. عديم المروءة والشهامة.. الجبان المتهجّم على النساء المسالمات.. لا يستحق العفو والصفح، فأمر بقتله، ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، وقُتل الحويرث على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه زوج الزهراء فاطمة.. صهر النبي عليه الصلاة والسلام.

* * *

نتساءل هنا عن حال السيدة فاطمة في المدينة، وقد وفدت على بيت النبي (ص) زوجاتٌ أخريات، منهن عائشة.. الفتاة الذكية الجميلة..

كيف استقبلت فاطمة هذه المستجدّات، وهي العاشقة لأبيها، تحبه حباً جماً، ولا تألو جهداً في رعايته وتقديم كل ما يسرّه ويؤنسه؟؟

هل غارت من زوجاته؟

هل أنكرت على أبيها أن يتزوج بعد أمها؟

هل قالت له: من يستحقّ أن يأخذ مكان خديجة يا أبي؟

من يستحق أن يدخل بيتك بعد أمي.. تلك التي كانت عضُدَ خيرٍ لك في السرّاء والضرّاء!! -

كتب السيرة والسنة لا تذكر أن خلافاً جرى بين فاطمة الزهراء وبين زوجات أبيها، ولا تذكر أيّ موقفٍ معارضٍ لفاطمة أو لأخواتها من زواج النبي (ص) بعد أمهنّ خديجة..

قد لا نستبعد أن تجد الزهراء وأخواتُها غصّة في زواج أبيهنّ بعد رحيل الأم العظيمة، فهذا أمر طبيعي تشعر به كل أنثى مهما بلغت رجاحة عقلها وصلاح حالها..

ولكنّ العظمة أنّ فاطمة وأخواتها لم تُبدِين لأبيهنّ شيئاً من الضيق أو الحزن أو الاعتراض، وكيف تكره إحداهنّ أن يجد أبوها، من يسكن إليها فؤاده وترتاح إليها نفسه، وهنّ اللواتي أحببنَه أكثر من أنفسهنّ والناس أجمعين؟

محبتهنّ له ورغبتهنّ في إسعاده، جعلهنّ يقلنَ بلسان حالهنّ: هوانا في هواك يا أبتاه..

يمكننا أن نقول: إن دخول أم المؤمنين عائشة بيت النبي زوجة، جعل فاطمة التي بلغت آنذاك ثمانية عشر عاماً، والتي لم تفكر قبل ذلك في الزواج، ولم تكن لتتقبّله بسبب انشغالها بهموم والدها النبي، أقول: جعلها مستعدة اليوم نفسياً على الأقل لمناقشة موضوع كهذا.. ولا شك أن نفسها ارتاحت واطمأنّ بالها، عندما وجدت أباها يأنس إلى عائشة، ويجد عندها شيئاً من السلوى والعزاء..

وهذا ما حصل بالفعل، فقد بدأ الخطّاب يتقدمون إلى أبيها يطلبون يدها، وكان ممن تقدم لطلب يدها أولاً أبو بكر وعمر طمعاً منهما بمصاهرة النبي (ص) وقربه.. ولكن النبي (ص) ردّهما برفق..

كان علي بن أبي طالب يرقب ذلك من بعيد، وقلبه يهفو إلى خطبة ابنة العم فاطمة.

عليّ رضي الله عنه أدرك طفولة فاطمة، حين كان يعيش في بيت النبي (ص) وتحت كفالته عندما كان صغيراً، فلقد أراد النبي (ص) أن يخفّف عن عمه أبي طالب شيئاً من حمله الثقيل، وأن يردّ له شيئاً من معروفه الجميل، فكفل ابنه علياً، وضمّه إلى آله وعياله..

ولكنّ علياً كان شاباً فقيراً، فتهيّب أن يتقدم إلى خطبة فاطمة، فهو لا يملك مالاً يجهّز به نفسه وعروسه، ولا يستطيع أن يؤمّن لها السكن اللازم للزواج.

لقد أمضى حياته في خدمة الإسلام والدعوة إليه، فلم يملك بسبب ذلك صفراء ولا بيضاء..

بعد فترة من التفكير والتردد، تقدّم عليّ بن أبي طالب من خطبة ابنة العم، وكان عمره آنذاك إحدى وعشرين سنة، وقيل ستاً وعشرين، وعمر فاطمة ثمانية عشر عاماً.

عندما فاتح عليّ النبي (ص) برغبته بالزواج من فاطمة، سأله النبي (ص) بلطف: هل عندك شيء تمهر به فاطمة؟

أجابه: لا يا رسول الله...

فابتسم النبي (ص)، وذكّره بدرعٍ حُطَميّة غنمها يوم بدر قائلاً: ***أين دِرْعُكَ الْحُطَمِيَّةُ*؟**[61].

أجاب عليٌّ وقد ارتدّت إليه روحه: هي عندي يا رسول الله.

فقال (ص): ***أعطها إياها***[62].

هذه الدرع كانت مهرَ سيدة نساء أهل الجنة.

أسرع علي يحضر درعه الحُطميّة، لتكون مهراً لعروسه بنت النبي (ص)، وبيعت الدرع بأربعمائة وسبعين درهماً، أعطاها النبي (ص) إلى أمّ سلمة، لتشتري بها ما يلزم العروس من طيب ومتاع ولباس..

ومكثت فاطمة في بيت أبيها سبعة أشهر أخرى، استطاع عليّ خلالها أن يؤمّن بيتاً مؤجَّرا وفرشاً بسيطاً، وعندها زُفّت إليه فاطمة الزهراء، خيرُ نساء زمانها، وسيدة نساء أهل الجنة، **وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة..**

أتدرون إخوتي القرّاء ما هو أثاث المنزل، الذي زفت إليه فاطمة الزهراء، حبيبةُ أبيها وحبيبة المسلمين إلى يوم الدين؟!

وسادةٌ من جلد حشوها ليف، ورحاءان وسقاءان وجرّتان، وجلدُ كبش تنام عليه هي وزوجها، رضي الله عنها وعن زوجها.

يروى أن البيت الذي استأجره عليّ كان بعيداً عن بيت النبي (ص)، فشقّ ذلك على النبي(ص)، لأنه كان يزور ابنته كل يوم، فبلغ ذلك حارثةَ بن النعمان، وكان يقطن بجانب بيوت نساء النبي، فرجا النبي (ص) أن يتبادل مع علي وفاطمة، فيسكن في بيتهما ويسكنان في بيته، فسُرّ النبي (ص) بذلك ودعا له قائلاً: بارك الله فيك يا حارثة..

وبذلك انتقلت فاطمة رضي الله عنها لتسكن بجوار أبيها، وكان بيتها كبيوت النبي (ص): له بابان يطلُّ أحدهما على المسجد، فكانت رضي الله عنها تتمتع بسماع توجيهاته الحكيمة وتعاليمه السامية وهي في بيتها..

لنا هنا وقفة لنتفكر في الأسباب التي جعلت النبي (ص) يقبل بعليّ عريساً، وهو لا يملك من الدنيا شروى نقير، وقد كان في إمكانه أن يزوّج ابنته لأحد الصحابة الأغنياء، وليس فيهم واحد لا يطمح لخطبتها، وهي من هي حسباً ونسباً؟ ومن منهم لا يتشرف بأن يكون صهراً للنبي (ص)؟!!

أقول: في هذا الزواج عبرة عظيمة ولفتة كريمة، ففي تزويج النبي (ص) ابنته فاطمة الزهراء من عليٍّ بن أبي طالب تجسيد عمليّ، لما كان يعلّمه لصحابته عن معايير الزواج، حين يقول: ***إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض***[63].

فالدين والأخلاق هي أول ما يجب أن يبحث عنه الأهل في مواصفات من يتقدم لخطبة ابنتهم.

تتساءلون لماذا؟

أقول: عندما يملك الزوج في قلبه الإيمان والدين والخوف من الله، ويفيض خلقه بالصلاح والتقوى، هل يمكن أن يظلم زوجته، أو يسيء معاملتها، أو يبخسها حقاً من حقوقها؟

طبعاً لا..

ولذلك كان أحد الصالحين ينصح أولياء الأمور قائلاً: زوّجوا بناتكم من الرجل المتديّن الملتزم، لأنه إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها.

وطالما أن أول مقاييس الزواج في الإسلام هي الدين والأخلاق، فإن علياً أولى الناس وأحقُّهم بالزواج من الزهراء...

فهو أول من آمن بالنبي (ص)، وكان عمره آنذاك عشرَ سنوات، وهو الذي نذر حياته لنصرة الرسول الكريم، في مواقف يعجز عنها الأشداء من الرجال.. وهو الذي أحبه النبي (ص) وصرح له بذلك قائلاً: **أنت مني وأنا منك***[64]، وقال لأصحابه بخصوصه: ***من كنت مولاه فعليّ مولاه***[65]، وهو الذي قال له * ص): ***لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق***[66].)

ولما استخلفه على المدينة في غزوة تبوك قال له: ***أما ترضى بأن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى؟! غير أنه لا نبيّ بعدي***[67].

ولما كان يوم خيبر قال (ص): ***لأعطينّ الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله***[68]،فكانت الراية من نصيب علي بن أبي طالب.

إنه علي الذي اصطفاه النبي (ص) لنفسه أخاً عندما آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، فقال وهو يمسك بيده: *أنت أخي في الدنيا والآخرة*[69].

إذاً، عليٌّ بن أبي طالب يملك من الدين والأخلاق والشجاعة والنسب، إلى جانب رجاحة العقل والفطنة والحكمة والبلاغة، ما يغطّي على نقص المال..

والحقيقة أن عظمة الرجال لا تقاس بالمال ولا بالجمال، وتخطئ كل فتاة كما يخطىء أهلها، حين يقيسون الخطّاب بهذه المقاييس، التي يحق لنا أن نصفها بالوهمية والواهية والزائلة، لأنها مقاييس شكلية، لا تهب السعادة للفتاة، ولا تمنحها السكينة والاستقرار..

المحاكم الشرعية في كل البلاد مليئة بالنماذج، التي تبرهن على صحة ما أقول. وكثيراً ما نسمع قصصاً عن زوجين كانا يعيشان في أجمل بيت وأرقى منطقة، ولديهما من المال الكثير الكثير، ومع ذلك هما اليوم أمام القاضي يطلبان الطلاق والتفريق!!

وربّ رجلٍ تزوّج أجمل فتاة، وآخر تزوج بنت الحسب والنسب، وتلك تزوجت فارس الأحلام، والأخرى حظيت بالطبيب أو المهندس أو رجل الأعمال، ولكن هذا وذاك.. هذه وتلك.. لم يعودوا يعبؤون بكل ما لدى الشريك من مال وجمال، ويريدون أن يخرجوا من دائرة الجحيم التي زجّوا أنفسهم فيها، ليعيشوا أحراراً بدون زوجة أو زوج.. أحراراً من كل قيد!

ولعل في تجربة الأميرة ديانا، أميرة ويلز الراحلة، ما يقرّب الفكرة والمفهوم الذي أتكلم عنه، ويبرهن على صحته، فلقد كانت تلك السيدة من أجمل النساء، كما يراها معظم الناس، وكانت صورها تملأ الصحف والشاشات، وحظيت بوليّ عهد واحدة من الدول العظمى، وتمتعت بالمال والثروة والسلطة والعلاقات الاجتماعية الواسعة على أعلى المستويات، ورزقها الله تعالى ولدين جميلين ذكيين هما: ويليام وهاري، لكن كل ذلك لم يكفها ويكفِ زوجها الأمير للشعور بالسعادة والاستقرار العائلي، ولم يعد مقتنعاً بها ولا بجمالها،

وكذلك هي لم تعد تريده أو تريد ثروته وجاهه وسلطانه الواسع، فزهد كلٌّ منهما بصاحبه، ورغب في متابعة حياته بعيداً عنه، وكان من أمرهما ما يعرفه الجميع!

كثيراً ما أفكر بهذا النموذج، الذي ملك كل شيء لكنه لم يملك السعادة، وأقارنه بنماذج على الطرف المقابل، ربما لا تملك إلا قوت يومها.. لا سيارة ولا طيارة ولا فيلات فاخرة ولا رصيداً بالبنوك، ولكنها تعيش حياة هادئة هانئة، يظللها الحب والأنس والتفاهم والقناعة والرضا.

* * *

نعود إلى السيدة فاطمة، وهي تزفّ إلى بيت زوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ويدخل عليها أبوها النبي (ص) ليبارك لها، فتدلف إليه خجلى، فينظر إليها مبتسماً، ويقول لها: ***يا فاطمة أما إنّي ما آليت أن أنكحتُك خير أهلي***[70].

ثم يدعو لها ولزوجها: ***اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما***[71].

عاشت السيدة فاطمة حياتها مجاهدة مناضلة، تجرّ الرّحى وتطحن الحبوب.. تعجنُ العجين وتخبِزُ الخبز، وتستقي الماء من خارج المنزل..

وكان ذلك بالنسبة لها عملاً شاقًّا، فقد أثّرت الرّحى في يديها، وأتعبتها أعمال المنزل وجلب السقاء، ولم يكن بمقدور زوجها علي رصي الله عنه أن يجلب لها خادماً..

نتساءل هنا: ماذا فعلت السيدة فاطمة؟!

هل اعترضت أو تذمّرت أو تأفّفت.؟

هل عيّرت زوجها بفقره، وحنّت لعيشتها في بيت أهلها؟!

أبداً... فقد كانت فاطمة رضي الله عنها زوجة صابرة على فقر زوجها وضيق ذات يده، وكان ذلك يقلقه ويؤلمه.. فهو توّاق لتوفير الراحة لها، ولكن.. ما باليد حيلة.

يروى أن علياً رضي الله عنه عرض على أمه فاطمة بنت أسد، أن تتعاون هي وفاطمة على هذه المهام المنزلية، فقال لها يوماً: اكفي فاطمة الخدمة خارجاً، سقاية الماء والحاجة، وتكفيك العمل في البيت، العجن والخَبز والطحن[72].

ويبدو من هذا العرض أن العلاقة بين فاطمة الزهراء وحماتها فاطمة بنت أسد كانت علاقة جيدة، وإن كنا لا نجد المزيد عن تفاصيل هذه العلاقة في كتب التراجم والسيرة...

كان علي رضي الله عنه يبحث عن بصيص أمل، يمكّنه من مساعدة الزوجة الحبيبة، وتخفيف وطأة المشقة التي تلحقها، ولذلك فإنه ما إن سمع أن النبي (ص) جاءه سبيٌ، فقال لفاطمة رضي الله عنها: لقد جاء أباك سبي، فهلاّ ذهبت إليه وطلبت أن يهب لك خادماً!!

فذهبت فاطمة إلى بيت أبيها فلم تجده، فذكرت ذلك إلى خالتها عائشة، فلما قدم النبي (ص) أخبرته عائشة برغبة فاطمة..

لا شك أن النبي (ص) تألّم لما تكابده ابنته من مشقة، وكان في مقدوره كأب يحب ابنته، ويرغب في راحتها، وكرسول أوكل الله تعالى إليه التصرف بأموال الفيء وخمس الغنيمة كيفما يشاء، أن يحقّق رغبتها الوحيدة، حيث لم تذكر كتب السنة ولا السيرة أنها طلبت غيرها..

ولكن النبي (ص) كان يستشعر المسؤولية الملقاة على عاتقه، ويرى أن ما بين يديه من أموال، إنما هو وديعة، أوكل الله إليه مهمة التصرف فيها، فكان يأخذ منها ما يكفيه ويكفي أهله لسنة كاملة، ثم ينفق المال على مصالح المسلمين..

أتدرون إخوتي القرّاء كيف عالج النبي (ص) مشكلة فاطمة؟!!

ذهب إلى بيتها، فوجدها مع زوجها وقد تغطّيا بلحاف، إذا أسبلاه على أقدامهما انكشف رأساهما، وإذا غطّيا به رأسيهما بدت أقدامهما، وليس لديهما غيره، فحزن النبي (ص) لمرآهما على هذه الحالة، فاقترب منهما، وجلس بينهما، وبيّن لهما أنه لا يضنّ عليهما بخادم أو بغيره، ولكن!!

ولكن ماذا؟؟!!

قال النبي لفلذة كبده ولزوجها الغالي عليه: ***والله لا أعطيكم، وأدع أهل الصفّة تطوَى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم**[73] **وأنفق عليهم أثمانهم***[74].

ثم نظر النبي (ص) إليهما، وقال لهما بلهجة مملوءة عطفاً وحباً وحناناً: ***ألا أعلّمكما خيراً مما سألتماه؟! إذا أخذتما مضجعكما، أن تكبرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبّحاه ثلاثاً وثلاثين، وتحمداه ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من الخادم***[75].

ثم ودّعهما ومضى، بعد أن زوّدهما بتلك الرياضة الروحية، التي تغنيهما عن الخادم، وتخفّف عنهما ما قد يعترضهما من مصاعب، وتمدّهما بالصبر والقوّة الجسدية والنفسية والروحية..

ولقد سُمِع الإمام عليٌّ فيما بعد يذكر كلمات النبي (ص) ويقول: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهنّ رسول الله ص). فسأله أحدهم: ولا ليلة صفين؟! فقال: ولا ليلة صفين[76]. (وصفّين هي معركة جرت بين معاوية وعلي) رضي الله عنهما بخصوص الخلافة).

ومن المؤكد أن الزهراء لم تدَعهنّ حتى توفيت أيضاً، وأنتم إخوتي القرّاء، ما رأيكم أن تواظبوا على هذه الأذكار المسائية كل يوم، فتقولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فهنّ من الباقيات الصالحات، ولقد قال تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً)[77] والباقيات هي الأعمال الصالحة، التي تُصاحِب المرء في برزخه وصحائف أعماله، فتُدافع عنه يوم القيامة، وتَشفع له.

ما تزال رحلتنا مع السيدة فاطمة رضي الله عنها طويلة، ولا يتّسع بحثنا اليوم لاستيعابها، ولذلك أودّعكم هنا، وأعدكم أن نكمل حديثنا عن السيدة الزهراء في البحث القادم بإذن الله تعالى...

***

الصحابيَّة الجليلةُ

فاطمةُ بنتُ محمّد(ص)

(٢)

تحدثنا في البحث الماضي عن بعض الصفحات من حياة السيدة فاطمة الزهراء، وأظنكم في شوق لسماع المزيد عن حياة هذه السيدة العظيمة، رضي الله عنها وأرضاها.

تحدثنا عن طفولة الزهراء، وعرفنا لماذا لقبت بـ (أم أبيها)، فقد كانت رضي الله عنها تحمل هموم والدها الرسول، وترعاه منذ طفولتها الباكرة، ثم عرّجنا بعد ذلك على زواجها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان شاباً مؤمناً تقياً شجاعاً محباً لله ورسوله، ولم يكن ينقصه سوى المال، وهو أمر ثانويٌّ في مواصفات الزواج الإسلامي الناجح والسعيد والموفق..

إن اجتمع المال مع الدين والأخلاق فأهلاً وسهلاً، وإلا فكفى بالدين والخلق صفتين، تمكّنان الزوجين من التنعم بحياتهما في ظلّ رضا الرحمن وبركاته في الدنيا والآخرة.

ودخلنا إثر ذلك إلى بيت هذين الزوجين، وتوقفنا عند عيشة الكفاف التي كانا يعيشانها، وذكرنا كيف كانت السيدة فاطمة على هذا صابرةً راضيةً شاكرة...

سندخل اليوم إلى عمق الحياة الزوجية بينها وبين زوجها عليّ رضي الله عنهما..

يحلو للبعض أن يصوّروا حياة علي وفاطمة بالحياة المثالية الرائعة: حب عظيم وتفاهم أعظم.. حياةٌ سعيدة ليس فيها عقباتٌ ولا صعوبات.. حياة لم يحصل فيها ما يحصل بين بقية الأزواج من الصدام والأخذ والردّ، الذي نراه ونسمع عنه.

فكيف كانت حياتهما حقاً؟!

لا يشك أحد في المودّة والرحمة، التي كانت تملأ حياة هذين الزوجين، فهما مؤمنان حقاً وصدقاً، وصفات المؤمنين تتجلّى فيهما بأبهى صورها، ومن هذه الصفات الإلفة والحلم والصبر وحسن الخلق والمعاشرة بالمعروف. لكنّ هذا لا يعني أن حياتهما اليومية سلمت دائماً، ممّا قد يشوبها ويغبّر أجواءها.

تشير كتب السيرة والتاريخ إلى شيء من الاختلاف في بعض الطبائع بين عليٍّ وفاطمة رضي الله عنهما..

فلقد كان علي رضي الله عنه رجلاً جادًّا فيه حدَّة وصرامة، وهذه الصفات لا تتناسب مع طبائع النساء في كثير من الأحيان..

ورد أن النبي (ص) سأل فاطمة ذات مرة عن عليّ، فأخبرته بأن خلافاً بسيطاً نشب بينهما، وأنه خرج مغضباً ولا تدري أين هو!

كثير من الآباء اليوم يغضب إن غضبت ابنته، وينزعج إن انزعجت، فيكفهرّ وجهه في وجه صهره، ومنهم من يسيء له في الكلام والمعاملة!

لكن النبي (ص) لم يفعل شيئاً من ذلك، بل انظروا كيف عالج المشكلة: أرسل من يبحث عن عليّ، فأخبروه أنه راقد في المسجد، فذهب إليه، فوجده مضطجعاً وقد أصاب التراب طرف ردائه، فجعل النبي (ص) يمسح التراب عنه ويقول ممازحاً: ***قم أبا تراب، قم أبا تراب***[78].

ويحكى أيضاً أن النبي (ص) رؤي ذات مساء يسعى إلى بيت فاطمة وعلي، وقد ظهر القلق على وجهه، وما هي إلا مدة وجيزة حتى خرج، وقد بان الفرح والبشر في وجهه الشريف، فسئل عن فرحه هذا فقال: ***وما يمنعني، وقد أصلحت بين أحبّ اثنين إليّ***[79].

بعض الدعاة والواعظين يؤثرون التغاضي عن سرد مثل هذه القصص في حياة علي وفاطمة رضي الله عنهما، زيادةً منهم في حبهما وتقديرهما، ولكني أتساءل: **هل وجود خلافات صغيرة بسيطة بين الزوجين، يؤثّر سلباً في سيرتهما، ويطعن في عمق محبتهما وتلاحمهما؟!**

أبداً...

بل إن حياة علي وفاطمة رضي الله عنهما دليلٌ صادق على أن الحياة الزوجية فيها الحلو والمرّ، وفيها الصفو والكدر، وفيها ما يبهج ويزعج.

قد يدهش البعض من هذا الكلام ويقول: إذن، كيف تكون حياة علي وفاطمة قدوة لكل زوجين؟!! وكيف يدعو العلماء في حفلات الزواج فيقولون: اللهم وفّق بين الزوجين كما وفّقت بين عليّ وفاطمة؟!

أقول: كثيرون هم الأزواج الذين يدخلون عالم الحياة الزوجية بنظرة خياليّة وصورة نمطية مرسومة في خيالهم، حتى إذا ما واجهتهم في الواقع مشاكل الحياة وعقباتُها، ظنوا أنها بداية النهاية، وأن استمرار الحياة الزوجية يستحيل بسبب هذه المشاكل...

ولذلك أنا أرى أن الزوجين الكريمين علي وفاطمة قدوةٌ لكل زوجين، يتعلّمان منهما كيفية التغلب على المشاكل والعقبات، والتأقلم رغم اختلاف الطبائع والرغبات..

فالحياة المثالية لا توجد إلا في أذهان الشعراء والحالمين، أما الواقع فشيء آخر مختلف تماماً.. والبطولة الحقّة تكمن في تطويع كل من الزوجين لنفسه، ليقترب أحدهما من الآخر، ويجتازا معاً العوائق التي تفصل بينهما...

* * *

نقف عند محطّة ثالثة من محطات حياة فاطمة الزهراء، وهي محطّة قد تثير استغراب الكثيرين ودهشَتهم..

معلوم لديكم إخوتي وأخواتي أن الحياة الاجتماعية في تلك الأيام كانت تألف أن يعّدد الرجال زوجاتهم، ولم يكن أحد يرى في التعدد مشكلة، أو يعزو لجوء الزوج للتعدد إلى قصور أو نشوز في حياة المرأة، أو فتور وعدم تفاهم بينها وبين زوجها.. كما يفعل الناس اليوم.

إذن، وضمن هذه البيئة ومفاهيمها، أراد علي رضي الله عنه حسبما تروي كتب السنة الصحيحة أن يتزوّج العوراء بنت أبي جهل (عمرو بن هشام)، وكانت قد أسلمت وحسن إسلامها، فلما علمت فاطمة بهذا أحزنها أن يتزوج زوجها عليها، فذهبت إلى أبيها باكية، وشكت إليه ما ينوي عليّ فعله..

ماذا فعل النبي (ص)؟ هل أيّد ابنته في استيائها، وأنكر على عليّ ما يعزم عليه؟

أم أنه وافقه وأقرّه على ذلك**!!**

الحقيقة أن النبي (ص) تعامل مع هذا الأمر تعاملاً لافتاً للنظر، وتروي كتب السنة الصحيحة أنه صعد المنبر وقال: ***إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن يُنكحوا ابنتهم علياً بن أبي طالب، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابنُ أبي طالب أن يطلّق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني، يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها***[80].

وجاء في رواية أخرى أن النبي (ص) قال: ***إن فاطمة مني، وأنا أتخوّف أن تُفتن في دينها، وإني لست أحرّم حلالاً، ولا أحلّ حراماً***[81].

إذاً لم يرضَ النبي (ص) أن يتزوج عليٌّ على فاطمة[82].

ولسائل أن يسأل: لماذا أنكر النبي (ص) على عليّ أن يعدد الزوجات، مع أن الله تعالى أباح التعدد في القرآن الكريم، ومع أن تعدد الزوجات كان أمراً سائداً، وقد فعله النبي (ص) ومعظم الصحابة؟**!**

هذا سؤال وجيه يطرح نفسه، لكني أردّ عليه بسؤال مهم: **هل أنكر النبي (ص) ذلك بصفته نبياً مشرِّعا، أم بصفته أباً أشفق على ابنته من هذه التجربة المريرة؟**

الجواب على هذا السؤال، هو المفتاح لفهم موقف النبي من هذه الحادثة، فالنبي (ص) أب محبّ رحيم، يدرك شدّة غيرة ابنته، ويعلم أن دخول ضرّة إلى حياتها يحزنها ويغضبها ويقلب حياتها رأساً على عقب، وربما يؤدي بها إلى أن تفتن في دينها حين تنساق وراء غيرتها.. ولذلك نراه يقول: إني لا أحرّم حلالاً، ولا أحل حراماً .. فالحلال بيّن والحرام بيّن، لكن الإسلام الذي سمح للرجل بتعدد الزوجات، لم يمنع المرأة من أن تشترط على زوجها عند عقد الزواج أن لا يعدّد عليها، ولم يمنعها من طلب الطلاق إن عدّد، سواء اشترطت عليه ذلك أم لم تشترط، ولم يعتبر الإسلام هذا التصرف اعتراضاً على شرع الله تعالى، بل اعتبره قضية شخصية، تتصرف فيها كل زوجة بحسب نفسيتها وعقليتها ومصلحتها ومصلحة أسرتها.

ولذلك صنّف الإمام البخاري هذا الحديث في صحيحه تحت باب: **ذبّ الرجل عن ابنته في الغَيرة والإنصاف..**

وفي موقف النبي (ص) من رغبة علي في الزواج على فاطمة حكم جليلة، يمكن أن نفهم منها ما يلي:

أولاً، تعدد الزوجات أمر مباح في الإسلام، وليس أمراً مندوباً ولا واجباً، كما يدّعي المهووسون بالحديث عن تعدد الزوجات، الذين يلوون أعناق النصوص لتتوافق مع أهوائهم وشهواتهم، فترى أحدهم يحثّ على التعدد ويرغّب فيه، وعندما تستنكر زوجته أو أهلها ذلك، يقول لهم متشدّقا: لم تنكرون أمراً فرضه الله علينا؟

وإلى هؤلاء أقول: **تعدد الزوجات ليس فرضاً ولا واجباً ولا مندوباً.. هو أمر مباح فقط**، وسياق آية التعدد يدل على الإباحة على الرغم من أن اللفظ جاء بصيغة الأمر: **(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا)**[83]، لأن الأمر بالتعدد جاء بعد النهي عن نكاح اليتيمة، التي يخاف وليّها أن لا يُقسط فيها إن تزوجها، والقاعدة الشرعية تقول: الأمر بعد النهي للإباحة.

أما الدلالة الثانية التي أحب أن أؤكد عليها، فهي أن للزوجة الأسبق أن تعترض على زواج زوجها، ولها أيضاً أن تطلب الطلاق إن لم ترضَ بزواجه، وليس عليها إثم أو حرج في ذلك. كما أن للأهل أن يدافعوا عن ابنتهم، ويدفعوا عنها الأذى، الذي قد يلحقها من زواج زوجها بأخرى أو من أي شيء آخر، قد يهدد حياتها بالتعاسة.

طبعاً عدَل عليٌّ رضي الله عنه عن الفكرة، ففاطمة وأبوها أغلى عنده من كل شيء، ولم يكن ليفعل ما لا ترضاه هي أو يرضاه أبوها. وطابت نفس فاطمة بقرار عليّ، وقرّت عينها معه، وازدادت يقيناً من محبته لها ومكانتها عنده، كما سعدت ولا شكّ بموقف أبيها، وأدركت بمزيد من اليقين والطمأنينة، أن وراءها سنداً وعضداً، يدعمها وقت الأزمات والشدائد.

أنجبت فاطمة رضي الله عنها أربعة أولاد في غضون ثماني سنوات:الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم، وربّتهم فأحسنت تربيتهم.

كانت رضي الله عنها تدرك عظم المسؤولية الملقاة على عاتقها في عالم التربية، فأولادها من آل بيت النبوة، ولكي يكونوا كذلك بجدارة واستحقاق، يجب أن تسهر على تربيتهم بما يليق بهم.

ورغم انشغالها رضي الله عنها بهذا الشأن الكبير، وبهموم الحياة الزوجية وأعبائها، إلا أنها كانت تدرك أن عليها أن تساهم في نصرة الإسلام، وأنها لا يجوز أن تتقاعس عن أداء هذا الواجب، طالما كانت تستطيع التوفيق بين مهامّها الأسرية والزوجية، وبين مهامها الدعوية والجهادية.. **فنراها رضي الله عنها تشارك في غزوة أحد مع أخواتها من الصحابيات، رغم أنها كانت حاملاً بالحسن رضي الله عنه..**

عندما نتأمل في خروج بعض الصحابيات ومعهن فاطمة بنت النبي (ص) مع الجيش الإسلامي، يرعين شؤون الجنود، ويهيّئن لهم الطعام، ويمرضن الجرحى، ويفعلن ما يمكنهنّ فعلُه لدعم مسيرة الإسلام، ندرك كم هم مفتئتون على الإسلام أولئك الذين يُحرّمون على المرأة أن تخرج من منزلها، ويقصرون عملها على الطبخ والنفخ والكي والغسيل...

ألسنا نقول: السيدة فاطمة الزهراء قدوةٌ لنسائنا اليوم؟!

حسناً!

أليس في خروجها إلى الغزو دلالةٌ هامة على أن للمرأة دوراً عظيماً وهاماً في تأييد دينها ونصرته؟!

لم تكن فاطمة بعيدةً عن مواطن القتال في غزوة أحد، بل كانت تخوض في قلب الميدان، بما يحتويه ذلك من أخطار، أقلّها تعرضها للإصابة بالجراح، وأكثرها الاستشهاد في سبيل الله، أو الأسر من قبل جيش الأعداء..

أليس ذلك محتملاً إخوتي القرّاء ؟!!

ومع ذلك لم يقل النبي (ص) لها ولا لأمثالها من النساء: امكثن في بيوتكن.. فوجوهكنّ عورة، وأصواتكنّ عورة، وأنتنّ عورة بعورة!

يروي الإمام البخاري في صحيحه دور فاطمة الزهراءِ وزوجِها عليٍّ في تضميد جراح النبي (ص)، عندما أصيب في غزوة أحد.. فكان عليّ يسكب الماء في المجنّ (الترس)، وفاطمة تغسل الدم، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها بالجراح فاستمسك الدم[84].

وفي السنة الثامنة للهجرة خرجت الزهراء لفتح مكة، فكانت فيمن كانوا في جيش النبي (ص)، وفيمن تمتّعت أعينهم برؤية نصر الله والفتح، ولو شاءت الأقدار الإلهية أن يكون هناك قتال لشاركت به فاطمة، ولكن لم يكن في فتح مكة قتال، فلقد أمر النبي (ص) صحابته أن يخفوا نبأ سيرهم إلى مكة، ودعا ربه فقال: **اللهم خذ على أبصار قريش فلا يروني إلا بغتة***[85]، واستجاب الله تعالى دعوة نبيه، وحالت حكمته * وتكتيكاته (ص) دون حدوث قتال بين المسلمين والمشركين...

وعندما عادت فاطمة من مكة إلى المدينة بعد شهرين قضتهما بعيداً عنها، كان في انتظارها أحداث جسام عديدة.. منها وفاة أختها أمِّ كلثوم، وكانت فاطمة قد شهدت وفاة أختها رقية في السنة الثانية للهجرة، وكان ذلك قبل زواجها من علي رضي الله عنه، ثم شهدت وفاة أختها زينب في السنة الثامنة للهجرة، وها هي اليوم تشهد وفاة أختها الثالثة أم كلثوم في السنة التاسعة للهجرة..

وبعد ذلك توفي أخوها إبراهيم الذي ولدته مارية القبطية، وذلك في السنة العاشرة للهجرة..

لا شكّ أن فاطمة كانت تشعر بالحزن، الذي يكابده أبوها النبي إثر توالي المصائب عليه واحدة تلو الأخرى، فكان ذلك يزيد في آلامها وأحزانها.. ولكنها كانت تتجلد وتتصبّر، وخاصة عندما كانت ترى أباها، وهو يبتسم لها، ويهشّ في وجهها، ويعود إلى حياته الطبيعية، وكأن هذه المصائب والهموم كانت تمرّ عليه مرور الكرام! فكان ذلك معيناً لها على الصبر وتحمّل هموم الحياة وكرباتها..

ولكنّ ما حدث في أوائل السنة الحادية عشر للهجرة، أفقدها ما بقي لها من قوة وجلد وصبر...

فقد مرض النبي (ص) واشتدّ مرضه، ولم تكن فاطمة ترى في النبي (ص) أباها الحنون، الذي يرعاها ويحنو عليها فقط.. لكنه كان كلَّ شيء في حياتها: أباها وأمها وإخوتها ونبيها ورسول ربّها إليها... ولم تكن فاطمة تتصور حياتها بدونه...

يروي البخاري ومسلم في هذا أنها زارته عندما كان يُمرّض في بيت خالتها عائشة، وكانت نساؤه مجتمعاتٍ حوله، فلما رآها رحّب بها رغم آلامه قائلاً: *مرحباً بابنتي*، ثم أجلسها بجانبه، ثم سارّها (أي: كلّمها بصوت منخفض)، فبكت بكاءً شديداً، فلما رأى جزعها سارّها ثانية فضحكت...

أتدرون إخوتي الكرام بماذا سارّها النبي (ص)؟

الحقيقة أن هذا أثار فضول أم المؤمنين عائشة، فسألت فاطمة عن ذلك فقالت لها: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله (ص).

فلما توفي النبي (ص) أخبرتها فقالت: في المرة الأولى أخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة، وأنه عارضه الآن مرتين، وقال لي: ***إني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك***[86].

قالت فاطمة: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارّني الثانية، فقال: ***يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟!*** فضحكت لذلك[87].

وفي رواية أنه قال لها في المسارّة الثانية: أنها أول من يتبعه من أهله[88].

ولما ثقل النبي (ص) وتغشّاه الموت بسكراته، لم تتمالك فاطمة نفسها، أن قالت بصوت يفيض أسى ولوعة: واكربَ أبتاه..

فسمعها النبي (ص)، فقال لها بلهجة مملوءة عطفاً وحناناً: ***ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم****[89].

نعم.. ليس عليه كرب بعد اليوم، فجنان الخلد في انتظاره، ولقاء ربه أحلى أمنياته..

وعندما توفي النبي (ص) بكت فاطمةُ أباها الحبيب.. وقالت بصوت متقطع يخرج من بين زفراتها وحسراتها: يا أبتاه، أجاب رباً دعاه.. با أبتاه، جنة الفردوس مأواه.. يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه[90].

وعندما دُفن عليه الصلاة والسلام، أحسّت فاطمة بروحها تسبقها إلى قبر الحبيب، لترافقه في رحلته السماوية.. فنظرت إلى أنس بن مالك، وقالت والألم يعتصر فؤادها وصوتها: **يا أنس، كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟**[91].

ويروى أنها قالت ترثي أباها، وهي تمسك تراب قبره بيديها وتشمّه:

ماذا على من شمّ تربة أحمدٍ

أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا

صُبَّت عليّ مصائبٌ لو أنها

صُبَّت على الأيام صِرن لياليا

ويروى أيضاً أنها رثته قائلة:

إنا فقدناك فقدَ الأرض وابلَها

وغاب مذ غِبتَ عنا الوحيُ والكتبُ

فليت قبلك كان الموتُ صادَفَنا

لمّا نُعيت وحالت دونك الكُثُبُ

نعم.. صدقت يا فاطمة.. نعم يا بنت الرسول.. فكل مصيبة بعد أبيك لممٌ يهون..

لم تعش فاطمة بعد النبي (ص) سوى أشهرٍ قليلة، ومن المؤرخين من قال: إنها ثلاثة أشهر، ومنهم من قال: ثمانية أشهر، والأرجح أنها توفيت بعده بستة أشهر...

وكانت وفاتها ليلاً، فدفنها زوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فور موتها، ولم ينتظر الصباح، فلم يعلم بموتها ودفنها سوى عدد قليل من الصحابة، كالعباس وبعض آل البيت..

قبل أن نسدل الستار على حياة السيدة فاطمة رضي الله عنها، سنحاول أن نميط اللثام عن موضوعين شائكين:

أولهما، ما يفهمه البعض من أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين رضي الله عنهم، هم فقط آلُ بيت النبي ص)، وأنّ زوجاته لسن من آل بيته..)

ويستندون إلى قوله تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[92].

كما يستندون إلى حديث أورده الإمام الترمذي، أن النبي (ص) لما نزلت عليه هذه الآية كان في بيت زوجته أم سلمة، فدعا فاطمةَ وحسناً وحسيناً فجلّلهم بكساء، وعليّ خلف ظهره، فجلّله بالكساء ثم قال: ***اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً*** قالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: ***أنت على مكانك، وأنت على خير***[93].

وقد روى الإمام مسلم هذا الحديث من وجه آخر، ليس فيه سؤال أم سلمة للنبي (ص)، ولفظه: خرج النبي ص) غداةً وعليه مرطٌ مرحَّل من شعر أسود (أي كساء من صوف فيه نقوش)، فجاء الحسن بن عليّ) فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليّ فأدخله، ثم قال: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[9495].

والحقيقة أنه علينا لنناقش الموضوع بشكل عقلانيٍّ بعيداً عن مشاعر العاطفة، أن نأخذ بعين الاعتبار السياقَ، الذي ورد فيه قول الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[96]، فقد جاءت هذه الآية في معرض الحديث عن نساء النبي (ص)، حيث قال تعالى: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا*وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[97].

وبناءً على قواعد اللغة والأصول والتفسير، فإن نساء النبي (ص) يندرجن في الآية بشكل أوّلي، ثم يمكن التعميم بعد ذلك وإدراجُ بنات النبي (ص) وأولادهم وأزواجهم وأحفادهم في مفهوم الآية.

أما أن نستبعد من آل النبي زوجاتِه، اللواتي نزلت الآية الكريمة فيهن أصلاً، لنحصرها في عدد محدود من أهل النبي، فإن هذا تأويلٌ للآية بما لا تحتمله، واجتزاءٌ للمعنى لا تقرّه قواعد اللغة والتفسير...

فآل بيت النبي هم زوجاته وبناته وأزواجهم وأولادهم، وغاية ما في حديث الكساء توسيع دلالة الآية، التي نزلت في نساء النبي (ص)، لتدخل فيها ابنة النبي فاطمة وصهره عليٌّ وأحفاده، كما ذكر أهل العلم وأفاضلهم..

أما الأمر الثاني الذي أريد أن أتحدث فيه، فهو ما يقال عن خلاف جرى بين فاطمة الزهراء وبين خليفة المسلمين أبي بكر الصديق حول ميراثها من أبيها عليه الصلاة والسلام من خيبر وفدك وأموال بني النضير..

وفدك هي أرض تبعد عن المدينة مسيرة يومين، وكان يقطنها اليهود، وقد كانت بعض أراضي خيبر وفدك وبني النضير مما أفاء الله على رسوله، فكان (ص) يقتطع من ريعها نفقة زوجاته لسنة كاملة، وينفق منها أيضاً على فقراء بني هاشم والمطلب الذين لا تحلّ لهم الصدقة، ثم ينفق ما تبقّى في مصالح المسلمين...

ولما توفي النبي (ص) طالبت فاطمة الزهراء بميراثها من هذه الأراضي، لكن أبا بكر رضي الله عنه رفض تقسيم ميراث النبي (ص).

والسؤال الذي يستحق الاهتمام: لماذا امتنع أبو بكر من تقسيم ميراث النبي وإعطاء السيدة فاطمة حصّتها من الميراث؟

كان لأبي بكر رأيٌ آخر استند فيه إلى قول النبي (ص): ***لا نورَث ما تركناه صدقة***[98]؟ وهذا الحديث الشريف واردٌ في صحيح البخاري ومسلم. كما استند أبو بكر إلى الحديث الشريف المتفق عليه، الذي يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام: ***لا يقتسِم ورثتي ديناراً، ما تركتُ بعد نفقة نسائي ومؤونة عاملي**[99]* **فهو صدقة***[100].

إذاً لم تكن فاطمة وحدها التي مُنِعت من حصتها من الميراث، بل لقد طال هذا الحكم جميع من يمكن له أن يرث من النبي (ص)، بما فيهم زوجاته التسع.. ومنهن عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهن أجمعين.

وكان أبو بكر ومن بعده عمر وعثمان رضي الله عنهم ينفقون على أهل بيت النبي (ص) من ريع أموال الفيء، ثم يصرفون ما تبقّى منه في الصدقات على الفقراء والمساكين ومصالح الأمة.

ولقد خاطب سيدنا أبو بكر ورثة النبي (ص) فقال لهم:

والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله أحبُّ إلّي من قرابتي، وإني والله ما ألوتُ في هذه الأموال، التي كانت بيني وبينكم عن الخير، ولكني سمعت رسول الله (ص) يقول: ***لا نورَث، ما تركناه صدقة***[101].

نتساءل هنا: هل استطاع أبو بكر أن يسترضي الزهراء رضي الله عنه وعنها؟

تتعدد روايات العلماء حول موقف السيدة فاطمة من رأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنها، فمنهم من يقول: إنها لم تقتنع به، وتمسّكت بحقّها في الحصول على الميراث، ومنهم من يقول غير ذلك. غير أن ما يلتقي عليه الرواة هو أنها لزمت بيتها بعد وفاة أبيها، حتى لحقت به إلى جوار الرحمن الرحيم.

ويؤكّد المؤرخون على حرص أبي بكر الصديق على استرضاء السيدة فاطمة، فلقد قال لها: يا بنتَ رسول الله، ما خيرُ عَيشٍ حياةٍ أعيشُها وأنت عليَّ ساخطةٌ؟! فإن كان عندك من رسول الله في ذلك عهد، فأنت المصدَّقة المأمونة على ما قلت[102]...

وكان فيما قاله أيضا:والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله ومرضاتِكم أهل البيت[103]...

ويروي ابن ميثم البحراني، وهو من علماء الشيعة، أن أبا بكر قال لفاطمة مسترضياً: يا خِيرةَ النساء وابنةَ خير الآباء، والله ما عدوتُ رأي رسول الله (ص) ولا عملت إلا بأمره..

ويرى ابن ميثم البحراني أن فاطمة رضيت عند ذاك، وأنها نزلت على رأي الصدّيق رضي الله عنه وعنها.

وأنا بدوري أرجّح هذا، وأهيب بكل مسلم أن يطوي صفحات الخلاف، التي يحاول المغرضون نبشها لزرع التفرقة والبغضاء بين المسلمين...

مهما اتسع المجال للحدثث عن الزهراء، فإنه يضيق عن استيعاب حياتها ومآثرها، لكنني في نهاية هذه البحث أقول: حبك يا زهراء باقٍ في فؤاد كل مسلم إلى يوم القيامة.. فأنت بضعة النبي (ص)، يؤذيه ما يؤذيك، ويريبه ما يريبك..

سلامٌ عليك منّا يا سيدة نساء هذه الأمة.. ورحم الله فيلسوف الإسلام وشاعره الكبير محمد إقبال حيث قال:

المجدُ يشرق من ثلاث مطالعٍ

في مهد فاطمةٍ فما أعلاها

هي بنتُ مَن؟ هي زوجُ مَن؟ هي أمّ مَن؟ مَن ذا يداني في الفَخَارِ أباها

هي أسوةٌ للمؤمنات وقدوةٌ

يترسَّم الفجرُ المنيرُ خطاها

إخوتي وأخواتي.. بشعر محمد إقبال أختم حديثي عن الزهراء، على أمل أن تكون سيرتها مَعيناً ريَّانا لكل فتاة وامرأة إلى يوم الدين...

* * *

سأنتقل في الصفحات التالية من الحديث عن بنات النبي صلى الله عليه وسلم، لأتحدث عن حفيدته السيدة (أمّ كلثوم) بنتِ عليٍّ رضي الله عنه وعنها.

***

---

54 رواه البخاري في صحيحه، ٣/١٣٤٥، حديث (٣٤٧٥).

55 رواه البخاري في الصحيح، ١/٩٤، حديث (٢٣٧).

56 رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٢٨٢، حديث (٣٢٩٠).

57 رواه البخاري في الصحيح، ٣/١١٨٠، حديث (٣٠٥٩).

58 سنن أبي داود، ٤/٥٢٣، حديث (٥٢١٩). وصححه الألباني.

59 رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٣٦٠.

60 رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٣٦١، حديث (٣٥١٠).

61 رواه أبو داود، ٢/٢٠٦، حديث (٢١٢٧). وصححه الألباني.

62 رواه النسائي في سننه، حديث رقم (٣٣٨٨). وصححه الألباني.

63 رواه الترمذي في السنن، ٣/٣٩٤، حديث (١٠٨٤). وحسّنه الألباني.

64 صحيح البخاري، ٣/١٣٥٣.

65 سنن الترمذي، ٥/٦٣٣، حديث (٣٧١٣). وصححه الألباني.

66 سنن النسائي الكبرى، ٥/١٣٧، حديث (٨٤٨٧). وصححه الألباني.

67 صحيح مسلم، ٧/١١٩، حديث (٦٣٧٠).

صحيح البخاري، ٣/١٠٩٦، حديث (٢٨٤٧). 68

رواه الترمذي في سننه، حديث رقم (٤٠٨٦). وضعفه الألباني. 69

جامع الأحاديث للسيوطي، ٢٣/٣٥٩. 70

رواه ابن سعد في طبقاته والطبراني في *المعجم الكبير* بسند حسن. 71

مصنف ابن أبي شيبة، ٧/١٠١، حديث (٣٤٥٠٢). 72

أي أبيع رقيق السبي. 73

مسند الإمام أحمد، حديث رقم (٨٥٠). وضعفه الألباني. 74

رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم (٥٣٦٢). 75

رواه مسلم فس صحيحه، حديث رقم (٥٣٦٢). 76

سورة الكهف، الآية: ٤٦. 77

رواه البخاري في الصحيح، ٥/٢٣١٦، حديث (٥٩٢٤). 78

الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ٨/٥٩. 79

متفق عليه: البخاري، ٥/٢٠٠٤، حديث (٤٩٣٢). مسلم، ٧/١٤٠، حديث (٦٤٦٠). 80

رواه البخاري في صحيحه، ٣/١١٣٢، حديث (٦٤٦٢). 81

ورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تجتمع بنت رسول الله مع بنت عدو الله عند رجل أبداً. وقد وردت هذه الرواية في صحيح البخاري ومسلم. ولكن كثيراً من العلماء اعتبروا هذه الزيادة شاذة، لأنها لم ترد في الروايات الأخرى الصحيحة من جهة، ولأنها تخالف منهج القرآن الكريم من جهة أخرى، فالله تعالى يقول: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، فلا يُعقل إذن أن يحمّل النبي صلى الله عليه وسلم بنت أبي جهل المسلمة وزر أفعال أبيها الكافر!!! 82

سورة النساء، الآية: ٣. 83

رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٠٦٣، حديث (٢٧٤٧). 84

مغازي الواقدي، ١/٧٩٦. 85

رواه البخاري في صحيحه، ٥/٢٣١٧، حديث (٥٩٢٨). 86

رواه البخاري في صحيحه، ٥/٢٣١٧، حديث (٥٩٢٨). 87

رواه مسلم في صحيحه، ٧/١٤٢، حديث (٦٤٦٦). 88

رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٤٤٦٢). 89

رواه البخاري في صحيحه، ٤/١٦١٩، حديث (٤١٩٣). 90

رواه البخاري في صحيحه، ٤/١٦١٩، حديث (٤١٩٣). 91

سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. 92

رواه الترمذي، ٥/٣٥١، حديث (٣٢٠٥). وقال الترمذي: حديث غريب من هذا الوجه. 93

سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. 94

رواه مسلم في الصحيح، ٧/١٣٠، حديث (٦٤١٤). 95

سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. 96

سورة الأحزاب، الآية: ٣٣-٣٢. 97

رواه مسلم، ٥/١٥١، حديث (٤٦٧٦). 98

أي أجرته. 99

رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٢٧٧٦). ومسلم في صحيحه، رقم (٤٦٨٢). 100

رواه مسلم في صحيحه، ٥/١٥١، حديث (٤٦٧٦). 101

عمدة القاري شرح صحيح البخاري في الصحيح، بدر الدين العيني، ٢٢/٢١٠. 102

السنن الكبرى للبيهقي، ٦/٣٠١، حديث (١٢٥١٥). 103

الصحابيةُ الجليلةُ

أمُّ كلثوم (بنتُ عليٍّ بنِ أبي طالب)

نهلنا في أبحاثنا السابقة من مَعين زوجات النبي (ص) وبناتِه رضوان الله عنهنّ أجمعين، ورشفنا من خلال الحديث عنهنّ من رحيق العلاقة الزوجية والأبوية للحبيب المصطفى، ما يمكّننا من الاقتداء به في مسيرتنا الزوجية والأسرية.

سننتقل فيما تبقّى من صفحات هذا الكتاب للحديث عن صحابيات الرسول (ص)، اللواتي آمنّ به وبدعوته، ونذرن أنفسهنّ لطاعته واتّباع نهجه والدفاع عن دينه، عسى أن يكون في هذا قدوةٌ لنا في مسيرتنا الشخصية والدعويّة...

* * *

سأحدثكم الآن عن صحابية شابةٍ، تزوجت كهلاً من كهول الصحابة، ولكن ليس أيَّ كهل!!

ستسألون: من هي تلك الصحابية، ومن هو زوجها؟!

وسأقول: رويدكم.. وصبركم عليّ.

سأبدأ الحديث عنهما بقصة واقعية، حدثت في يوم من أيام حياتهما الزوجية، ومن خلال القصة ستعرفون من هما هذان الزوجان..

بدأت القصة حين كان الزوج يجوب مشارف المدينة المنورة، فسمع صوت امرأة تئنّ بصوتٍ عالٍ..

تقدّم من مصدر الصوت، فإذ به يرى بيتاً من الشّعر، أي: خيمة..

استغرب الصحابي أن يضرب أحدٌ خباءه في هذا المكان الموحش المقفر الخالي من الجوار! لم لا يشدّ رحاله إلى المدينة المنورة، التي لا تبعد سوى بضعة أميال!

رأى على باب الخباء رجلاً يذرع المكان جيئةً وذهاباً بخطوات مضطربة، وهو يفرك يديه ببعضهما، وقد علا وجهه الهمُّ والحزنُ والغمّ..

كان صوت أنين المرأة صادراً من داخل الخيمة، وكان يعلو تارةً ويخمد أخرى.

اقترب الصحابي من الرجل وسأله: من أنت؟

فأجابه: أنا رجل من أهل البادية، جئت إلى أمير المؤمنين أسأله من فضله.

فقال الصحابي: وما هذا الصوتُ الذي أسمعه في البيت يا أخا العرب؟

امتعض الرجل من هذا السؤال الفضوليّ، وقال للصحابي: انطلق لحاجتك يرحمك الله..

ولكن ذلك الصحابي كرّر السؤال، ولم يبالِ بما قد يواجهه من غضب صاحب الخباء، أو بما قد يُتهم به من الفضوليّة..

أجاب الرجل على مضض: هي زوجتي، قد دبَّ فيها الطلق، ولست أدري ما أفعل.

سأله الصحابي: هل عندها أحد؟

أجابه: لا.. ليس عندها أحد..

استأذن الصحابيُّ الرجلَ، وهرول نحو بيته، ونادى زوجته على عجلٍ، وهو يقول: هل لك في أجرٍ ساقه الله إليك؟!

سألته: وما هو؟!

قال: امرأةٌ غريبة تضع وليدها وليس عندها أحد..

أجابته بلهفة: نعم.. نعم إن شئت..

لملمت الصحابيةُ الفتيّة بعض الأغراض، التي تصلح لولادة المرأة، بينما حمل الزوج معه قِدراً وحبوباً وقليلاً من الشحم، ثم أسرعا يحثّان الخطا إلى ذاك الخباء في مشارف المدينة..

عندما اقتربا من الخباء، كان أنين المرأة ما يزال يرنّ في الأفق..

أسرعت الصحابية إلى الداخل، بينما بقي زوجها مع الرجل ينتظران في الخارج..

بدأ الصحابيُّ يجمع بعض الأعواد المبثوثة حول الخباء، وهو يقول: تعال يا رجل فأعنّي حتى نوقد النار..

ما هي إلا دقائق حتى أشعل الصحابي النار، ثم وضع فوقها القدرَ المملوءة بالحبوب والماء والشحم..

لحظاتٌ صامتةٌ حرجة مضت، قطعها صوت المولود وهو يستهلّ صارخاً، أعقبه صوت الصحابيةِ الشابة، وهي تقول: يا أمير المؤمنين بشِّر صاحبك بغلام..

ذُهل الرجل عندما سمع ما قالته المرأة: أمير المؤمنين؟!!

أيُعقل أن يكون هذا الكهلُ الذي أمامه أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب!!

بدأ العرق يتصبّب من جبينه، فانتبه أمير المؤمنين عمر لذلك، فأحب أن يكسر قلقه وخجله، فقال له مداعباً: مكانك كما أنت.

لم يفهم الرجل مُراد أمير المؤمنين، حتى رآه يحمل القِدر من فوق النار، ويضعُه على الباب، وهو ينادي: يا أم كلثوم..

هرعت أم كلثوم قائلةً: لبيك يا أمير المؤمنين.

فقال لها: خذي فأشبعي المرأة من الطعام..

فعلت أم كلثوم ما طلبه منها زوجها، ولما شبعت المرأة، أخرجت أمُّ كلثوم القِدر ووضعته أمام الباب، فقام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فأخذه ووضعه بين يديّ الرجل وهو يقول: كُل يا رجل، فقد سهرتَ من الليل حتى أُنهِكت..

اغرورقت عيناه بالدموع، وهو يشكر أمير المؤمنين على معروفه، وعقله لا يصدّق أنّ مَن أمامه هو أمير المؤمنين، وأنّ مَن بالداخل هي زوجته أمُّ كلثوم بنت علي بن أبي طالب.. ابنةُ فاطمة الزهراء.. رضي الله عنهم أجمعين.

لم ينس أمير المؤمنين، وهو يودِّع الرجل أن يقول له: إذا كان الغد فائتنا نأمرْ لك بما يصلحُك..

* * *

ما رأيكم بهذه القصة إخوتي القرّاء؟!

ليس غريباً أن تكون أمُّ كلثوم بنت علي بن أبي طالب وفاطمةَ الزهراء أهلاً لكل خير، وعوناً لزوجها على كل خير.

ربما لا يعرف كثيرٌ من الناس، أن أم كلثوم كانت زوجةً لعمر بن الخطاب، وربما يندهش بعضهم ويقول متسائلاً: كيف يزوِّج علي بن أبي طالب ابنته من عمر بن الخطاب، رغم الخلاف المعروف الذي بينهما؟

أقول: أرجو أن يكون في حديثنا هنا عن هذا الزواج المبارك، ما يُميط اللثام ويكشف الغطاء عن كثير من القضايا الغامضة والملتبسة عند كثير من المسلمين.

وبالمناسبة، أحب أن أؤكد أنّ ما سأذكره موجود وموثّق في كتب السيرة والحديث والتاريخ.

منذ البداية: كيف تمّ هذا الزواج؟!

إليكم إخوتي القرّاء ما حدث.

دخل عمر بن الخطاب يوماً على عليٍّ بن أبي طالب، وسأله أن يزوجه ابنته أمَّ كلثوم، وقال له: أنكحنيها يا عليّ، فو الله ما من الناس أحدٌ يرصد من كرامتها ما أرصده وأنتظره..

لمس عليّ من عمر رغبته القوية الصادقة في الزواج من ابنته، فقال له: سوف أبعثها إليك، فإن رضيتَها فقد زوُّجتكَها..

سوف أبعثها إليك!

هذا ما قاله عليّ لعمر رضي الله عنهما، فكيف بعثها؟

أعطاها بُرداً (أي قطعة من قماش) وقال لها: اذهبي إلى أمير المؤمنين عمر، وقولي له: هذا هو البُرد الذي أرسله إليك والدي..

فلما قالت أم كلثوم ذلك لعمر قال: قولي له: قد رضيت به...

رجعت أم كلثوم إلى بيت والدها مدهوشةً، فقد رضي عمر بالبُرد دون أن يمسّه أو ينشره، ولم تدرِ أن البرد كان مجرّد طُرفةٍ حكيمة ذكية، الغرضُ منها أن يراها أمير المؤمنين وتراه عن قُرب قبل أن يتزوجا..

إذن، رضي عمر، ورضي علي، ورضيت أم كلثوم، وتمّ الزواج المبارك. ولا تسل عن فرحة عمر آنذاك، فقد خرج إلى مجلس أصحابه، وهو يقول: زفّوني وهنّئوني..

استغرب القومُ ذلك الفرح المفاجئ، فعهدُهم بعمرَ أن يروه يحمل هموم رعيّته، فما باله اليوم يبادرهم بالفرح الغامر؟؟

زال استغرابهم عندما باح لهم بالسبب قائلاً:

تزوجت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وإني سمعت النبي (ص) يقول: ***كل نسب وسبب وصهر - منقطعٌ يوم القيامة إلا نسبي وسببي وصهري***[104]، وإني قد جمعت النسب والسبب، فأردت أن أجمع إليه الصّهر.

نتساءل هنا: كيف أمضت أم كلثوم حياتها في بيت زوجها أمير المؤمنين عمر، وكيف كانت العلاقة بينهما؟

تُغفل كتب التاريخ والتراجم التفاصيل الصغيرة كعادتها دائماً، وتقتصر على ذكر الأحداث الكبيرة، ولكننا نستطيع أن نعرف كثيراً من التفاصيل الصغيرة من خلال معرفتنا للأحداث الكبيرة المذكورة..

فعمر رضي الله عنه كان شديداً قوياً، وهو الذي قيل فيه: إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع.. وكان رضي الله عنه ميَّالا للأخذ بعزائم الأمور، وعندما هداه الله للإسلام، هذّب الإسلام صفاتِه هذه، وجعلها ميزةً ومفخرةً له أنَّى ذُكر.. فقد جنّد قوته وشدته لإحقاق الحق والعدل، أما مع الضعفاء والمساكين والمظلومين فقد كان ليِّنا حليماً..

والحقيقة أنه اجتمع في عمر من الصفات ما لم يجتمع في غيره: اللين والشدة، الحِلْم والثورة، القوّة والرحمة، كل هذه الصفات اجتمعت في شخصيته، ولكن.. كان لكلٍّ منها دورُه الذي لا يحيد عنه.. ووقته الذي يظهر فيه.

يروى عنه أنه كان شديد المحاسبة لنفسه وأهله، وكان إذا نهى الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال لهم: إني نَهيتُ الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم

هابوا. وإني والله لا ُأوتى برجلٍ منكم وقع فيما نهيتُ الناس عنه، إلا ضاعفتُ له العذابَ لمكانه منّي، فمن شاء منكم فليتقدّم ومن شاء فليتأخّر..

وعندما قبلت أمّ كلثوم بعمر زوجاً، كانت تعلم فيه كلَّ هذه الصفات، ولكنها كانت تراها مزايا عظيمة، ولا غرابة في هذا.. فهي ابنةُ عليّ بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، تربّت في كنفهما على نفس المبادئ ونفس الطبائع والعقلية، ولذا لم تضق يوماً باستشعاره العظيم والدقيق والمرهفِ للمسؤولية.. ولم تُنكر عليه خروجَه اليوميّ إلى أزقّة المدينة ومشارفها، ليتفقّد أحوال رعيته، بل كانت كما رأيناها في القصة التي بدأنا بها بحثنا عوناً له في كثير من الشؤون والأحيان..

يخطر في بالي هنا، أن أتلمّس مشاعر السيدة العظيمة أمِّ كلثوم، حين حدثت المجاعة في جزيرة العرب بسبب جدب وقحط ألمّ بها، فاشتدّ الجوع على الناس، وماتت المواشي، وسمّي ذلك العام بعام الرّمادة، لأن الريح كانت تسفي تراباً كالرماد.

في ذلك العام جيء لعمر بن الخطاب بخبزٍ مفتوتٍ بسمن، وكان عنده رجلٌ بدويّ، فدعاه ليأكل معه، فجعل الرجل يتّبع باللقمة الدَّسم من وجه الصفحةً، فقال له عمر مداعباً: كأنك تحبّ السمن والدسم؟

فقال البدوي: أجل يا أمير المؤمنين، والله ما أكلت سمناً ولا زيتاً، ولا رأيت آكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم..

أتدرون إخوتي القرّاء كيف كانت ردّة فعل أمير المؤمنين عمر؟

لقد حلف أن لا يذوق لحماً ولا سمناً، حتى تنتهي المجاعة ويحيا الناس.

وعندما عاتبه أحد مقرّبيه في ذلك اليمين، قال له: كيف يعنيني شأنُ الرعيّة إذا لم يمسسني ما مسّهم؟!

ووفّى أمير المؤمنين بيمينه ذلك، فاجتنب اللحم والسمن، واكتفى بالزيت عاماً كاملاً حتى تغّير لونُ جلده إلى السواد..

تُرى كيف كان موقف الزوجة الفتيّة أم كلثوم من هذا كله؟

كتب التراجم لا تذكر لنا سوى القليل من مواقفها، ولكن لدي شعور قوي بأنها كانت تنظر إليه، وهو يفعل هذا بإكبارٍ وشفقة ومحبّة وتعظيم..

وعندما أسرد عليكم الحادثة التالية سوف تشاركونني نفس الشعور..

يروى أن ملك الروم كاتَب أمير المؤمنين عمر، وتقرّب إليه ببعض الهدايا، فلما قدم بريدُ ملك الروم على عمر، أرادت الزوجة الصالحة أمُّ كلثوم أن تشارك زوجها في شيء من مسؤوليات الخلافة ومهامّها، فأرسلت مع البريد إلى زوجة ملك الروم قوارير من طيبٍ. فلما وصلت هديتها إلى زوجة ملك الروم، أهدت إليها بدورها عقداً فاخراً..

وعندما وصل العقد إلى يد أم كلثوم، نظرت إليه بدهشة، وأدركت من فورها أن ذلك سيسوء زوجَها، الذي يأبى على نفسه أن ينتفع من صلات الخلافة وعوائدها بشيء..

ومع ذلك لم تُخفِ ذلك عن زوجها متأوِّلةً أنه من حقها، وأنّ تشدّده على نفسه لا ينبغي أن يَطال أسرته، بل كانت له نِعم الزوجةُ الصالحةُ المعينة على الخير..

وصدق حدسها، فما إن عرضت على زوجها ما حدث، حتى طلب إليها أن تعطيه العقد، ففعلت عن طيب خاطر منها، فباعه، وعوّضها (أعطاها) بمقدار ما أنفقت من ثمن الطيب، ثم دفع الباقي إلى بيت مال المسلمين..

لعل أمَّ كلثوم تذكرت آنذاك حادثة أخرى شبيهة بتلك، جرت مع ابن زوجها عبد الله بن عمر، حين اشترى إبلاً هزيلة، وأرسل بها إلى الحِمى، حيث يرعى المسلمون أنعامهم، فما مضى وقت قصير إلا وسمنت هذه الإبل، فلما دخل عمر السوق لفتت تلك الإبل السّمان نظره، فسأل: لمن هي؟ فقيل له: لعبد الله ابنك! فتغيّر لونه، وظهر الغضب في وجهه، واستدعى ابنه على الفور، فلما قدم سأله بصوتٍ غاضب: ما هذه الإبل يا عبد الله؟

لم يدرك عبد الله سرّ غضب والده، فأجابه متلطفاً:

إبل هزيلة يا أبت اشتريتها، وبعثت بها إلى الحمى، أبتغي ما يبتغي المسلمون!! -

قطّب عمر جبينه، وقال بحدّة:

ويقول المسلمون: ارعَوا إبلَ ابنِ أمير المؤمنين.. اسقُوا إبلَ ابن أمير المؤمنين.. يا عبد الله، خذ رأس مالك، واجعل الربح في بيت مال المسلمين.

عندما تذكرت أم كلثوم هذه الحادثة، وربطتها بقصة العقد، جرت دمعة حارة على وجهها، وهي تتمتم في سرّها: كان الله في عونك يا أمير المؤمنين، وجعلني الله لك سنداً، فيما حملته من أمانة الخلافة ومسؤولياتها..

* * *

قبل أن نكمل الحديث عن الحياة الزوجية بين عمر وأمّ كلثوم رضي الله عنهما، لابد لنا أن نتوقف هنا عند الاستفسار، الذي ذكرناه في بداية بحثنا هذا، والذي يرد على لسان البعض، الذين يتساءلون:

كيف يزوِّج علي بن أبي طالب ابنته من عمرَ رغم الخلاف الذي بينهما؟

أقول: يحلو للكثيرين أن يشوّهوا التاريخ الإسلامي عن قصد أو عن غير قصد، فيسلّطوا الضوء على بعض الخلافات البسيطة والجانبية، التي كانت تحدث بين أكبر شخصيتين إسلاميتين في صدر الإسلام، عمر بن الخطاب، وعليٍّ بن أبي طالب، محاولين تعميمه وتوسيعه وتجذيره، بحيث يبرز بصورة الخلاف العدائيّ والهجوميّ والاستبداديّ..

قد يكون هناك بين علي بن أبي طالب وبين عمرٍ وأبي بكرٍ رضي الله عنهم شيء من الخلاف السطحي والشكلي، مردُّه إلى أن علياً كان يرى نفسه أحقَّ بالخلافة منهما..

ولكنّ هذا الخلاف السطحي ما لبث أن زال، عندما بايع عليٌّ أبا بكر ومن بعده عمر، لسببين: أولهما محاولتُه جمعَ كلمةِ المسلمين على رأي واحد، وثانيهما وهو الأهم: أنه كان يراهما أهلاً للخلافة، بكل ما تحمله تلك الكلمة من معنى..

ومجريات الأحداث التي يذكرها التاريخ بأدلةٍ قاطعة تؤكد ما نذكره. ولكن.. لسبب أو لآخر يحاول البعض إسدال الستار عن هذه الأحداث الناصعة، إلا أن السيد محمد حسن طباطبائي (وهو من كرام الشيعة)، ذكر في كتابه (حلّ الاختلاف بين السنة والشيعة)، أن علياً رضي الله عنه كان يذكر خليفتي المسلمين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بالثناء والمدح والتبجيل. من هذا قوله فيهما:

لَعَمري إنّ مكانهما من الإسلام لعظيم، وإنّ المصاب بهما لجرحٌ في الإسلام شديد، رحمهما الله وجزاهما بأحسن الجزاء..

وورد في كتاب (نهج البلاغة)، الذي يجمع خطب ووصايا الإمام عليّ، أن علياً رضي الله عنه، صعد المنبر مرةً حين كان خليفة للمسلمين، فقال عن عمر بن الخطاب:

لله بلاد فلانٍ، فقد قوّم الأوَد (أي العوج)، وداوى العَمَد (المرض)، أقام السنّة وخلّف الفتنة، ذهب نقيّ الثوبِ قليلَ العيب.. أدّى إلى الله طاعته، واتّقاه بحقّه.

وورد في نهج البلاغة أيضاً، أن أمير المؤمنين عمر عزم على المسير إلى غزو الروم بنفسه، فاستشار علياً رضي الله عنه بذلك، فكان رأي عليّ أن لا يسير إليهم بنفسه، لأن نكبة الأمة باستشهاده، فيما لو استُشهد، ستكون عظيمة. ونصحه أن يسيّر إليهم رجلاً مجرَّباً من المسلمين، فإن أظهره الله كان ما يحبه المسلمون، وأن هُزم المسلمون، لم يُفجعوا بخليفتهم، الذي هو عونٌ ومثابةٌ لهم..

ماذا يعني هذا أيها الأخوة؟

أين العداوة؟ وأين الكراهية؟ وأين الخلاف والخصام والنزاع والشقاق؟

أنا لا أرى بين هذين الرجلين العظيمين إلا الحبَّ والتناصح والتفاني في النصيحة والإخلاص المتبادل!

مخطئٌ كلّ من يزعم وجودَ عداوةٍ بين هذين الرجلين الكبيرين، ومغرضٌ كلُّ من يصرّ على هذا الزعم، الذي تكذبه حقائق التاريخ!

فلقد كان عمر يحب علياً وأولاده من كل قلبه..

نرى هذا واضحاً في حرصه على مصاهرة عليّ بالزواج من ابنته أم كلثوم، وفرحِه بهذا الزواج، وخروجه إلى أصحابه وهو يقول:

هنّئوني، فقد سمعت رسول الله (ص) يقول: ***كل نسب وسبب وصهر منقطعٌ يوم القيامة إلا نسبي وسببي وصهري***[105].

وأين نحن من قول عمر: **معضلةٌ ولا أبو حسنٍ لها..؟!**

أتعلمون ماذا يعني هذا؟ فقد كان عليّ مستشاراً لعمر أثناء خلافته، يستشيره في الأمور الكبيرة والصغيرة، وكان قاضياً من القضاة الذين نصّبهم عمر للقضاء.. وإذا ما أعضلت على عمر مسألةٌ فقهية، كان يقول: معضلةٌ ولا أبا حسنٍ لها! أي ولا غيرُ أبي الحسن، يمكن أن يحلّها ويستنبط لها الحكم..

وكان عمر رضي الله عنه يحب الحسن والحسين رضي الله عنهما ويجلّهما، فهما من آل بيت النبي (ص)، قال فيهما النبي (ص): ***من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني***[106].

يروى في هذا أن حُللاً من اليمن أتته، فوزّعها على من حضر من الناس، فلما انتهى من التوزيع، لمح الحسن والحسين قادمين، فبدا الأسف على وجهه..

أتعلمون لماذا؟!

لأنه لم يَبقَ لهما من تلك الحُلل شيءٌ، فكتب إلى واليه على اليمن، أن ابعث بحلّتين للحسن والحسين وعجّل بهما، فأرسل إليه حلّتين جميلتين فكساهما.

يروي الحسين بن علي رضي الله عنه القصة التالية، فيقول:

قال لي أمير المؤمنين عمر ذات يوم: يا بني لو أنك تأتينا وتغشانا فإنّا نرحب بك!

فجاء الحسين يوماً إلى عمر وعنده معاوية بن أبي سفيان لعمل يهمّ المسلمين، وعبدُ الله بنُ عمرَ واقفٌ بالباب، لم يؤذن له بالدخول، فرأى ذلك الحسينُ فعلم أن الوقت غيرُ مناسب للزيارة فرجع..

فلقيه عمر بعد أيام قليلة، فعاود دعوته لزيارته قائلاً: يا بنيّ لم أرك أتيتنا!!

فقال الحسين: جئت إليك يا أمير المؤمنين، ولكنك كنت مشغولاً بأمور المسلمين، وعندك معاوية بن أبي سفيان، ورأيت ابنك رجع، فرجعت معه..

فنظر إليه عمر بحبٍ عظيم، وقال وهو يضع يده على رأسه: أنت أحق بالإذن من عبد الله بن عمر، إنما أنت من رؤوسنا ما ترى.. الله ثم أنتم آل البيت..

إخوتي القرّاء.. **هل يمكن بعد كل هذا أن نصدّق، أن بين هذين الصحابيين الجليلين خصاماً حقيقياً وخلافاً جذرياً؟**

وهل يمكن لنا بعد ذلك، أن لا نزداد حباً لآل بيت النبي (ص)، بما فيهم نساؤه وبناته وأصهاره وأولادهم؟!

حبّ آل البيت المؤمنين الأطهار، هو حب للنبي (ص)، وعملٌ بوصيته عليه الصلاة والسلام.. فقد روي أنه قال: ***أحبوا آل بيتي لحبّي***[107].

وقال لصحابته في إحدى خطبه: ***أذكّركم اللهَ في أهل بيتي، أذكّركم الله في آل بيتي***[108].

يحكى عن الشافعي أنه كان يحب آل بيت النبي (ص)، حتى اتّهم بالتشيّع، فأنشد يقول:

يا آلَ بيت رسول الله حبُّكمُ

فرضٌ من الله في القرآنِ أنزلهُ

يكفيكمُ من عظيم الذكرِ أنكمُ

من لم يصلّ عليكم لا صلاةَ لهُ

* * *

أنعود هنا إلى أم كلثوم رضي الله عنها، لنراها في بيت زوجها أمير المؤمنين عمر، يحبها ويجلّها لأنها من آل بيت النبي (ص)، الذين تجذّرت وتجسّدت فيهم أخلاق النبوة وصفاتها...

وفي بيت عمر بن الخطاب عاشت أمُّ كلثوم زمناً، أنجبت فيه ولدين: زيداً بن عمرَ بنِ الخطاب ورُقيَّة بنتَ عمر بنِ الخطّاب..

ولما استشهد أمير المؤمنين عمر إثر طعنةٍ قاتلةٍ من خنجرٍ مسموم لأبي لؤلؤةَ المجوسي الحاقدِ على الإسلام وأهله، بكت الزوجةُ الوفية المخلصة زوجها، وحزنت عليه..

لم تكن هي وأسرته وحدَهم من حزن عليه، فقد فُجع المسلمون بموته، وبكَوا لفراق خليفتهم العادلِ التقيِّ الورع الزاهد الأوّاب التوّاب..

وتقدم منه قبل أن يدفن حموه عليٌّ بن أبي طالب، وقال بصوت تخنقه العَبرة: ما خلُّفت أحداً أحبَّ إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله، إن كنت لأظنّ أن يجعلك الله مع صاحبيك، وكثيراً ما كنت أسمع النبي ص) يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر[109].)

نتساءل هنا: ماذا حلّ بأم كلثوم بعد وفاة زوجها، وهي ما تزال شابّة في ريعان الصبا؟!!

شاءت الأقدار الإلهية، أن تتزوج أم كلثوم بعد عمر من ابن عمّ أبيها عون بن جعفر بن أبي طالب، فلما استشهد عونٌ في سبيل الله تعالى، تزوّجت من أخيه محمد بن جعفر، فمات أيضاً وخلّفها أرملة، فتزوجت من أخيه عبد الله بن جعفر، وماتت في حياته، ولم تلد لأحدٍ من أولاد جعفر..

شهدت أمّ كلثوم مقتل أبيها على يد الشقيّ عبدِ الرحمن ابن ملجم، وماتت بعد ذلك بفترةٍ وجيزة..

كان موتُها وموت ابنها زيدٍ بن عمر في يومٍ واحد، فصلَّى عليهما عبد الله بن عمر، وحضر الجنازة أخواها الحسن والحسين، وثمانون من الصحابة..

بوفاة السيدة أم كلثوم بنت علي ينتهي حديثنا عنها...

* * *

بوفاة السيدة أمّ كلثوم بنت عليّ ينتهي حديثنا عنها..

أهمّ ما جاء في سيرتها أنها كانت جسراً غالياً، ربط بين قطبين هامّين من أقطاب أمة الإسلام. فعبرها تجسّدت محبة عمرَ لعليٍّ، حين طلب ابنته ورغب في مصاهرته، وتجسّدت محبة عليٍّ لعمر، حين زوّجه ابنته ورحّب بهذه المصاهرة. ولو لم يكن في حياة السيدة أم كلثوم غيرُ هذه الحادثة المهمة لكفتنا، فما بالكم بما في حياتها من الصلاح والفلاح والتقوى والخير العميم؟!

رحمة الله عليكم آل بيت النبوة، ذرّية بعضها من بعض.. رزقنا الله في الدنيا حسن الاقتداء بجدّكم عليه الصلاة والسلام، وجمعنا به وبكم في الدار الآخرة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

* * *

صفحاتنا التالية ستكون للحديث عن (ذات النّطاقين).

مَن هي ذات النطاقين؟

ولماذا لُقّبت بهذا اللّقب؟

وماذا في حياتها من السير والعبر؟

سنعرف هذا وأكثر منه عندما نقرأ في الصفحات التالية شيئاً عن حياة السيدة أسماء بنتِ أبي بكرٍ الصدّيق.. رضي الله عنها وعن أبيها وعن الصالحين من عباد الله أجمعين..

***

---

104 رواه البيهقي في السنن الكبرى، ٧/٦٤. وصححه الألباني.

105 رواه البيهقي في السنن الكبرى، ٧/٦٤. وصححه الألباني.

106 المستدرك على الصحيحين، ٣/١٨٢، حديث (٤٧٧٧). مسند الإمام أحمد ١٣/٢٠٦، حديث (٧٨٧٦). وصححه الألباني.

107 رواه الترمذي، ٥/٦٦٤، حديث (٣٧٨٩). وضعفه الألباني.

108 رواه مسلم، ٧/١٢٢، حديث (٦٣٧٨).

109 رواه مسلم، ٧/١١١، حديث (٦٣٣٨).

الصحابية الجليلةُ

أسماءُ بنتُ أبي بكر الصدّيق

ذات النَّطاقين))

سأحدّثكم هنا عن أسماءَ بنتِ أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها..

وسأبدأ حديثي بالكلام عن دورها في هجرة النبي من مكة إلى المدينة، من دار الكفر إلى دار الإسلام، ومن بلد الضعف والهوان إلى بلد القوة والعزّة والجاه..

قد يتساءل البعض: وما علاقة السيدة أسماء بهجرة النبي (ص)؟

الجواب في القصة التالية:

كان الليل قد أرخى ستائره على جبل ثور، حين وصلت الشابة الحامل أسماء بنت أبي بكر، ومعها أخوها عبد الله إلى سفحه.

كانت متعبة جداً، فقد سارت قرابة ساعتين على قدميها من مكة إلى جبل ثور، الذي يبعد عن مكة قرابة ٤،٥ كم باتجاه اليمن، في طريقٍ رملية تغوص فيها الأقدام.

تلمَّسَت بطنها، وهي تنظر إلى أعلى الجبل، حيث الغار الصغير المتربِّع في قِمّته..

أحسَّت بقوة كبيرة.. ولمع في عينيها بريق مقدس، اندفعت إثرَه تصعد الجبل بنشاطٍ وهمَّة.. تتسلّق الجبل الوعِر الحافل بالمنزلقات والصخور.

نسيت أسماء حملها وبطنها المكوّر أمامها، ولم تجد صعوبة في التسلّق، وبدت أنشطَ من أخيها عبد الله، الذي كان يتسلق الجبل، وقد حمل صرَّة فيها طعامٌ وقُربة فيه ماء..

كانت عيناهما تتّجه صوب الغار بشوقٍ وولَهٍ.

من هناك؟!

من لهما في الغار؟!

هل فيه حبيب أو قريب؟!

طبعاً.. فيه حبيبان لا حبيب، وقريبان لا قريب!

فيه رسول الله محمد (ص)، وفيه أبوهما أبو بكر الصديق.

وصلت أسماء إلى باب الغار.. نظرت إلى صرّة الطعام التي يحملها أخوها، فتذكرت ما فعلته البارحة، حين جهّزت لهؤلاء الحبيبين طعاماً يأكلانه في ليلتهما الأولى في غار ثور.. وعندما وضعت الطعام في الصرّة، لم تجد شيئاً تربطها به، فنزعت نطاقها، أي حزامها الذي تشدّه على خصرها، وشقَّته نصفين، ربطت بالنصف الأول صرّة الطعام، وأعادت الثاني إلى خصرها..

عندما علم النبي (ص) بما فعلت أسماء، ابتسم وقال لها: أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة. **ومنذئذ سمّيت أسماء عبر التاريخ بذات النّطاقين..**

ألقى عبد الله وأسماء على مسامع النبي (ص) ووالدهما أبي بكر الصديق أخبار قريش الغاضبة لنجاة النبي ص) من القتل، فلقد رصدت ٧٠ فتىً من فتيانها لقتله، وباتوا على بابه ينتظرون خروجه ليقتلوه، فخرج) ص) من بينهم، بعد أن ألقى الله تعالى عليهم النوم، فأخذ كفًّا من تراب، ونثره على رؤوسهم، وهو يتلو من) سورة يس قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾110.

سبحان الله.. فجنود الله تعالى لا تُقارَن بعدَّة الدنيا كلها وعتادها.. **وما يعلم جنود ربك إلا هو!**

بعد وصولهما إلى الغار بقليل، وصل الصحابي عامر بن فهيرة، وهو عامل كان يرعى الغنم لأبي بكرٍ رضي الله عنه، وقد اتفق معه أبو بكر أن يرعى غنمه في النهار، وأن يأتي بها في المساء إلى غار ثور، وأراد من ذلك أمرين: أن يشرب النبي (ص) من لبن تلك الأغنام، وأن تعفّيَ آثارُ أقدامها آثارَ أقدام عبد الله وأسماء، حين ينْزلان من الغار ويعودان إلى مكة، فلا يستدلُّ بآثار أقدامهما أحد من كفار مكة وطواغيتها، الذين بثُّوا عيونهم هنا وهناك طلباً للنبي (ص) وصاحبه، حتى إنهم رصدوا مئة ناقة جائزة، لمن يأتي بهما أو بأحدهما حياً أو ميتاً.

طبعاً.. فعل أبو بكر هذا، لأنه يؤمن أن حقيقة التوكل على الله تعالى، تستلزم اتخاذ كافة التدابير الممكنة، ثم الرضا بما يقدِّره الله تعالى بعد ذاك..

أما ما يظنه البعض من أن التوكّل هو التسليم لأمر الله دون إعداد العدّة واتخاذ الأسباب، فهو تواكلٌ مذموم لا توكلٌ محمود..

لا يملك أحدنا إلا أن يُعجب من موقف أسماء البطولي: ثلاث ليالٍ.. في كل يوم كانت تجهّز الطعام، ثم تحمله هي وأخوها إلى حيث يوجد نبيها وأبوها، تقطع الطريق مشياً على الأقدام، لا تبالي بآلام الحمل ولا بوعورة صعود الجبل، ولا بالخطورة التي قد تُلاقيها، فيما لو اكتشفت قريش الوجهة التي تذهب إليها..

ونتساءل: ما الذي دفعها إلى هذا رغم أن أخاها كان يكفيها ذلك لو أرادت؟!

نستطيع أن نقول: الحب الكبير والعميق الذي كان متجذِّراً في قلب أسماء وعقلها ونفسها لدين الإسلام ونبيه، جعلها تستهين بروحها، وتستمرئ كل جهد تبذله في سبيل ذلك..

ثم هناك أمر آخر وأهمّ، **هو إيمانها بدور المرأة في خدمة دينها ومجتمعها**، بكل ما تملكه من قدراتٍ وإمكانياتٍ دون تقاعس أو تكاسل. وأشدّد هنا على إيمانها بدور المرأة في خدمة دينها، وأنَّ كونَها امرأةً لا يعيقها عن القيام بواجبها الذي تؤمن به.. بل على العكس، فذلك يدفعها لمضاعفة الجهد والهمّة.

وأغلب الظن أنها أدركت أن خروجها مع أخيها إلى غار ثور، يحول دون لفت أنظار قريش، التي كانت تراقب وتبحث عن كل ما يقودها إلى محمد.. صلى الله على محمد.

ولا شكّ أن تفكيرها كان في محلّه الصحيح، إذ كيف ستظن قريش أن تلك الحامل، التي تتكّئ على أخيها، وتمشي مترنّحة وبطنها أمامها، كانت تمدّ النبي (ص) وصاحبه المختبئين في الغار بالطعام والمعلومات المهمة!!

أين هذا مما عليه فتيات اليوم؟!

بعضهنّ مشغولات بالموضة، يتابعن كل شاردة وواردة في عالم الأزياء والمكياج... وبعضهنّ الآخر قد ينطبق عليه مبدأ: الرّمد أفضل من العمى، فهنّ متفرغات لإنجاب الأولاد وتنظيف المنزل وغسيل الملابس وطبخ الطعام.. ليس لديهنّ أهداف ولا مخطّطات لنصرة دينهنّ وخدمة مجتمعاتهنّ.

والمشكلة أنه حتى المتعلمة فيهنّ، ولو وصلت إلى درجة عالية من الشهادات، يكون هذا مصيرها عندما تتزوج، فتضع شهادتها جانباً، وتتفرّغ للطبخ والنفخ والغسيل والكي.. ولا تحاول نفع مجتمعها بعلمها، ولا تبحث عن طريقة للتوفيق بين منزلها وعملها..

أليس هذا ثقافةً مجتمعيةً خاطئة تحتاج إلى تقويمٍ وإصلاح؟؟

الحقيقة التي وَعَتها أسماء بنت أبي بكر منذ ١٥ قرناً، تغيب اليوم عن كثيرات وكثيرين من أبناء وبنات مجتمعاتنا الإسلامية..

لكلٍّ منّا دوره في الحياة للنهوض بالمجتمعات، ولا بدّ من أفراد يبذلون الغالي والرخيص في سبيل تحقيق ما يؤمنون به..

لابد من شباب وشابات، رجال ونساء، يعمل كل واحد منهم ما يستطيع أن يعمل، هذا بعلمه وذاك بماله وآخر بجهده ورابع بتخطيطه وخامس بتنفيذه وسادس بمشورته وسابع بقلمه.. وبجهود هؤلاء جميعاً وبتعاونهم وتنسيقهم ودأبهم، وبتوفيق الله لهم، تُبنى الأوطان، وترتفع الراياتُ والهامات.

* * *

قبل أن نسدل الستار على دور أسماء في الهجرة، **نسلّط الضوء على حادثتين واجهَتهُما بشجاعة وثبات وحكمة..**

الحادثة الأولى: طرق باب بيت أبي بكر نفرٌ من قريش، فيهم أبو جهل رأس الشرك، ففتحت لهم أسماء، فقال لها أبو جهل والشرر يتطاير من عينيه: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟؟

أجابته بصوت مطمئنٍّ قوي ثابت: لا أدري أين أبي!

استشاط أبو جهل غضباً، فلطم أسماء على خدها لطمةً، طرحت قُرطها من أذنها..

ومع هذا لم تتزحزح أسماء، ولم تشعر إلا بالإيمان يزيدها طمأنينة وثباتاً..

الحادثة الثانية: دخل جدها أبو قحافة والدُ أبي بكر دارَهم مُغضَباً، وكان بعدُ لم يؤمن، وقال: والله إني لأرى أبا بكر قد فجعكم بماله مع نفسه..

وصدق حدس أبي قحافة، فقد حمل أبو بكر كل ماله لينفقه في سبيل الله.

أدركت أسماء أن جدّها سيزداد كراهيةً للنبي (ص) وحقداً عليه، إن عرف أن أبا بكر أخذ معه كل ماله، فعمدت إلى الكوّة التي يدَّخِر فيها والدها المال عادة، فملأتها حجارة صغيرة، ثم غطّتها بقماش، وتقدَّمت من جدها أبي قحافة، وكان شيخاً كبيراً ذهب بصره، فقادته من يده إلى حيث الكوّة، وهي تقول: كلا يا أبت، لقد ترك لنا خيراً كثيراً..

تمتم أبو قحافة بعد أن ظن ما تلمّسه مالاً كثيراً: إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسنَ..

ليس غريباً أن يكون لأسماء الشابة الفتيَّة هذه المواقف الثابتة والذكية، فأبوها أبو بكر الصديق، وهي من السابقات إلى الإسلام، فقد كان عمرها حين أسلمت عشرَ سنوات، أما زوجها فهو الزبير بن العوام بن صفية، عمةِ النبي (ص)، وهو أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو الذي قال فيه النبي (ص): ***لكل نبي حواريّ، وحواريّي الزبير بن العوام***[111].

تزوجت أسماء من الزبير قبل الهجرة بفترة بسيطة، وكانت كما رأينا حاملاً بابنها البكر عبد الله بن الزبير، عندما هاجر النبي (ص) بصحبة أبي بكر..

ظلت أسماء في بيت والدها أبي بكر في مكة، تنتظر من يصطحبها إلى يثرب، فقد كان زوجها الزبير مسافراً في تجارةٍ له إلى الشام..

وما هي إلا مدَّة يسيرة حتى جاء زيد بن حارثة إلى مكة، ليصطحب إلى دار الهجرة أهل النبي: (ص) زوجتَه سودة وابنتيه فاطمة وأم كلثوم، وأهل أبي بكر: زوجَته أم رومان وابنتيه أسماء وعائشة..

لكنّ حمل أسماء كان قد وصل لتمامه، ويهود الجزيرة كانوا يشيعون أنهم سحروا المسلمين فلن يولد لهم مولود في دار الهجرة، فماذا فعلت أسماء؟

كان أمامها أكثرُ من تحدٍّ: تعب السفر من جهة، وسحر اليهود من جهة أخرى، فماذا فعلت؟!

ببساطة: هاجرت إلى المدينة، وغامرت بنفسها وجنينها في سبيل الله..

كابدت مشقة المسير ليالي وأياماً، حتى إذا وصلت إلى قباء، ووضعت ولدها عبد الله هناك.. وكبّر المسلمون فرحاً وطرباً بولادة عبد الله بن الزبير، فهو أول مولود يولَد لهم في دار الهجرة، وبذلك بطل ادّعاء اليهود بأنهم سحروا المسلمين، فلن يولد لهم بعد هجرتهم ولد.. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

كانت أسماء تتمنى أن يؤذِّن النبي في أذن عبد الله، وتمَّ لها ما تمنّته، وحنَّكه النبي (ص) بتمرة، ودعا له وبارك عليه..

في المدينة ولدت أسماء للزبير ثمانية أولاد، وعاشت مع زوجها مكافحة مجاهدة.

تروي أسماء عن نفسها قائلة: تزوّجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، فكنت أعلف فرسه وأسوسُه، وأستقي الماء وأعجن العجين[112].

ولكن هل اكتفت أسماء بأعمالها المنزلية تلك؟!

أسماء كانت تعلم أنَّ عليها مسؤولية أخرى غير إنجاب الأولاد وتربيتهم والقيام بأعمال المنزل، فقد فهمت أن الحياة الزوجية هي حياة تشارُكيَّة تقوم فيها الزوجة بكل ما يمكنها لمساعدة زوجها داخل المنزل وخارجه..

فكانت تعمل في أرضٍ للزبير أقطَعَه إياها رسول الله (ص)، وهي على بُعد ما يقارب 3 كم عن المدينة.

ماذا كانت أسماء تعمل في تلك الأرض.؟؟

كانت تنقل النوى (وهو البذر الذي في جوف التمر) إلى السوق لبيعه، أو إلى المنْزل لتدقّه، وتصنعه علفاً لبعير الزبير..

طبعاً لم تكن تلك مَهمةً سهلة، فلم يكن هناك وسائل مواصلات، تُسهِّل الأمر كما هو اليوم، بل كان عليها أن تحمل النوى على رأسها مشياً على الأقدام كل تلك المسافة، تحت حرّ شمس الحجاز ولهيبها..

ورد أنها كانت قافلةً من أرض الزبير مرة، تحمل النوى على رأسها، فلقيَها رسول الله (ص) ومعه نفر من أصحابه، فرقَّ لحالها، فدعاها لتركب على بعير كان يركب عليه أحد أصحابه، ولكنّ أسماء استحيت أن تسير مع الرجال، وتذكَّرت شدة غَيرة زوجها، فاعتذرت ومضت تكمل طريقها، فلما رجعت إلى منزلها، روت للزبير ما حدث، فقال لها مترفِّقاً: والله لحملُك النوى يا أسماء أشدُّ علي من ركوبك معهم[113].

وظلّت أسماء تجاهد وتناضل مع زوجها، حتى أرسل إليها والدها أبو بكر خادمة، تعينها على شؤون الحياة..

تقول أسماء عن فعل أبيها هذا: فكأنما أعتقني أبي.

وشاء الله تعالى أن يهب الزبير مالاً وفيراً بعد أن كان فقيراً.. فعمل في التجارة، وفتح الله تعالى عليه، حتى بات من أثرياء المسلمين.

وإذا ما كانت أسماء عضداً لزوجها في أيام فقره، فإننا نجدها أيضاً عوناً له في أيام غناه..

قد تقولون: نفهم أن تكون المرأة عضُداً لزوجها في الضرّاء، حين تصبر على شظف العيش، وتعمل ما تستطيع لمساعدته. ولكن، كيف يمكن أن تكون عضداً وقت الغنى والبحبوحة؟

أقول: إذا كان الصبر في الضرّاء خيرَ حالِ المؤمن، فإنَّ الشكر في السرّاء لا يقلُّ أهميةً عن ذلك أبداً..

ودور المرأة في ذلك يتمثَّل في تذكير زوجها بأهمية الرزق الحلال، والابتعاد عن موارد الحرام، وإعانته على شكر النعمة..

كيف أعانت أسماء زوجها على شكر النعمة؟

تروي أسماء أنها جاءت النبي تسأله: يا رسول الله، والله مالي إلا مما أدخل علي الزبير بيته، أفأعطي؟ (أي: أفأتصدق في سبيل الله؟)، فقال (ص): ***لا تُوكي فيوكي الله عليك***[114]. أي: لا تبخلي عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، فيضيق الله عليك في الرزق، فكانت رضي الله عنها سخيَّة كثيرة الصدقة.

طبعاً يُشترط في المال الذي تتصدق به الزوجة من مال زوجها، أن يكون مما ملّكها إياه، أو أذن لها بالتصرف فيه. هذا ما أكّده النبي(ص) في حجة الوداع فقال: ***لا تنفق امرأة شيئاً من بيتها إلا بإذن زوجها***[115].

تروي فاطمة بنت المنذر، أن جدتها أسماء كانت عندما تمرض، تعتق كل مملوك لها صدقة لوجه الله تعالى.

عندما نتكلم عن السيدة أسماء، لا يمكن أن نغضّ الطرف عن حادثة، تظهر لنا محبتها لله ورسوله وانصياعها لأوامر الشرع الحنيف.

يروي الإمامان البخاري ومسلم أن أمّ أسماء *قتيلة بنت عبد العزى*، وهي مطلّقة أبي بكر في الجاهلية، وكانت مشركة، فأتت مرّة لزيارة ابنتها، وهي تحمل أطباقاً من الحلوى، فأبت أسماء أن تأذن لأمها، حتى تستأذن رسول الله (ص) في ذلك، خوفاً من أن يكون ذلك من المودّة المحرّمة الواردة في قوله تعالى: ﴿ **لاَّ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[116].

فقدمت النبي (ص) وقالت له: يا رسول الله قدمت عليّ أمي وهي راغبةٌ، أفأصلها؟ فقال: ***نعم صِلِي أمَّك***[117].

وفي أسماء وأمّها نزل قوله تعالى:﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[118].

وبات واضحاً أن المودة المحرمة هي: طاعة الوالدين فيما يؤدي إلى الكفر أو المعصية أو المساعدة ضد أهل الإيمان، فمصلحة الإسلام مقدّمة على كل مصلحة أخرى، ولو كانت لأب أو لأخ أو لولد، إذا تعارضت المصالح وتناقضت.

كانت أسماء رضي الله عنها من الذاكرات البكّاءات من خشية الله تعالى، يروي أحد خدمها القصة التالية:

أرسلتني أسماء إلى السوق، ثم وقفت تصلي، فسمعتها تقرأ قبل أن أخرج قوله تعالى من سورة الطور: (فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ)[119]، (أي لهب النار)، فلما عدت وجدتها ما تزال قائمة تصلي، وهي تبكي وتكرّر :**وقنا عذاب السموم**[120].

وكانت رضي الله عنها إذا أصابها وجع في رأسها، وضعت يدها عليه، وهي تستغفر الله وتقول: بذنبي ما أصابني، وما يغفر الله أكثر..

أمر آخر أحب التنويه إليه، وهو **العلاقة الزوجية بين أسماء وزوجها الزبير رضي الله عنهما..**

قد يستغرب البعض عندما يعلمون أن العلاقة بينهما لم تكن وطيدةً ولا جيدة، ولن نتجنَّى الحقيقة عندما نصِفُها أنها كانت كأوجاع المخاض: تشتدّ مرة وتسكن أخرى، حتى تمخَّضت عن فراقٍ أبديٍّ بينهما الطلاق)..)

متى كان طلاقها، وما هي أسبابه؟!

أسئلة كثيرة لا نجد لها أجوبة واضحة في كتب التراجم والتاريخ، لكن بعض الحوادث قد تعطينا فكرة ما عن الأسباب.

من هذه الأسباب: الغَيرةُ الشديدة والصرامة التي يتَّصِف بها الزبير، ويروى أن أسماء اشتكت مرة إلى أبيها، ما تجده من شدة زوجها وصرامته، فقال لها ناصحاً متوددا: اتقي الله وأطيعي زوجك..

نعم .. هكذا نصح الأبُ ابنته، ولكن بعد أن خرجت من عنده، لم يتمالك نفسه، فذرف دمعتين ساخنتين حزناً على ابنته الحبيبة، التي لا تجد راحتها وسعادتها في بيتها مع زوجها وأولادها..

موقف متعقِّل من أبٍ حكيم، ربما لا نرى مثله اليوم إلا نادراً، ونرى بدلاً عنه الصورة التالية:

تأتي البنت بعد شهور من زواجها إلى بيت أهلها، تشتكي إلى أهلها من زوجها، فيشدُّ الأهل على يدها، وتقول الأم لابنتها وهي تطبطب على كتفها: خلّيكي عنا يا بنتي حتى يتربّى. ويدمدم الأب: البيت يلي ربّاكي ما هرب وخلاكِي..

وتمرّ الأيام وربما الشهور، وأهل الزوجة يربِّتون على كتف ابنتهم، وأهل الزوج يربِّتون على كتف ابنهم.. والنهاية المفجعة: الطلاق.. وربما لأتفه الأسباب!

إذاً كان أبو بكر ينصح ابنته بالصبر واحتساب الأمر عند الله، وكانت أسماء تعود إلى بيتها محاولةً الحفاظ على أقدسِ ميثاقٍ في الحياة، ميثاق الزوجية..

ولكن وبعد زمن طويل من المعاناة، طلَّق الزبير أسماء!

ولكن.. كيف طلقها وهو مَن هو ديناً وحسباً وخلقاً، وهي من هي حسباً وديناً وخلقاً أيضاً؟!

أقول: **في قصة أسماء والزبير دليل مهم على أنّ حدوث الطلاق، لا يستلزم أن يكون في أحد الزوجين أو كليهما نقص في الدين أو الأخلاق أو التقوى وخشية الله..** فأسماء والزبير كانا من التقوى والدين والخُلق

بمكانٍ لا يُطعَن فيه، ولكنّ اختلافَ الطبائع والأمزجة بينهما كان اختلافاً شديداً، أدّى إلى استحالة استمرار الحياة الزوجية، فكان الطلاق، وآخر الدواء الكيّ..

فارقت أسماء بيت زوجها لتعيش عند ابنها عبد الله معزَّزة مكرّمة، وقد فقدت بصرها آخر حياتها، وأسنَّت حتى بلغت المئة من عمرها، وظلت تتمتع بقواها العقلية والجسدية..

توفيت أسماء سنة ٧٣ هجرية، بعد استشهاد ابنها عبد الله بليالٍ، وقد روت عن النبي (ص) ثمانية وخمسين حديثاً، وروي لها في الصحيحين اثنان وعشرون حديثاً..

* * *

قبل أن نُسدل الستار عن قصة أسماء، نذكر قصة تُبيِّن لنا الشخصية الفذّة، التي تحملها تلك الصحابية بين جنبيها..

بايع الناس ابنها عبد الله بنَ الزبير بالخلافة في مكة، وذلك في عهد يزيد بن معاوية، فلما توفّي يزيد مالَ كثيرٌ من المسلمين لاستكمال مبايعته، فأرسل عبد الملك بن مروان الحجّاج لقتاله، فحاصره الحجاج حتى ألجأه إلى المسجد الحرام وحاصره فيه، فلما أحسّ عبد الله أنه على وشك النهاية، دخل على أمه أسماء، وكانت قد بلغت من عمرها مائة سنه، فقال لها: كيف أصبحت يا أمّاه؟

قالت: إنّ في الموت لراحة، وما أُحب أن أموت إلا بعد خلّتين، إما قتلتَ فأحتسبُك، أو ظفرتَ فتقرُّ عيني..

قال: يا أماه، خذلني الناسُ حتى أهلي وولدي، فلم يبقَ معي إلا اليسير ممّن ليس عنده القدرة على الدفع والقتال أكثر من صبر ساعةٍ، وأعدائي يعطونني من الدنيا ما أردتُ إن تنازلت لهم، فما رأيكِ؟

قالت: يا بنيّ أنت أعلَم بنفسك، إن كنتَ على حقّ، وإليه تدعو، فامضِ له فقد قُتل أصحابك عليه، ولا تمكّننّ غلمان بني أمية من رقبتك يتلاعبون بك. وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبدُ أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قُتل معك. وإن قلتَ: كنتُ على الحق، فلما وهن أصحابي ضعفتُ، فهذا ليس فعلَ الأحرار ولا أهل الدين! وكم خلودك في الدنيا؟! والله لضربةٌ بالسيف في عزّ أحبُّ إليّ من ضربة بسوط في ذلّ.

قال: إني أخاف إن قتلني هؤلاء أن يمثّلوا بي.

قالت: يا بني إن الشاة لا يضرّها سلخُها بعد ذبحها.

فدنا منها وقبّل رأسها، وقال: هذا والله رأيي الذي قمتُ به داعياً إلي يومي هذا.. ما ركنتُ إلى دنيا، ولا أحببتُ ما فيها، وما دعاني للخروج إلا الغضبُ لله تعالى أن تُستحلّ محارمُه، ولكنني أحببت أن أستوثق من رأيك، فزدتني بصيرةً مع بصيرتي، فانظري يا أمّه، فإنيِ مقتولٌ في يومي هذا، فلا يشتدّ حزنك عليّ، وسلّمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمّد إتيان منكرٍ ولا عملاً بفاحشةٍ، ولم يجُر في حكم الله، ولم يغدر في أمانٍ، ولم يتعمّد ظلم مسلمٍ ولا معُاهَدٍ. ولم يبلغني ظلمٌ عن عمّالي فرضيتُ به، بل أنكرتُه. ولم يكنٍ شيءٌ آثرَ عندي من رضا ربي.. اللّهم إني لا أقول هذا تزكيةً مني لنفسي، فأنت أعلمُ بي، ولكني أقوله تعزيةً لأمي لتسلوَ عني.

فقالت أسماء: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدّمتني. وإن تقدمتُك ففي نفسي حرجٌ، حتى أنظرَ إلام يصير أمرك!!

قال: يا أمّه.. جزاك الله خيراً، فلا تدَعي الدعاء لي من قبلُ ومن بعدُ.

فقالت: اللهم ارحم طولَ ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيبَ والظمأ في هواجر مكة والمدينة.. وارحم برّه بأبيه وبي.. اللهم إني قد سلّمت لأمرك فيه، ورضيتُ بما قضيتَ، فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين.

ثم ودّعها وخرج، فقاتل حتى أثخنته الجراحُ، وسقط شهيداً.

يروى أن السيدة اسماء خرجت من بيتها بعد ثلاثة أيام من استشهاد ابنها، فمرَّت عليه وهو مايزال مصلوباً، فلمست قدميه وقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجَّل؟!

ويروى أن الحجاج قال لها: كيف رأيتني صنعتُ بعبد الله؟

قالت: رأيتُك أفسدتَ عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك.. أمَا إنَّ رسول الله (ص) كان يحدّثنا، أنه سيخرج من ثقيف رجلان: كذابٌ ومبيرٌ، فأما الكذاب فابن أبي عبيد، وأما المبير فأنت.

والمبير هو الذي يُسرف في قتل الناس. والكذاب الذي قصدته أسماء، هو المختار بن أبي عبيد الثقفي، وكان قد ادّعى النبوة زمن عبد الله بن الزبير.

يروى أنه لما صُلب عبد الله وعُلقت جثته، أتاها عبد الله بن عمر معزًّيا وقال لها: إن هذا الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فاتقي واصبِري..

فقالت: وما يمنعني (من الصبر)، وقد أُهدي رأسُ يحيى بن زكريا إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل؟!!

ما أعظمك يا أسماء في حياتك كلها، وفي هذا الموقف المأساوي على وجه الخصوص!!

رحمك الله أيتها المؤمنة التقية الخاشعة الأوّاهة..

رحمك الله أيتها الصابرة المحتسبة..

رحمك الله، وجمعنا بك أمام حوض نبينا يوم القيامة..

* * *

بهذا أيها الكرام نسدل الستار على حياة صحابية جليلة، لنفتحه في الصفحة القادمة على قصة صحابية جليلة أخرى، هي صفيّة بنتُ عبد المطلب، عمّة النبي (ص) .

***

سورة يس، الآية: ٩. 110

صحيح البخاري، ٣/١٠٤٧، حديث (٢٦٩٢). 111

صحيح مسلم، ٧/١١، حديث (٥٨٢١). 112

صحيح البخاري، ٥/٢٠٠٢، حديث (٤٩٢٦). 113

صحيح مسلم، ٢/٥٢٠، حديث (١٣٦٦). 114

رواه أبو داود في السنن، ٣/٣٢١، حديث (٣٥٦٧). 115

سورة المجادلة، الآية: ٢٢. 116

متفق عليه: البخاري، ٥/٢٢٣٠ حديث (٦٩٣٤)، ومسلم، ٣/٨١، حديث (٢٣٧٢). 117

سورة الممتحنة، الآية: ٨. 118

سورة الطور، الآية: ٢٧. 119

سورة الطور، الآية: ٢٧. 120

الصحابيةُ الجليلةُ

صفيّة بنتُ عبد المطلب

عمَّة النبي (ص)))

السيدة صفيّة صحابيَّةٌ عُرفت بجرأتها وشجاعتها وقوّة شخصيتها.. صحابية يربطها بالنبي (ص) رابطٌ قوي، فهي عمّته أولاً، وقد آمنت به منذ بدايات جهره بالدعوة الإسلامية ثانياً..

والدها عبد المطلب جدّ النبي، ووالدتها هالة بنت وهب أخت السيدة آمنة أم النبي. وأخوها أسد الإسلام حمزة، وابنها الزّبير بن العوام حواريّ رسول الله (ص) وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سَلّ سيفاً في الإسلام، وحفيدها عبدُ الله بن الزبير، الذي ذكرنا شيئاً من قصته وقصّة أمه فيما مضى من الصفحات.

لا تنسى صفية ذلك اليوم الذي جمع فيه النبي (ص) أقرباءه بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[121]، وكانوا نحو أربعين شخصاً، فدعاهم إلى الإسلام، ثم قال لهم: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغني عنكَ من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً[122].

نعم: يا صفية عمّة رسول الله، لا أُغني عنك من الله شيئاً..

لا يمكن لصفيّة أن تصف الفرح الذي غمرها، يوم ذكر النبي اسمها.. لكنها رغم فرحها وافتخارها بذلك، ظلّت عمرها كلَّه تأخذها الرجفة، كلما تذكّرت قوله :*لا أغني عنك من الله شيئاً*.

كلماتٌ قليلة كان لها أثرٌ جذريّ في تغيير حياة صفية.

بدأ ذلك التغيير حين قررت صفية أن تترك دين آبائها وأجدادها، وتتَّبِع دين ابن أخيها محمد بن عبد الله..

وظلّت تلك الكلمات محفورةً في ذاكرتها طوال عمرها، فكَونُها عمةَ النبي (ص) لن يفيدها بشيء، إذا لم تتّبع سنّته وطريقته، وتلتزم بتعاليم دينه.. وقرابتها للنبي (ص) لن تغني عنها يوم القيامة شيئاً..

نتذكر هنا حديث النبي (ص) حين قال لقرابته منبِّها: ***إن أوليائي يوم القيامة المتقون؛ وإن كان نسبٌ أقربُ من نسبٍ، فلا يأتيني الناس بالأعمال، وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم، فتقولون: يا محمد! فأقول هكذا وهكذا: لا*. وأعرض في كلا عِطفيه (منكبيه)، وهو يقول: لا**[123].

بعد هذا الموقف تغِيب عنا صورة السيدة صفيّة طيلة العهد المكي، شأنها في ذلك شأن كثير من الصحابيات المتميّزات.

قالت لي إحدى صديقاتي: هذا أمر طبيعي، فالتاريخ يكتبه الأقوياء، وفي مجتمعاتنا الذكور هم الأقوياء، ولذلك لا تتعرّض كتب التاريخ للنساء إلا ما رحم ربي..

قلت لها: أنا لا أوافقك على هذا الرأي، فالتاريخ الإسلامي مكتوب بأيدٍ أمينة نزيهة تتحرّى الحق والحقيقة. ثم، من قال لك إن الذكور هم الأقوياء؟!

إن الأحضان التي رضع منها هؤلاء الأقوياء حليب الشجاعة والحكمة والبطولة، هي العرين الذي يخرّج الدفعة تلو الأخرى من البطلات والأبطال.. ولكن ربما تغيب عن هؤلاء الرجال الأقوياء بعض التفصيلات عند الحديث عن الشخصيات النسائية، والسبب في هذا يعود إلى حدوثها في أجواء نسوية خاصة، فلا يتسنّى للرجال رؤيتها، ومن ثمّ روايتها...

إذاً تغيب عنا تفاصيل حياة السيدة صفية طيلة العهد المكّي، لكننا نعلم أنها في تلك المرحلة، كانت تربّي الزبير تربية تؤهّله ليكون حواريّ رسول الله (ص). وتربّي أخاه السائب ليكون مجاهداً بطلاً، وقد كان كما أرادت، فشارك في قتال مسيلمة الكذّاب، واستشهد في معركة اليمامة.

كما كانت تربي ابنها عبد الرحمن الذي شهد معركة اليرموك، واستشهد في سبيل الله..

نعم، صفيُّة هي أمّ هؤلاء الكرام، وأمّ أختهم زينب، ويكفي الأمَّ عظمةً أنها تصنع الأبطال.

ذكَّرني هذا بقصةٍ رمزيّة، تُحكى عن ملك، أراد أن يشجّع الإبداع في مملكته، فرصَد تاجاً مُرصَّعا بالجواهر، لمن يقوم بأفضل عمل في مملكته، ففاز في المسابقة رسّام وشاعر ونحّات..

احتار الملك على رأس أيٍّ منهم يضع التاج، وإذ بامرأة عجوز تشق الصفوف، وهي تبتسم..

سألها الملك: من أنت أيتها العجوز ؟

أجابته بثقةٍ وفخر: أنا والدة الرسام والشاعر والنحّات..

فاقترب الملك منها، ووضع التاج على رأسها، وهو يقول: أنت التي تستحقين التاج، أنت صانعة الأبطال..

في العهد المدني نجد لصفيّة رضي الله عنها بصمات وأيّ بصمات.؟!!

ففي غزوة أُحد، تلك المعركة التي انتهت بخسارة المسلمين، استشهد أسد الإسلام حمزة بن عبد المطلب، أخو صفية وعمّ النبي. ومَثّل وحشيّ بجثته، فبقر بطنه وجدع أنفه وأذنيه.. فجاءت صفية إلى ميدان المعركة، وهي تحمل رمحاً، وجعلت تقول للناس مؤنّبة مؤنّبة: انهزمتم عن رسول الله؟!

ثم تقدمت باتجاه الشهداء، تريد رؤية أخيها حمزة، وقد سمِعَت ما فعل المشركون بجسده من المُثلة. ويروى أنها جاءت وهي تحمل في يدها ثوبين لِتكفينه.

عندما علم النبي (ص) بمقدم صفية إلى أُحد، ساءه أن ترى أخاها حمزة بهذا المنظر المريع، ولعله خشي عليها من الآثار النفسية، التي قد يتركها ذلك المنظر في نفسها، فطلب إلى ابنها الزبير أن يحول دون رؤية أمه لأخيها حمزة، فاعترض الزبير طريق أمه قائلاً: يا أماه إن رسول الله (ص) يأمرك أن ترجعي..

أجابته وهي تبتلع حسرتها وألمها مع دموعها: ولِمَ يا بني؟ قد بلَغني أن قد مُثِّل بأخي في سبيل الله، وما أرضاني بذلك، ولأحتسبنَّ وأصبرنَّ إن شاء الله..

الله الله! يا لها من كلمات قوية!! و يا له من إيمان ثابت!!

وما أرضاني بذلك!!

نعم ، فما دامت تلك مشيئة الله وإرادته، فكيف لصفيَّة المؤمنة أن لا ترضى؟!!

الإيمان والاستسلام لقضاء الله راحةٌ لنفس المؤمن وعقله وروحه، وما ذلك إلا للمؤمن حقّ الإيمان.. فتَراه راضياً في البلاء والرّخاء.

قد يقول قائل: من البدهي أن يرضى المرء بالرخاء، فكيف يرضى بالبلاء؟

الجواب في حديث النبي (ص): ***عجباً لأمر المؤمن إن أمره له كله خير، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن***[124].

حين يتفكر العبد في المصيبة يرضى بقضاء الله، ويحمده لأنها لم تكن أكبرَ من ذلك، ولأن النعم التي أعطاه الله إياها لا تعدّ ولا تحصى.

كثيرٌ من الناس لا يطبّقون هذا المفهوم للرضا بالقضاء والقدر، فإذا أصيبوا بمصيبةٍ جزعوا ويئسوا، وربما قالوا ما لا يرضي الله تعالى!

رثت صفية أخاها بأبيات من الشعر، سأورد بعضاً منها، لأريكم كيف أنها لا تتنافى مع رضاها بقضاء الله فيه، ولكني قبل ذلك أحب أن أجيب عن تساؤل، قد يخطر في بال البعض: هل يتعارض إيمان المسلم بقضاء الله مع حزنه على من يفقده من الأحباب؟

كثيرون هم الذين تخفى عليهم حقيقة الرضا بأقدار الله، فيظنون أن البكاء والحزن والرثاء، يتناقض مع مفهوم الصبر وحقيقة الرضا، فيحاولون كبت مشاعرهم وقمعَ أحزانهم على أحبابهم، رغم أن هذا مما أباحه الله تعالى، بل هو مما جعله رحمة للإنسان، لذلك رأينا كيف بكى النبي (ص) عندما فقد ولده إبراهيم، فاستغرب الصحابي عبد الرحمن بن عوف، فقال عليه السلام: ***يا بن عوف، إنها رحمة، وإن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون***[125].

فالرضا بقضاء الله إذاً هو عدم الاعتراض على إرادة الله، والثقة بأن الله يكتب الخير للإنسان في دنياه أو في أخراه أو فيهما معاً، وعدم تمنّي لو أنّ ما كان من قضاء الله لم يكن.

إذاً رثت صفية أخاها حمزة. ماذا قالت فيه؟!

قالت:

أَقُولُ وَقَدْ أَعْلَى النَّعِيُّ عَشِيرَتِي

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ أَخٍ وَنَصِيرِ

دَعَاهُ إِلَهُ الْحَقّ ذُو الْعَرْشِ دَعْوَةً

إِلَى جَنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وَسُرُورِ

فَذَلِكَ مَا كُنّا نُرْجِّي وَنَرْتَجِي

لِحَمْزَةَ يَوْمَ الْحَشْرِ خَيْرُ مَصِيرِ

فَوَاللَّهِ لا أَنْسَاك مَا هَبّتْ الصَّبَا

بُكَاءً وَحُزْنًا مَحْضَرِي وَمَسِيرِي

عَلَى أَسَدِ اللَّهِ الَّذِي كَانَ مِدْرَهَاً

يَذُودُ عَنْ الإِسْلامِ كُلّ كَفَوْرِ

بعد غزوة أحد كانت غزوة الخندق..

في غزوة الخندق احتمت السيدة صفية مع نساء النبي (ص) وبعض نساء الصحابة وأولادهم، في حصن يملكه شاعر الإسلام حسان بن ثابت، يقال له: حصن فارع، وقد ذهب النبي وأصحابه ليحفروا الخندق حول المدينة.

في تلك الأثناء حدثت في حصن فارع قصةٌ عجيبة.

كان أحَد يهود بني قريظة يدور حول الحصن، والنظرات الخبيثة تملأ عينيه..

هرعت صفية إلى حسان بن ثابت تخبره بذلك، وهي تقول: قم يا حسان، قم إلى ذلك اليهودي فاقتله، فإني والله ما آمَنُ أن يدلّ على عوراتنا.

ما الذي كانت صفية تخشى أن يعرفه ذلك اليهودي؟

لقد كانت تخشى أن يعرف اليهودي، أن الحصن ليس فيه إلا النساء والأطفال، فيذهب بتلك الأخبار إلى يهود بني قريظة، الذين نقضوا عهدهم مع النبي (ص)، وناصروا أعداءه، فيهجموا على الحصن، فيقتلوا النساء والأطفال أو يسبوهم..

لم يكن مع النساء والأطفال المختبئين في الحصن، سوى حسان بن ثابت..

ولكن، لماذا لم يُبقِ النبي (ص) مع النساء من يحميهم من كيد المعتدين؟ وهل كان حسان قادراً على حمايتهم وحده؟

في الواقع كان النبي (ص) يحتاج إلى جهود جميع الرجال لردّ كيد الأحزاب عن المدينة، فاصطحبهم معه جميعاً، وترك النساء والذراري في أمان الله ورعايته.

أما حسان بن ثابت صاحب الحصن، الذي التجأ إليه بعض النساء والأطفال فله قصةٌ أخرى، ندركها حين نكمل قصة صفية مع ذلك اليهودي، الذي أراد التجسّس على الحصن..

عندما طلبت صفيةُ من حسان أن ينزل إلى اليهودي فيقتله، قال لها: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله لقد عرفتِ ما أنا بالذي يقدر على هذا!

نظرت صفية في عينيه، فأدركت صدق ما يقول..

ولنا هنا أن نتساءل: ماذا فعلت صفية إذاً؟

حملت عموداً، ثم نزلت متسلّلة، فأتت عدوّها من خلفه، ثم ضربته على رأسه بالعمود عدة ضربات حتى قتلته.. وعندما رجعت إلى الحصن، كان حسان بن ثابت ينتظر عودتها سالمة بفارغ الصبر، ولربما كان يرفع يديه داعياً: اللهم احمِ صفية وأَعِدها إلينا سالمةً غانمة.

بادرته صفية بقولها: انزل فخذ سلبَه (ما معه من سيف وأمتعة)، فإنه لم يمنعنِي من ذلك إلا أنّه رجل وأنا امرأة..

فأجابها حسان: يرحمك الله يا عمة رسول الله.. ما لي بسلَبه من حاجة...

ليس من المألوف أن يخاف الرجال.. لكنه موقف مشرّف وعظيم أن تكون المرأة أشجع من الرجال.. ولعلّنا أدركنا الآن لماذا لم يصطحب النبي (ص) معه حسان إلى غزوة الأحزاب، وأبقاه مع النساء راعياً ومؤنساً..

صلى الله عليك يا معلم الناس الخير، فعندما نتأمل في هذه الحادثة، ندرك كيف كان النبي (ص) يستثمر مواهب أصحابه وقدراتِهم، كُلٌّ في مجاله...

كان يختار الرجل المناسب للمكان المناسب..

كان يعرف الشجعان، فيسند إليهم الأعمال التي تتطلّب الشجاعة والإقدام، ولهذا نراه يعطي سيفه لأبي دجانة يوم أحد... وكان يعرف من يصلح للقيادة، فيعطيه القيادة، كعبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب، وجعفر وعليّ ابني أبي طالب..

وكان يعرف من يصلح للإمارة كأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل.

وكان يعرف من لا يصلح للإمارة رغم تقواه وورعه.. ولما طلب منه أبو ذرّ الغفاري رضي الله عنه أن يولّيه إمارة، قال له: ***يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِى عَلَيْهِ فِيهَا***[126].

وضعف أبي ذرّ لم يكن من ناحية الدين والتقوى، بل من ناحية ما تحتاجه الإمارة من مواصفات سياسيِّة وقياديّة خاصة، ولذلك فإن رجلاً كأبي ذرّ يصلح كداعية إلى الله، ولكنه لا يصلح للإمارة...

وهذا يدلّنا على أهمية العمل كفريق لا كأفراد، فأفراد الفريق يكمّل بعضهم بعضاً، واحد بشجاعته، والآخر بعلمه، والثالث بأمواله، والرابع برأيه، والخامس بعقله وذكائه...

عندما ننظر إلى النحل نراهم يعملون بطاقات الفريق لا بطاقات الأفراد، فطائفة تبني البيوت، وطائفة تنظّفها، وطائفة تحرسها وتحميها، وطائفة تدلّ على مواضع الأزهار، وطائفة تمتصّ الرّحيق لتأتي به وتخرج العسل اللذيذ، وللخلية ملكة واحدة، وشعارهم المرفوع:

لا قيمة لحياتي عندما تتعرض سلامة الجماعة للخطر.

مشكلتنا اليوم أننا لا نعرف من أين تُؤكل الكتف!

لا يحسن أغلب قادتنا ومربّينا وضع الرجل المناسب في المكان المناسب على الشكل المناسب، ولا يعرفون كيف يستثمرون اختلاف العقول والقدرات والمواهب في صناعة الفريق الواحد الذي يكمل بعضه بعضاً...

نعاني من مصطلح *فلان لا يصلح لشيء*، و*فلان عنده خلل في كذا*...

الحقيقة أنّ كلّ شخص لديه نقاط ضعف ونقاط قوّة، وعلينا أن نكتشف نقاط القوّة ونستثمرها لصالحنا، أي لصالح المجتمع وفائدته...

كيف استثمر النبي (ص) نقاط القوة عند حسان بن ثابت ؟!

أقول بصراحة: أجمع رواة السيرة والمؤرخون على أنّ حسان لم يكن رجل حربٍ وقتال، وهذه نقطة ضعف عنده. ولكنه في الوقت ذاته كان يملك نقاط قوة يمكن تنميتُها واستثمارُها.. وهذا ما فعله النبي (ص)، فهو لم يُشعر حساناً أو يعيّره بأنه جبانٌ أو ضعيف، بل استفاد من نقاط قوته. فقد كان حسانٌ شاعراً بليغاً فصيح اللسان، فكان النبي (ص) ينصب له منبراً في المسجد، ليهجو الذين كانوا يهجونه ويهاجمون الإسلام، وكثيراً ما كان (ص) يقول لحسان: ***إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ***[127].

أما الأمر الآخر الذي أُحبُّ أن أعقِّب عليه في حادثة صفية واليهودي، فهو الشجاعة التي كانت تمتلكها تلك المرأة، والتي فاقت بها كثيراً من الرجال..

يحاول كثيرٌ من الرجال تنقيص المرأة والغضّ من شأنها، ويدَّعون أنها أقل عقلاً من الرجال، وربما استند بعضهم إلى وصف النبي (ص) للنساء بأنهن ناقصات عقل ودين، ليدعم به قوله..

يؤكد العلم اليوم أن المرأة ليست أقل عقلاً من الرجل، ولكنها مختلفة عنه في أسلوب إدراكها للأمور وتحليلها لها..

وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الاختلافات بين الجنسين ليست مقتصرةً على الصفات الجسدية، بل إنها تمتدّ لتشمل كثيراً من الخصائص الفكرية والسلوكية.

ويتَّضِح ذلك في الاستعداد البيولوجي والفطري لدى الذكور للّعب بنوع خاص من الألعاب التركيبية وألعاب السيارات والطيارات والمسدسات، في حين تهتمّ الإناث بالدمى والعرائس وما يتعلق بها من ملابس

مزركشة وأدوات تجميل وألعاب على شكل بيوت صغيرة، تحوي غرفاً متنوّعة من ضيوف وجلوس ونوم وطعام..

وعند بلوغ السنة الثالثة من العمر، تبرَع الفتيات أكثر من الفتيان في فهم مشاعر الآخرين. أما في سن السابعة فتتكوّن لديهنّ البراعة في قراءة القصص وفهمها.

وهناك اختلاف طفيف في تركيبة المخ بين الذكر والأنثى، يترتّب عليه اختلاف في الوظيفة لدى كل منهما.. فالفصّ الأيمن من مخّ الذكر أصغر من الفصّ الأيسر، بينما يتماثل الفصّان عند المرأة، ويعزو العلماء قدرة المرأة على الاستماع والكلام بآن واحد إلى قدرتها على استخدام الفصّين معاً بوقتٍ واحد، بينما يستخدم الرجل الفصّ الأيسر من المخ إذا كان يمينياً، والفص الأيمن من المخ إذا كان يسراوياً، الأمر الذي لا يمكّنه من الاستماع والكلام بآن واحد.

وآخر ما وصلت إليه الأبحاث العلمية اليوم أنه لا يوجد فروق في المستوى الكلي للذكاء عند قياسه بمعامل الذكاء، ولكن توجد اختلافات في أنماط الذكاء، أو ما يسمى بالقدرات الذهنية على معالجة المواضيع المختلفة.

وخلاصة القول حسب ما وصلت إليه بعض الدراسات: إن الذكور يتفوقون في المهارات التي تتطلب ذهناً تحليلياً، بينما تتفوق البنات في المهارات اللفظية واللغوية، مما يمكن معه القول: إن هناك في كلٍّ منهما نقاطَ ضعف ونقاطَ قوة..

أما حديث ***ناقصات عقل ودين***[128]، فهو حديث صحيح، ولكن يُساء تفسيره من قِبَل الكثيرين، الذين يفهمونه فهماً حرفياً، ويُغفلون النظر إلى السياق الذي قيل فيه، كما يُهملون أدلةً أخرى من القرآن والسنة تدلّ على مساواة النساء للرجال..

يروي البخاري ومسلم أن النبي (ص) خرج إلى المصلّى في يوم عيد فطر أو أضحى، فمرَّ بالنساء، فقال لهن:

ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهَبَ للبّ الرجل الحازم من إحداكن..*!!*

إذاً الحديث قيل على سبيل الامتداح والملاطفة، لا على سبيل الانتقاص والاستهزاء، وذلك تعجُّبا من أن تكون المرأة قادرة على تطويع أعتى الرجال وأقساهم بلينها الدافئ وعاطفتها الجيّاشة..

وعندما سئل (ص) عن نقصان عقل المرأة أجاب: ***شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل***[129] ومردّ ذلك إلى قلّة الضبط والتثبت لدى المرأة، لا قلّة ذكائها، لأن العقل في اللغة له معانٍ كثيرة منها التثبّت، ولذلك يقال: عقَلَ الناقة: أي ثبّتها في مكانها.. وهذا ما توضحه آية الشهادة في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا**

رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[130]، وتَضِلّ في الآية بمعنى تنسى..

إذاً الحكمة من جعل شهادة المرأتين تعدل شهادة الرجل، هو قلّة ضبط المرأة للأمور المالية بسبب انصراف اهتمامها عن هذا النوع من القضايا غالباً..

ولذا نرى الشرع الحنيف يَقبَل شهادة المرأة وحدها، فيما لا يطَّلع عليه إلا النساء غالباً كالولادة والبكارة والرضاع... وهذا دليل على أن المرأة لا تقلّ ذكاءً وقدرة على التفكير عن الرجل، وإنما تختلف اهتماماتُها عن اهتماماته، وينبغي لهذا الاختلاف أن يؤخذ بعين الاعتبار في سَنّ الأحكام والقوانين..

والحقيقة أن القرآن الكريم يُسقط فوارق الأفضلية بين الذكر والأنثى من حيث نوعهما البشري، ويحصر الأفضلية بالتقوى فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[131].

ولذلك يخطيء اليوم من يقول: إنّ الدين يفضِّل الذكر على الأنثى، ويُعلي راية الذّكر ويسقط راية الأنثى، وإنّ الأنثى محكومةٌ لإرادة الذكر، ليسيطر عليها ويستبدَّ بها، لأنه أعلى شأناً منها وأكثرُ ذكاءً..

ولهؤلاء يقول النبي (ص): ***النساء شقائق الرجال***[132].

ولهذا نراه في مسيرتنا مع عالم الصحابيات يعتزُّ بالأنثى، ويكرمها، ويفسح لها مجالاً في كل ميادين الحياة الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والعسكرية والسياسية.

* * *

نعود إلى صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، فنرى النبي (ص) يُسهم لها في غزوة الأحزاب من الغنائم، كما يسهم للمقاتلين، فقد اعتبر دفاعها عن النساء في حصن فارع وقتلَها لذلك اليهودي مشاركةً عملية في الجهاد..

يروى أنه لما علم النبي (ص) بما كان من أمر صفية وحسانٍ واليهودي، ضحك حتى بدَت نواجذه. نعم، وكيف لا يضحك (ص) وأنثى من صحابته، تفوّقت على الرجال شجاعةً وإقداماً**!!**

وشهدت صفية بعد ذلك غزوة بني قريظة مع عدد من الصحابيات، منهن أم عمارة وأم سعد بن معاذ والسميراء بنت قيس..

كما شهدت غزوة خيبر مع عشرين صحابية، رافقن الجيش إلى خيبر، منهن أم سلمة زوجة النبي (ص)، وأمّ عمارة نسيبة بنت كعب، وأم سليم بنت ملحان، وأم عطية الأنصارية، وسهلة بنت عاصم، وكانت حاملاً خرجت مع الجيش فوضعت وليدها في خيبر...

طبعاً شهود النساء للغزوات مع النبي (ص) كان من أجل رعاية أمور الجيش من سقاية وطعام وتمريض، ولكن هذا لا يعني أنهن لم يشاركن فعلياً في الجهاد.. بل والحق يقال: أنهن في كثير من الأحيان كنَّ يقاتلن الأعداء، إذا ما حمي الوطيس وجدَّ الجدّ، واحتاج الأمر إلى سنَدهنّ ومعونتهنّ ودعمهنّ. وهذا واضح من فعل الصحابية نسيبة بنت كعب في غزوة أحد، والصحابية أم سليم بنت ملحان في غزوة حنين..

وقد جرى خلاف بين العلماء: هل كان النبي (ص) يسهم للنساء اللواتي يخرجن معه في الجهاد من أجل خدمة الجيش، ولو لم يشاركن في قتال، أم أنه كان يكتفي بإكرامهن بما تيسَّر له من الغنائم. ويرجِّح البعض أنه كان يُسهم للنساء تماماً، كما يُسهم للمقاتلين من الرجال، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن المرأة تساوي الرجال، ولا تقلّ عنهم شأناً!

قبل أن نسدل الستار على سيرة السيدة صفية، أحببت أن أنقل إليكم أبياتاً بليغة، رثت بها النبي (ص) حين وفاته، قالت فيها:

أفاطمُ صلى الله ربُّ محمد

على جدثٍ أمسى بيثربَ ثاويا

كأنّ على قلبى لذكرِ محمدٍ

وما خِفتُ من بعد النبيّ المكاويا

فدىً لرسول الله أمي وخالتي

وعمّي ونفسي والدّنى وعياليا

ألا يا رسول الله كنتَ رجاءنا

وكنتَ بنا براً ولم تك جافيا

وكنت بنا براً رؤوفاً نبيّنا

ليبكِ عليك اليوم من كان باكيا

صدقتَ وبلَّغت الرسالة صادقاً

وخلَّفت أمر الدين أبلجَ صافيا

فلو أن رب الناس أبقاك بيننا

سعِدنا ولكن أمره كان ماضيا

عليك من الله السلامِ تحيةٌ

وأُدخلت جناتٍ من العدنِ راضيا

الله الله يا صفية..

أن يا لها من أبياتٍ تنبع من قلبٍ محبٍّ عاشقٍ ولهان لنبيٍّ كريم رؤوف رحيم، لا يَكمَل إيمان المرء إلا إذا أحبه أكثر من النفس والمال والولد..

في خلافة عمر رضي الله عنه، توفيت السيدة صفية عن عمر يناهز ٧٣ عاماً..

فلك منا السلام أيتها الشجاعة الجريئة..

ولك منا التحية أيتها الشاعرة البليغة..

ورضي الله عنك يا عمة الرسول المصطفى..

* * *

قرّائي الكرام، انتهت قصة صحابيتنا صفية بنت عبد المطلب، وقد سعدنا بسيرتها، وأفدنا مما فيها من خيرات وبركات.

سننتقل في الصفحات التالية، لنقرأ شيئاً عن الصحابية الجليلة أسماء بنت عُمَيس، ونعرف من هي هذه السيدة الفاضلة، وماذا كان لها من دورٍ مجيدٍ في حياة الإسلام والمسلمين.

***

سورة الشعراء، الآية: ٢١٤. 121

صحيح البخاري، ٤/١٧٨٧، حديث (٤٤٩٣). 122

رواه البخاري في الأدب المفرد، ١/٣٠٩، حديث (٨٩٧). وحسّنه الألباني. 123

رواه مسلم في الصحيح، ٨/٢٢٧، حديث (٧٦٩٢). 124

رواه البخاري في الصحيح، ١/٤٣٩، حديث (١٢٤١). 125

رواه مسلم في الصحيح، ٦/٦، حديث (٤٨٢٣). 126

127 رواه مسلم في الصحيح، ٧/١٦٤، حديث (٦٥٥٠).

128 رواه مسلم في الصحيح، ١/٦١، حديث (٢٥٠).

129 رواه مسلم في الصحيح، ١/٦١، حديث (٢٥٠).

130 سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

131 سورة الحجرات، الآية: ١٣.

132 رواه الترمذي في السنن، ١/١٨٩، حديث (١١٣). وصححه الألباني.

الصحابيةُ الجليلةُ

أسماءُ بنتُ عُمَيس

ضيفتنا في هذا البحث صحابيةٌ جليلةٌ، كانت منالسابقات إلى الإسلام، هاجرت الهجرتين، وصلّت إلى القبلتين، وكتب لها الله أن تتزوج ثلاثة من المبشَّرين بالجنة..

إنها أسماء بنت عميسٍ الخثعميّة..

سأبدأ الحديث عنها من هذه القصة.

كانت جالسةً ذات يوم مع أم المؤمنين حفصة تتسامران، وتتذكّران أيام الصبا الجميلة التي قضتاها في مكة. وما هو إلا وقت قليلٌ حتى جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستأذن ودخل إلى بيت ابنته حفصة، وعندها أسماء بنت عميس..

هلّل عمر لرؤية أسماء، زوجة الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب، ورحَّب بها في يثرب، مدينة الرسول ص)، بعد غيابٍ ثلاثة عشر عاماً في الحبشة.)

لكنّ دقائق الصفا في تلك الجلسة كانت قليلةً جداً، ما لبث بعدها أن شابَ الجو شيء من العكر والغضب..

ولقائل أن يقول: من غضب ممّن.؟؟ ولماذا؟!

إنها أسماء، غضبت من عمر، لأنه قال لها: لقد سبقناكم بالهجرة إلى المدينة يا أسماء، فنحن أحقّ برسول الله منكم..

لربما أراد عمر من هذا أن يهزّ الورد ليشمّ رائحته، فهو يعرف أن أسماء ذاتُ شخصية قوية، لا تخاف في الله لومة لائم، فهل غيَّرتها السِّنونَ يا ترى؟!

لا.. بل يبدو أن السنين زادتها قوةً وجرأة وثباتاً وثقة بالنفس..

هذا ما اكتشفه عمر، حين هبَّت أسماء واقفةً، وقالت بحماسة: لا والله.. لستم أحقَّ برسول الله منّا.. كنتم مع رسول الله (ص)، يُطعم جائعكم، ويَعِظ جاهلكم، وكنّا بعيدين في دار الغربة في الحبشة، وذلك في سبيل الله ورسوله..

صمتت أسماء هنيهة، وكأنها تبتلع ريقها، وتبتلع معه آلام الكربة والغربة حين كانت في الحبشة، ثم أردفت قائلة: وايمُ الله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلتَ ياعمر لرسول الله (ص).. والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه..

لقد أنصفته والله بقولها: لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

شكت أسماء للنبي (صِ) ما عيَّرها به عمر، فابتسم النبي وقال: ***ليس بأحقَ بي منكم، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان***[133].

لم تسعها الدنيا من الفرحة، فلها ولإخوانها الذين هاجروا إلى الحبشة ثوابٌ يفوق ثواب عمر وأصحابِه المهاجرين إلى المدينة.. لها ثواب الهجرة إلى الحبشة وثواب الهجرة إلى المدينة المنورة..

هرعت أسماء وأخبرت زوجها جعفر وإخوتها في الله، الذين صحِبتهم في الحبشة، بقول النبي الكريم، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، ولم يكن في الدنيا شيء أعظم عندهم مما قاله النبي (ص) في حقهم: لأصحاب السفينة هجرتان!

ولكن من هم أصحاب السفينة؟!

علينا أن نعود إلى الوراء أربعة عشر عاماً تقريباً، أي إلى السنة الخامسة من البعثة، حين صبَّت قريش غضبها على المسلمين، فنصح النبي (ص) أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد، فاستجاب لهذه النصيحة ثمانون صحابياً وصحابية، فشدّوا الرّحال من مكة المكرمة حتى وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر، ليركبوا سفينةً صغيرة هزيلة، يخوضون بها غمار البحر وأمواجه العاتية، ويواجهون المصاعب والأهوال إلى أن وصلوا إلى الحبشة!!

كم لقي هؤلاء المهاجرون في سفرهم من التعب والنصب، وقد انقطعت عنهم أخبار أحبابهم وأهاليهم في مكة، حتى إنهم لم يعلموا بهجرة النبي (ص) وأصحابه إلى المدينة المنورة، إلى أن أرسل النبي (ص) رسالة مع عمرو بن أمية الضمري إلى ملك الحبشة، وذلك في السنة السابعة للهجرة، يدعوه فيها إلى الإسلام، ويطلب منه أن يرسل إليه من بقي من المسلمين في بلاده.

في هذا الوقت العصيب، الذي كانت فيه أسماء وبقية المهاجرين والمهاجرات إلى الحبشة يعانون الأمرّين، كان عمر رضي الله عنه ينعم بصحبة النبي (ص) مع بقية الصحابة الكرام، ويستمعون إلى أحاديثه وتعاليمه، فهل أولئك كهؤلاء!!

صحيح أن المهاجرين إلى الحبشة، وجدوا فيها الأمن والطمأنينة والحرية الدينية، ولكنّ هذا كله لم يكن ليعوِّضهم عن لقاء النبي (ص)، ولا يروِي ظمأهم إلى العلم الذي افتقدوه منذ أن هاجروا..

إذاً.. هنيئاً لأسماء بنت عميس ولكل من هاجر إلى الحبشة، أن يحظوا بهذا اللقب: **(أصحاب الهجرتين).**

كانت أسماء بنت عميس وزوجها جعفر من السابقين إلى الإسلام، منذ أن كان النبي (ص) يدعو إلى الإسلام سراً، ولقد قال تعالى فيهم وفي أمثالهم: **(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)**[134]

في الحبشة أنجبت أسماء لزوجها جعفر ثلاثة أولاد هم: عبد الله بن جعفر، وكان أول مولود للمسلمين في الحبشة، ثم محمداً وعوناً.

لم يكن جعفر زوجاً عادياً أبداً، فقد كان من أولئك القِلَّة المميّزين الذين يُشار إليهم بالبَنان، أينما ارتحلوا وحيثما حلّوا..

وكانت أسماء مسرورة بهذا، وكثيراً ما كانت تفتخر على صويحباتها، بأنها زوجة جعفر بن أبي طالب..

إنه جعفر، المهاجر الذي تكلم أمام النجاشي باسم المسلمين داعياً إلى الإسلام. ولما تلا بضع آيات من سورة مريم، بكى النجاشي وقال: والله إن هذا والذي جاء به المسيحُ، ليخرج من مشكاة واحدة، أي: من أصل واحد هو إله السماء.

لا تنسى أسماء استقبال النبي (ص) لزوجها جعفر، حين عاد في السنة السابعة للهجرة مع مهاجري الحبشة إلى المدينة المنورة، وكان ذلك بعد غزوة خيبر، فلقد عانقه النبي وقبّله، وهو يقول لأصحابه: ***لا أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر***[135].

كان (ص) يحب جعفراً، وكثيراً ما كان يقول له: ***أشبهت خَلقي وخُلقي***[136].

ولا تنسى أسماء زيارات النبي (ص) المتكرّرة إلى بيتهما، ومحبَّته لأولادهما عبد الله وعون ومحمد..

يروى أن النبي (ص) بايع عبد الله بن جعفر على الإسلام، عندما قدم عائداً مع المهاجرين إلى المدينة، رغم أنه كان ما يزال فتىً صغيراً، ولم يحدث أن بايع النبي (ص) فتياناً صغاراً سوى عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير..

لم تستمتع أسماء وعائلتها بهناءة الاستقرار في المدينة المنورة سوى سنة ونيف تقريباً، ففي السنة الثامنة للهجرة قرّر النبي (ص) أن يرسل ثلاثة آلاف مقاتل من صحابته إلى بلاد الشام، ليؤدّب بهم ملك بصرى شرحبيل بن عمرو الغساني، الذي قتل الحارث بن عمير الأزدي، الرسول الذي حمّله النبي الكريم رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام، فقتله مع أن الرسول لا يقتل حسب أعراف ذلك الزمان، وملك بصرى هذا كان موالياً للرومان.

أمَّر النبي (ص) على الجيش ثلاثة أمراء على التوالي، فقال: ***أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة***[137].

وصلت أخبار تحرّك هذا الجيش إلى هرقل عظيم الروم، فجمع عدداً ضخماً من المقاتلين، وكذلك فعل شرحبيل بن عمرو ملك بصرى، والتحم القتال بين الجيشين في مؤتة من بلاد الشام، فلما قُتل زيد بن حارثة، أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فأبلى أحسن البلاء...

يروى أنه نزل عن فرسه فعقرها، ثم قاتل الروم وهو يرتجز:

يا حبّذا الجنةُ واقترابُها

طيبةٌ وباردٌ شرابُها

والروم رومٌ قد دنا عذابها

كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها

عليّ إذ لاقيتُها ضِرابُها

وظلَّ رضي الله عنه يقاتل، حتى استشهد في سبيل الله تعالى، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة، فلما استشهد، اتفق المسلمون على تأمير خالد بن الوليد، فأخذ اللواء وقاتل المشركين، حتى ولَّوا مدبرين، فاكتفى بهذا، وانحاز بجيشه عائداً إلى المدينة..

شاع خبر استشهاد الأمراء الثلاثة في مدينة الرسول (ص)، قبل أن يصل الجيش المنتصر.. فكيف حدث هذا؟!

لم يكن هناك موبايلات ولا فاكسات ولا إنترنت، فكيف وصل الخبر أسرع من البرق؟!

لقد نقل رسول السماء جبريل عليه السلام للنبي المصطفى خبر ما جرى في المعركة..

يروي الإمام البخاري أن النبي (ص) خرج إلى صحابته يزفُّ إليهم بشرى الانتصار، وينعى إليهم زيد وجعفراً وعبد الله بن رواحة، قائلاً وعيناه تذرفان الدمع: ***أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرةٍ ففُتح له***[138].

ولكن.. كيف تلقّت أسماء خبر استشهاد زوجها؟! ومن الذي نقل إليها ذلك الخبر الأليم؟!

إنه النبي (ص)، الرسول العظيم، والقائد الرحيم، هو من ذهب بنفسه ينعى إلى أسماء زوجها جعفراً..

تقول أسماء حسبما روت عنها حفيدتها: دخل عليَّ رسول الله (ص) في اليوم الذي أصيب فيه جعفر، وكنت قد عجنت عجيني، وغسلت بَنيّ ودهنتهم، أي: عطرتهم، فقال لي (ص): يا أسماء أين بنو جعفر؟! فجئت بهم إليه، فجعل يتشممّهم ويضمهم، وعيناه تذرفان بالدمع..

استغربت أسماء، فهي لم تر النبي (ص) يفعل هذا من قبل، لا بد أن هناك أمراً طارئاً.. ما عساه يكون هذا الأمر الطارىء؟

وجف قلبها، عندما خطر في بالها أن مكروهاً ما، حدث لزوجها الحبيب جعفر..

سألته بصوت مرتجف: يا رسول الله لعلك بلغك عن جعفر شيء؟

فقال بصوت يُغالب الدموع: نعم.. نعم يا أسماء.. لقد استشهد جعفر في سبيل الله.

لم تعد قدماها قادرتين على حملها..

إنه جعفر.. زوجها الحبيب، والد أولادها الثلاثة.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

وبكت أسماء!

كأيِّ زوجةٍ مُحبة لزوجها، بكت أسماء، وأمام رسول الله (ص).

لم ينهها النبي (ص) عن البكاء، فالبكاء على فراق الأحبّة أمر طبيعي، وهو رحمة من الله، وإنما نهى الإسلام أن يضرب المحزونُ صدراً، أو يقول هَجراً فيه اعتراض على أمر الله وقدره..

النبي (ص) ذاته بكى على ابن عمه جعفر، وقال لما رأى ابنته فاطمة تبكي عليه: ***على مثل جعفر فلتبكِ الباكية***[139].

رَثَت أسماء يومذاك زوجها قائلة:

فآليتُ لا تنفكّ نفسي حزينةً

عليك ولا ينفكّ جلدي أغبرا

فللّه عينا من رأى مثله فتىً

أكرَّ وأحمى في الهياج وأصبرا

يروي عبد الله بن جعفر ماحدث في ذلك اليوم، الذي نعى فيه النبي (ص) إليهم والده جعفر.. فيقول: كنت أنظر إلى النبي (ص) وهو يمسح على رأسي ورأس أخويَّ، وعيناه تهريقان بالدموع تقطر على لحيته، وهو يقول: ***اللهم إن جعفراً قد قدّم إليَّ أحسن الثواب، فأخلفه في ذريته بأحسنَ ما أخلفتَ أحداً من عبادك في ذريته***[140].

ثم التفت إلى أمي أسماء وقال: يا أسماء ألا أبشرك؟؟

قالت: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله..

قال: ***إن الله تعالى أبدله عن يديه جناحين يطير بهما في الجنة***[141].

هدأت نفس أسماء لهذه البشرى.. جناحان يطير بهما في الجنة، ومن يومها لُقِّب جعفر بذي الجناحين.. فهنيئاً لجعفر ولآل جعفر. هكذا ردّدت أسماء في سرّها..

وخرج النبي (ص) من بيت جعفر بعد أن طيَّب خاطر زوجته بهذه البشرى، وقال لصحابته: ***اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَاماً، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ***[142].

واصطحب النبي إلى بيته ولديّ الشهيد عبد الله وأخيه، ليخفّف عنهما ما يجدانه من مرارة اليتم وحرقة فقد الأب الغالي.. فمكث عبد الله وأخوه مع النبي (ص) في بيته ثلاثة أيام.

والمتتبع لسيرة النبي (ص) يجد أنه ظل يرعى آل جعفر في كثير من المواقف، فعندما عاد جيش مؤتة، كان في استقباله النبي (ص) وصحابته.. وكالعادة أسرع الصبيان يستقبلون آباءهم وأقرباءهم، فلمح النبي (ص) عبد الله بن جعفر بين الصبيان، فقال لصحابته: خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فأُتي بعبد الله، فأخذه وحمله بين يديه..

لقد أراد النبي (ص) أن يعوِّضه عمّا افتقده من حنان الأبوَّة ورعايتها.. وكان لذلك أثرٌ كبيرٌ في ترميم ما ألمّ بنفس عبد الله من جراحٍ، خلّفها استشهاد والده..

يروي عبد الله أيضاً كيف قدِم النبي (ص) من سفرٍ مرّة، فهرع إليه صبيانٌ من أهل بيته، وكان عبد الله معهم، فتلقَّاهم النبي (ص) بالترحيب والحب والحنان، وأركب الحسنَ بن علي وعبدَ الله بن جعفر على دابّته، ودخل ثلاثتهم المدينة وهم على ظهر الدابة[143].

ألستم معي إخوتي القراء في أن حادثة استشهاد جعفر تحتوي على كثِير من العبر، التي تستحقّ الوقوف والتأمل والاقتداء أيضاً؟!

سأتوقّف أولاً عند الأسلوب اللطيف والذكي، الذي أعلم به النبي (ص) أسماء بنت عميس بوفاة زوجها، فلقد زارها بنفسه، وطلب أن يرى أبناء جعفر، فقبَّلهم وتشممّهم، وهو يواري دموعه، وكأنه يخبر أسماء بشكل غير مباشر بما حدث لزوجها، وفي هذا تَهييئٌ نفسيّ، يمكِّن المرء من تلقِّي الصدمة عبر دفعات لا دفعة واحدة..

أليس هذا إرشاداً نبوياً؟!!

نرى اليوم من يلقي إلى أهل المصاب خبر المصيبة دفعةً واحدة، فيعجز الأهل عن استيعاب النبأ وتقبّله، وربما يصاب أحدهم بمرضٍ عُضال جرّاء هذا الأسلوب الفظّ في الإخبار عن المصيبة، فيرتفع ضغطه أو سكر دمه أو كوليستروله، وقد يصاب بما هو أسوأ من ذلك.

أما الأمر الثاني الذي أحب أن أنوّه إليه، فهو قول النبي (ص): ***اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ***[144].

لست أشكّ في أن صحابة النبي (ص) تسابقوا لتنفيذ أمره، فأرسلوا إلى آل جعفر طعاماً..

ولكني أعجب من قصور فهم بعض المسلمين لهذا الحديث، وظنّهم أن هذا الأمر خاص بآل جعفر، بينما نرى في نصّ الحديث دلالة واضحة على أنه هديٌ نبويٌّ، يُستحب فعله مع أهل الميت، الذين ينشغلون بتغسيل ميتهم وتكفينه ودفنه، ويلهيهم الحزن على فراقه عن الطبخ وتجهيز الطعام..

في هذا الوقت الحرِج المؤلم يجب أن تبرز الأخوة الإسلامية، وتظهر بصمات التكاتف الاجتماعي، الذي حثّ عليه الإسلام فيما بين المسلمين..

ولا تقتصر المشكلة على إهمال المسلمين لهذا التعاضد والتعاون، بل تتعدّاها إلى إلزام أهل الميت ببدعٍ ما أنزل الله بها من سلطان. ففي كثير من المجتمعات الإسلامية اليوم تسود عادات ذميمة، تكلِّف أهل الميِّت بلاءً فوق بلائهم: **تنزيلة الميت.**

أتعرفون إخوتي القرّاء ما معنى تنزيلة الميت!!

هي طعام يُصنع على روح الميت، يتكلّف فيه أهل الميت عناء الذهاب إلى محلات الطعام الجاهز، ويدفعون مبالغ طائلة لإطعام الناس، الذين سيحضرون دفن ميّتهم. وكثيراً ما نرى أهل الميت يتكلّفون ما لا طاقة له به، من أجل ماذا؟!

لإرضاء الناس..

وإرضاء الناس غاية لا تدرك!

وبمناسبة الحديث عن التنزيلة، أقول: **هناك أيضاً الخميس والأربعينية والسنوية..**

ماذا يعني هذا؟

هي أيضاً ولائم، يقدَّم فيها الطعام على روح الميت في الخميس الأول بعد الوفاة، وفي اليوم الأربعين وبعد مرور سنة من وفاته.

لا يهمني الآن الحديث عمّا في هذه الولائم، مما لذّ وطاب من الأطعمة، التي ترهق أهل المتوفّى مادياً وجسدياً، لكّن ما يهمّني هو أن هذه العادات الاجتماعية الذميمة ألبست لباس الدين، وصارت كأنها جزء منه، لا يجوز التقصير بها.. في حين أنها لا تَمتُّ إليه بصلة، وليس لها مستندٌ شرعي.

المستند الشرعي والسلوك الإسلامي الصحيح هو:

اصنعوا لآل جعفر طعاماً!

اصنعوا لآل فلانٍ طعاماً، فإنه جاءهم ما يشغلهم..

قد يقول البعض: لماذا تحاربين هذه العادات وتنعتينها بالبدعة، مع أنها شيء نافع، يتصدّق فيه الأهل على روح ميتهم؟!

أقول: أولاً: لست وحدي من يحارب هذه العادات، ولم آتِ بجديد في هذا، بل ذهب إلى هذا جمهور الفقهاء القدامى وكثير من الفقهاء المعاصرين، ولمن أراد الاستزادة في الحكم الشرعي لهذه الموائد، فليرجع إلى كتابي فقه المرأة، ففيه سرد مفصّل للآراء الفقهية والأدلة الشرعية. وثانياً: الصدقة على روح الميت مستحبة، فقد أتى رجل إلى النبيِّ(ص) يسأله: إِن أُمي تُوُفِّيت، أينفعُها إِن تصدَّقْتُ عنها؟ قال: ***نعم*.**[145].

والصدقة على روح الميت يصله ثوابها بإذن الله، طعاماً كانت أم ثياباً أم مالاً، ولا يشترط في هذا أن تكون في يوم وفاة الميت أو في يوم الأربعين أو السنوية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن من يُدعى إلى التنزيلة والأربعينيّة والسنويّة، هم غالباً من الأغنياء لا من الفقراء.. فأين الصدقة في الموضوع؟

الصدقة لوجه الله تعالى على روح الميت، أمر مختلف عن التباهي والتكلّف!

التكاتف والتعاون الاجتماعي بين الأقرباء والمعارف والجيران يتحقق عن طريق: اصنعوا لآل الميت طعاماً، فإنه قد أتاهم ما يشغلهم..

أمرٌ آخر لابد لنا من ذكره هنا، وهو رعاية اليتيم ومحاولة تعويضه عما فقده من حنان وعطف، يقول الله تعالى في القرآن الكريم: (فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)[146]، ويقول النبي (ص) عن كافل اليتيم، سواء كان هذا اليتيم يخصّه (أي بينهما قرابة) أو لا يخصّه: ***كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة، وأشار إلى السبّابة والوسطى***[147].

* * *

نعود إلى السيدة أسماء بنت عميس رضي الله عنها، لنراها بعد وفاة زوجها تعكف على تربية أولادها أحسن التربية.

بعد أن انتهت عدُّتها عرض عليها النبي (ص) الزواج من أحد كرام أصحابه..

قد يستغرب البعض اليوم ويستهجن أن تتزوّج الأرملة، ويظنّ أن عليها أن تقضي بقية عمرها رهينة لتربية أولادها وتزويجهم، لتقضي ما تبقّى من حياتها بعد ذلك وحيدة دون مؤنس أو حتى دون معيل..

لكني أقول: هذه النظرة ليست نظرة الإسلام؟!

والدليل؟! تعالوا بنا لنرى الدليل!

لقد عرض النبي (ص) على أسماء أن تتزوج مرةً أخرى فقبلت، وكانت السمة البارزة في ذلك العصر، هي إقدام الرجال على خطبة النساء الأرامل والمطلقات لإعالتهنّ ورعايتهنّ هنّ وأولادهنّ..

قد يقول البعض: ألا يستطيع المسلم أن يرعى الأرملة ويساعدها إلا إن تزوّجها؟

أقول: طبعاً بلى.. لا يشترط الزواج للمساعدة.. وقد كان النبي (ص) يحث على العناية بالأرامل، ويشبّه الساعي على الأرملة والمسكين بالمجاهد في سبيل الله، وبالقائم لا يفتر، وبالصائم لا يفطر، فيقول: ***الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل والصائم النهار***[148].

لكني لا أتحدث الآن عن هذا النوع من المعونة، بل أتحدث عن حق الأرملة في أن تختار الطريقة التي ستقضي بها بقية حياتها، ما دام ذلك في الحلال، دون أن يلاحقها المجتمع بنظرات العار وعبارات الاتهام..

ولكن من هو العريس الذي اختاره النبي (ص) لأسماء بنت عميس؟!

إنه رفيقه وصديقه وخليله أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهل هناك خير من أبي بكر زوجاً بعد جعفر؟!

طبعاً قبلت أسماء رضي الله عنها، وزُفّت إلى أبي بكر رضي الله عنه وعنها، ولا يسعني إلا أن أتخيّلها فرحة بهذا الزوج، وإن كان في قلبها غصّة لفراق جعفر.. ولكن .. إنا لله وإنا إليه راجعون..

لا نحتاج كثيراً أن نتصور حياة أسماء مع أولادها في بيت أبي بكر، فما يحمله أبو بكر بين جنبيه من رحمة ورأفة وعطف وحب، يجعلنا نؤكّد أنهم عاشوا لديه كأفضل ما تعيشه زوجة في بيت زوجها، وكأفضل ما يعيشه الربائب في حجور أزواج أمهاتهم..

رافقت أسماء بنت عميس أبا بكر بقية حياته، وشهدته وهو يُختار خليفة للمسلمين، وكانت له عوناً في السرّاء والضرّاء، إلى أن توفي بعد سنتين ونيف من خلافته..

كان أبو بكر الصديق يحب زوجته أسماء، ويجلّها ويحترمها أيضاً، وقد أوصى أن تتولى غسله بعد وفاته.. فوفّت وصيته وغسّلته، وأعانها في ذلك ابنه عبد الرحمن بن أبي بكر. ولما انتهت من غسله، سألت صحابة رسول الله: هل عليها من غُسل بسبب غَسل الميت؟ فأخبروها أن ليس على من يغسّل الميتَ غسلٌ واجب..

أنجبت أسماء لأبي بكر ولداً أسماه محمداً..

إذاً.. محمد بن أبي بكر هو ولده من أسماء بنت عميس،وقد أنجبته في طريق رحلتها إلى الحج، في منطقة تدعى ذي الحليفة، وذلك في حجة الوداع، فأخبر أبو بكر النبي (ص) بذلك، يستوضح منه عمّا يتوجب على أسماء أن تفعله، فأخبرها (ص) أن تغتسل غُسل الإحرام -وهو غسلٌ مسنون لا واجب- ثم تهلّ بالحجّ[149].

وبذلك يعود إلى أسماء بنت عميس الفضل في تبيين حكم النفساء، ويقاس عليها الحائض، إذا أرادتا الحج أو العمرة، فيجوز لهما الإحرام، ويمكنهما أن تقوما بجميع أعمال الحج والعمرة ما عدا الطواف، لأن الطواف صلاة، ويشترط فيه ما يشترط في الصلاة.. وهذا ما بيّنه النبي (ص) لعائشة، حين حاضت أثناء أدائها لمناسك الحج، فقال لها: ***اصنعي ما يصنع الحاجّ، غير أن لا تطوفي ولا تصلي***[150].

بالمناسبة.. أسماء هي التي نقلت فكرة صناعة نعش الميت إلى جزيرة العرب، وكان الميت قبل ذلك يُحمل على خشبة، وقد طُرح عليه ثوب فوق كفنه، فلما حضرت الوفاة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، قالت لأسماء: يا أسماء إني قد استقبحت ما يُصنع بالنساء، يُطرح على المرأة الثوب فيصفها، أي فيصف حجمها وجسدها**!!**

فقالت أسماء: يا ابنة رسول الله (ص) ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة؟

قالت: بلى.

فجاءت أسماء بأخشاب، فألصقتها ببعضها، ثم غطّتها بثوب من أعلاها، فصارت كالهودج أو الصندوق، فأعجبت الفكرةُ فاطمة الزهراء واستحسنتها، فكانت رضي الله عنها أول من صُنع لها نعشٌ في الإسلام.

فعل أسماء هذا يذكرنا بقول النبي (ص): ***الحكمة ضالّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها***[151].

نتساءل هنا عن حال أسماء بعد وفاة زوجها أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه؟

بعد أن انقضت عدّتها خطبها عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أخو زوجها الأول جعفر بن أبي طالب، فتزوجته وأنجبت منه يحيى وعون، وعلى هذا فلأسماء ولدان باسم عون، أحدهما عون بن جعفر، والآخر عونُ بن عليّ بن أبي طالب..

ورافقت السيدة الفاضلة زوجها علياً في رحلة جهاده ومعاناته، حتى استشهد رضي الله عنه.. ولم تتزوج بعده أحداً.

ودَّعت السيدة الفاضلة والصحابية الجليلة أسماء بنت عميس الحياة، وقد روت عن النبي (ص) ستين حديثاً..

لا يسعنا في ختام حديثنا عنها إلا أن نقول:

سلامٌ عليك منّا يا صحابية رسول الله (ص)..

يا زوجة ذي الجناحين جعفر الطيار..

يا أم عبدَ الله بن جعفر.. الكريمِ الذي عُدّ من أجواد العرب.

وسلام لك منّا يا زوجة الخليفتين أبي بكر وعليّ رضي الله عنهما وعنك وعن كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ مخلصة إلى يوم الدين..

* * *

في دول العالم العربيّ والإسلاميّ أكثر من مدرسةٍ تحمل اسمَ (الشفاء العدوية).

يدخل الطلاب إلى المدرسة ويخرجون منها، وهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن هذه السيدة، وربما لا يعرفون أنها من صحابيّات رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سأفردُ الصفحات التالية للحديث عنها وعن مآثرها.. رضي الله عنها وأرضاها.

***

رواه البخاري في الصحيح، ٤/١٥٤٦، حديث (٣٩٩٠). 133

سورة التوبة، الآية: ١٠٠. 134

رواه الحاكم في المستدرك، ٢/٦٨١، حديث (٤٢٤٩). وحسّنه الألباني. 135

رواه الترمذي في السنن، ٥/٦٥٤، حديث (٣٧٦٥). 136

مسند الإمام أحمد، ٣/٢٧٨، حديث (١٧٥٠). 137

رواه البخاري في الصحيح، ١/٤٢٠، حديث (١١٨٩). 138

مصنف ابن أبي شيبة، ٣/٥٥٠، حديث (٦٦٦٦). 139

مصنف ابن أبي شيبة، ٦/٣٨٠، حديث (٣٢١٩٧). 140

رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٣٦٠، حديث (٣٥٠٦). 141

142 سنن أبي داود، ٣/١٦٤، حديث (٣١٣٤). وصححه الألباني.

143 صحيح مسلم، ٧/١٣٢، حديث (٦٤٢١).

144 سنن أبي داود، ٣/١٦٤، حديث (٣١٣٤). وصححه الألباني.

145 صحيح البخاري، ٣/١٠١٣، حديث (٢٦٠٥).

146 سورة البلد، الآية: ١٦-١١.

147 صحيح مسلم، ٨/٢٢١، حديث (٧٦٦٠).

148 صحيح البخاري، ٥/٢٠٤٧، حديث (٥٠٣٨).

149 صحيح مسلم، ٤/٣٩، حديث (٣٠٠٩).

150 رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٣٠٥).

151 سنن الترمذي، ٥/٥١، حديث (٢٦٨٧). وضعفه الألباني.

الصحابيةُ الجليلةُ

الشِّفاءُ العدويُّة

سنتحدث عن صحابيةٍ ذاتِ شخصيةٍ نسائيةٍ مبدعة..

قد يستغرب بعض القرّاء هذا ويتساءلون: وهل كان في زمن النبي (ص) نساءٌ مبدعات؟!

وربما تجرَّأ البعض وتمادى في سؤاله متهكِّماً: **وهل يمكن أن تكون المرأة مبدعة؟**

لن أجيب عن هذه الأسئلة الآن، بل سأصطحبكم معي في رحلة تاريخية، تأخذنا إلى رحاب سيرة تلك الصحابية الجليلة، وسأترك لكم المجال بعد ذلك، لتحكموا بأنفسكم على صحّة ما أقول..

الفصل الأول من القصة يبدأ بفتح الستار عن صورةٍ لصحابيةٍ شابة، تجلس بين يديّ صحابية أخرى، كما يجلس التلميذ بين يدي معلّمه..

تعالوا بنا نقترب أكثر لتتّضح لنا معالم الصورة..

إنها الشفاء العدوية تُعلِّم تلميذتها الكتابة والقراءة..

أتعلمون من هي تلميذتها؟!

إنها أم المؤمنين حفصةُ بنت عمر بنِ الخطاب، زوجةُ النبي (ص)، تجلس بين يدي الشفاء، تتعلم منها القراءة والكتابة بأمر من زوجها الرسول محمد (ص)..

والحقيقة أن حفصة تتلمذت على يدي الشفاء قبل زواجها بالنبي عليه الصلاة والسلام، فلما تزوجها النبي طلب إلى الشفاء أن تكمل تعليمها..

إذاً، إبداع الشفاء تجلَّى في بداية الأمر في اتخاذها القرار بأن تتعلم ثم تُعلِّم.

قد يحاول البعض الغضّ من شأن هذا الإبداع فيقول: هل في تعلم المرأة للقراءة والكتابة ثم قيامِها بمهنة التعليم إبداع؟؟

ولمثل هذا السائل أقول: عليك أخي السائل أن لا تزن ما حدث منذ خمسة عشر قرناً بموازين عصرنا اليوم، حيث بات تعلم المرأة أمراً بدهياً، تستطيع كل أنثى أن تفعله..

إن الموضوعيّة تقتضي الرجوع إلى الوراء.. إلى ذلك العصر الذي كانت فيه الأمية سائدةً بين العرب رجالاً ونساء، ولم يكن يُحسِن القراءة والكتابة إلا القليل النادر منهم، وهي حقيقة ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم

حين قال:(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)[152]..

إذاً.. بعث الله تعالى في الأمّيين رسولاً منهم.

لن نتجنَّى على الحقيقة إذا قلنا: إن كثيراً من شعراء العرب وفصحائهم وبلغائهم، كانوا أمّيين لا يحسنون القراءة والكتابة..

وعندما تبرز في هذا الجو الأمّي أنثى تقرأ وتكتب، الأمر الذي يفتقده كثير من الرجال فضلاً عن النساء، ثم تقرّر هذه الأنثى أن تحاول محو أمّية مجتمعها، فتبدأ بتعليم غيرها القراءة والكتابة .. نستطيع بكل ثقة أن نسمي سلوكها هذا إبداعاً!

وهل الإبداع سوى أن يقرّر المرء تغيير المألوف، ثم يسلك طريقه الفعلي إلى هذا التغيير؟!

لا نعلم بالضبط متى تعلّمت الشفاء القراءة والكتابة، هل كان هذا في الجاهلية أم بعد إيمانها بالإسلام وسماعها للقرآن الكريم. فالآيات الأُوَل التي نزلت على النبي(ص)، والتي قال فيها الله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)[153]، بيّنت أهمية القراءة بكل أشكالها، وخاصة عندما تلتها آيات أخرى في سور متفرقة، تحثُّ المسلمين على العلم والتعلم، كسورة القلم التي بدأها الله تعالى بقوله: ﴿**ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾[154].. فأقسم بالقلم والكتابة إيذاناً وإعلاماً بأهميتهما في المسيرة الحضارية والتقدمية للبشرية..

أقول: **قد لا يهمنا كثيراً أن نعلم متى تعلّمت الشفاء القراءة والكتابة، ولكن يهمّنا أن نعرف موقف النبي ص) منها ومن علمها..)**

لم يقل النبي الكريم لها: امكثي في بيتك يا امرأة، فذاك خير لك، ولم يُنكِر عليها أن تخرج من بيتها لتُعلِّم غيرها، بل على العكس تماماً، شجَّعها ودفعها لتقوم بدورها في مجتمعها، وعهِد إليها بتعليم زوجته حفصة القراءة والكتابة..

أين هذا مما يفعله اليوم بعض المفتئتين على الإسلام وباسم الإسلام، حين يمنعون المرأة من الخروج من منزلها من أجل تعلُّم العلم أو تعليمه..

بل والأدهش من ذلك أن هناك من يستند إلى حديثٍ ينسبه إلى النبي (ص) يزعم أنه يقول فيه: *لا تُعلِّموا النساء القراءة والكتابة*.

طبعاً هذا ليس حديثاً نبوياً، بل هو حديث موضوع ومكذوب على النبي (ص). وحاشا للنبي (ص) أن يقول هذا، وهو يبلِّغ عن ربه قرآناً، ينبض من كل جوانبه بأهمية العلم والتعلّم والتعليم، وهو الذي دائماً كان يؤكد قائلاً: ***طلب العلم فريضة على كل مسلم***[155]، طبعاً ليس المراد من قوله: *كل مسلم* ذكور المسلمين فقط، بل إن استخدام لفظ المذكر شائع عند العرب من أجل خطاب جماعة الذكور والإناث.

أضحك ألماً حين أسمع من يزعم أنّ منع الإناث من التعلّم ضروريٌ، حتى لا يُتخذَ العلم وسيلة لكتابة الرسائل الغرامية! وكأنّ العلم ليس له وظيفةٌ إلا كتابةَ الرسائل الغرامية!

طلب العلم فريضة على المسلم والمسلمة.. وأكثر من هذا، فهناك علوم ينبغي أن تتخصّص بها النساء، كعلوم الطبّ النسائيّ والقَبالة والتوليد وأمراض الثدي والرحم.. وتعليم الإناث وما شابه ذلك من الأمور، وهذا فرضُ كفايةٍ إن قام به بعضهنّ سقط الإثم عن الجميع، وإن لم يقم به أحدٌ منهنّ أثم الجميع...

سمعتُ عن فئة متشدّدة عجباً عجاباً!

سمعت أنها تحرّم على المرأة الذهاب إلى طبيبة نسائية، وتبيح لها الذهاب إلى طبيبٍ لا إلى طبيبة، لأن الطبيبة حسب قولهم آثمة بسبب تعلّمها، وعندما تذهب إليها المرأة، فإنها تساهم في نجاحها، ومن ثمّ في تشجيعها وتشجيع غيرها من الإناث على ارتكاب هذا الإثم!!

لا أدري كيف يفكّر هؤلاء، في حين اعتبر الإسلام شهادة المرأة وحدها كافية في الأمور التي تخصّ الإناث، كالولادة والبكارة وعيوب النساء!

عندما نعود إلى عصر الصحابة الكرام، نجد أن أول فقيهة ومفتية في الإسلام، كانت السيدةَ عائشة رضي الله عنها... يقول فيها الحاكم: حُمِلَ عنها ربع الشريعة..

وكانت التابعية أم الدرداء الصغرى مفتيةً وفقيهة، وكان لها مجلس علم في الجامع الأموي بدمشقَ، يحضره الخليفة عبد الملك بن مروان، كما كان يحضره رجاء بن حَيَوَة، معلّم الخليفة عمر بن عبد العزيز.

وكان من ضمن شيوخ الحافظ المنذري عشرون شيخة، ومن ضمن شيوخ ابن قيّم الجوزية اثنتا عشرة شيخة، ولم يكن العلماء يرون بأساً في أن يقولوا: حدثتني الشيخة فلانة، وسمعت الشيخة فلانة.

كانت المرأة مفتيةً وفقيهةً ومحدّثة، ولم يجد أحدٌ من العلماء غضاضة في ذلك.

إذاً.. الإسلام يشجع النساء على الإبداع والعطاء، ويفسح لهنّ دوراً في أن يكنَّ رموزاً، يقتدي بهن النساء.. وربما الرجال أيضاً..

أليست صحابية الرسول (ص) الشفاءُ العدوية رمزاً وقدوةً في هذا المجال لنساء المسلمين عبر التاريخ؟!

أليست السيدات عائشة وأم سلمة وحفصة وفاطمة وأسماء وأم سليم ونسيبة وغيرهنّ رضي الله عنهن رموزاً ومناراتِ هدايةٍ؟!

كلمة (رمز) تعني: القدوة الصالحة.. ولا يشترط أن يُحيط (الرمز) علماً بكل شيء، ولا يشترط أن يكون قدوةً في جميع المجالات. فهناك رموز في مجال العلم، وأخرى في مجال الدعوة، وثالثة في مجال الجهاد، ورابعة في مجال القضاء، وخامسة في مجال السياسة..

قد يستغرب البعض هذا الطرح، ويتساءل قائلاً:

إذا كان الإسلام يشجّع المرأة على أن تكون مبدعة ورمزاً، فلماذا لا نجد في التاريخ الإسلامي سوى أقل من القليل من هذه الرموز؟!

في رأيي يعود ذلك إلى **أسبابٍ عديدة متضافرة،** في قمة هذه الأسباب سوء فهم الدين، وإلباس العادات والتقاليد لباس الدين..

نرى اليوم (مع الأسف) من يستبدل بالآيات والأحاديث، التي تحث المسلمين رجالاً ونساءً على العلم والتعليم، بحديث موضوع على لسان النبي (ص) يقول: ***لا تعلموهن القراءة والكتابة***، ونرى من يُعرض عن سنة النبي (ص) الفعلية مع الصحابيات، تلك السنةُ المليئة بكل ما من شأنه أن يفسح لهنّ المجال لاكتشاف مواهبهنّ الطاهرة، وتنميتها وإظهارها على حيِّز الواقع إبداعاً وتطويراً. ونسمع من يقول للنساء بدلاً عن ذلك: لا يجوز لكنّ الخروج من المنزل لأيّ سبب مهما كان شريفاً ونبيلاً ومهماً، فإن قلن له: لماذا؟! استدل بالآية الكريمة: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[156].

هذه الآية من سورة الأحزاب نزلت كما نعلم بخصوص نساء النبي (ص)، اللواتي خصّصهن الله تعالى بالكثير من الأحكام، ولكن البعض يأبَون إلا أن يلبسوها معاني لا تحتملها، ليعمِّمها على جميع النساء المسلمات، رغم أن خصوصية ذلك الحكم بنساء النبي (ص) واضحةٌ في الآية التي تسبقها، والتي يقول فيها ربنا تبارك وتعالى: (**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا**)[157].

أليس هذا افتئاتاً على القرآن الكريم وتحويراً لمراميه ومعانيه؟!

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فمن ضمن الأسباب التي تعيق المرأة عن أن تكون رمزاً مبدعاً، الثقافة المجتمعية الذكورية المضطهِدة للنساء، والتي ترى أن المرأة أقلُّ شأناً من الرجال، وأن مهمتها الأولى والأخيرة تنحصر في إنجاب الأولاد ورعاية الأسرة، وأنها لا طاقة لها بما هو فوق هذا.. ويزيد الطين بِلَّة خضوعُ المرأة لهذه المفاهيم المشوّهة واستسلامُها لها، وعدم استعدادها لأن تبذل أي مجهود لتصحيحها وتغييرها.. إما كسلاً واستسلاماً، وإما جهلاً بالحقيقة.. وإما هذا وذاك معاً!

يمكن لنا أن نشبّه مسيرة النبي (ص) التعليمية مع الصحابيات بخطٍ بيانيٍّ واضح المعالم، بدأت فيه المرأة بالصعود التدريجي منذ عصر النبوّة، وكان من المفترض أن يستمرّ هذا الصعود بعد وفاة النبي (ص)، حتى تصل المرأة إلى أعلى مستويات الحياة.. ولكنّ ما حدث هو أن السير التصاعديّ لهذا الخّط تباطأ قليلاً بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وازداد التباطؤ إلى أن توقف بدءاً من القرن الثاني الهجري، ثم كان التراجع والتقهقر المريع في القرن السادس الهجري وما بعده، حيث وصل إلى أدنى مستوياته حين غُيِّبت المرأة عن حياة المجتمع، فظلّت قرابة خمسة أو ستة قرون رهينة المحبَسين: الجهل والفقر..

ويحاول علماء المسلمين اليوم في أعتاب القرن الواحد والعشرين، أن يزيلوا الصدأ الذي تراكم على هذا الخط البياني، وأن يبدؤوا من جديد بالصعود التدريجيّ نحو القمة، بدل الانحدار أو الجمود والتكاسل والتقاعس..

* * *

نعود إلى الصحابية الجليلة الشفاء العدوية، لنرى صوراً أخرى من حياتها وسيرتها.. ولكن بعد أن نذكر لمحة موجزة عن حياتها..

هي الشفاء بنتُ عبد الله بن عبد شمس القرشيّة العدويّة، يقال إن اسمها ليلى، أما الشفاء فهو لقبها.

أسلمت في مكة هي وزوجها أبو حثمة بن حذيفة، ثم هاجرت إلى المدينة حين أذن الله تعالى بالهجرة..

تبخل علينا كتب التراجم بالكثير من تفاصيل حياة الرموز الذين تترجم لهم، وتكتفي بالخطوط العريضة.. تذكر هذه الكتب أن النبي (ص) كان يزور زوجها، وينام نومة القيلولة في بيتهما، وقد خصّصت الشفاء وزوجها له فراشاً وإزاراً لهذا الغرض، وقد احتفظت الشفاء بذلك الإزار والفراش تبرُّكاً، ولم يزل عند ولدها سليمان بن أبي حثمة، حتى استوهبه إياه مروان بن الحكم..

لعل بعضكم سمع اسم سليمان بن أبي حثمة من قبل.. إنه سليمان بن أبي حثمة الصحابي الحافظ لكتاب الله تعالى، عيَّنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إماماً للنساء في صلاة التراويح في رمضان، يصلي بهنّ في رحاب المسجد النبوي، أما الرجال فكان يتناوب على إمامتهم الصحابيان أُبيّ بن كعب وتميم الداري رضي الله عنهما..

ولما كان عهد عثمان بن عفان جمع النساء والرجال على قارئٍ واحد، هو سليمان بن أبي حثمة..

إذاً.. سليمان هذا هو ابن الشفاء العدوية.. وهذا الشبل من ذاك الأسد.. أو لنقل: من تلك اللبوة المؤمنة.

في حياة الشفاء العدوية صورةٌ أحب أن أسلط عليها الضوء، تتعلق بقضية الرُّقية.

يروى أن الشفاء العدوية كانت تَرقي في الجاهلية من داءٍ يسمّى النّملة، وهو مرض يصيب الإنسان في جنبه بقروح، يشعر معها وكأن نملة تدبُّ على جسده وتعضّه.. فلما جاء الإسلام ونهى النبي (ص) عن الرُّقى، وقال في أوصاف الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم: ***لا يرقون ولا يسترقون، ولا يتطيرّون، وعلى ربهم يتوكلون***[158]*،توقفت الشفاء عن الرقية.. فأصيب أحد الصحابة يوماً بهذا الداء (داء النملة)، فأتى الشفاء يسألها أن تَرقيه، فتمنَّعت وقالت: والله ما رَقيت منذ أسلمتُ.

فذهب الصحابي إلى النبي (ص)، يخبره بتمنع الشفاء، ويستفتيه في جواز الرقية، فدعا النبي (ص) الشفاء، وقال لها: اعرضي عليّ (أي: اذكري أمامي) الرّقى التي ترَقين بها.

فعرضتها الشفاء على النبي (ص) فقال لها: ***ارقيه، وعلِّميها حفصة، كما علمتيها الكتابة***[159]*.

ماذا كان محتوى رُقية الشفاء العدوية؟! ولماذا أقرها النبي (ص) عليها؟! وما هي الرقية أصلاً؟ وما هي الحدود الفاصلة بين الرّقية المحرمة والرّقية الشرعية؟

بدايةً، **الرّقية الشرعية** هي: تعويذُ من يُرقَى بالله العظيم، أي الاستعانة بالله تعالى والالتجاء إليه لحمايته من الشر والمكروه..

وهذه الرقية تكون بأسماء الله تعالى وصفاته وكلامه، ولا يجوز أن يكون فيها استعانة بمن سواه، حتى ولو كان بأسماء الملائكة وصفاتهم..

أما **الرّقية المحرّمة** فهي: الرقية التي تحتوي على أسماء الشياطين وألفاظ الشرك بالله تعالى، وهي التي نهى عنها النبي (ص).

والرّقية الشرعية لا تتنافى مع ما يقدّره الله تعالى، بل هي من قدر الله تعالى، والمؤمن المتفقِّه هو الذي يدفع الأقدار بالأقدار، فيدفع قدر الجوع بتناول الطعام، وقدر العطش بشرب الماء، وقدر المرض بالدواء والرّقية..

سأل ابن أبي خزامة النبي (ص): أرأيت رقىً نسترقيها، ودواءً نتداوى به، وتُقاةً نتقيها، هل تردّ من قدر الله شيئاً؟ فقال (ص): ***هي من قدر الله***[160].

وورد أن النبي (ص) اشتكى يوماً، فجاءه جبريل يَرقيه قائلاً: يا محمد اشتكيتَ؟ فقال: نعم، فقال: ***بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك***[161].

يظن البعض أنّ من شروط الرّقية أن تكون رقىً مأثورة عن النبي(ص)، والصحيح أنه يجوز أن تكون بغير المأثور، وباللغة العامية أو الفصحى، بشرط أن تكون بأسماء الله أو صفاته أو كلامه، أو بالقرآن الكريم. إلا أنه يُفضَّل للمرء أن ينتقي رقىً مأثورة عن النبي (ص)، علّمها لصحابته، ليسترقوا بها من الأمراض والعين والسحر، فيرقي بها نفسه..

ومما أُثِر عن النبي (ص) في رقية المرض، أنه كان (ص) إذا اشتكى نفث[162] على نفسه بالمعوّذات، ومسح عنه بيديه[163].

ومن ذلك أنه (ص) كان يمسح بيمينه على من يشتكي من أصحابه ثم يقول: ***أذهب البأس ربّ الناس، اشفِ أنت الشافي، شفاءً لا يغادر سقماً***[164]. أي: لا يترك سقماً.

أما رقية النملة التي عرضتها الشفاء على النبي (ص)، فأقرَّها عليها، فلم يَرِد نصها في حديثٍ صحيح، وقد أورد ابن القيّم في كتابه (زاد المعاد) روايةً لم يذكر مدى صحتها، نصّ فيها على محتوى هذه الرقية، وهي: بسم الله ضلّت حتى تعود من أفواهها، ولا تضرَّ أحداً، اللهم اكشف البأس رب الناس.

إذاً الرقية الشرعية حال المرض جائزة، ولكن المشكلة هي أن هناك من يستغني بهذه الرّقى عن الذهاب إلى الطبيب وتناول الدواء، والحقيقة أن هذا قصور في الفهم لا يؤيده الشرع الحنيف، فلطالما كان (ص) يؤكد على صحابته قائلاً: ***تداووا عباد الله، فإن الله لم ينْزل داءً، إلا أنزل معه شفاءً إلا الموت والهرم***[165].
وكان ينصح صحابته بالذهاب إلى الحارث بن كلدة، وكان طبيباً يعالج الناس في ذلك الزمان..

فالرّقية الجائزة تكون إلى جانب التداوي، وليست بديلاً عنه..

نستغرب عندما نرى اليوم بعض من يسمُّون أنفسهم بالعلماء، يفتتحون مراكز لمعالجة الأمراض، ويسمّونها عيادات الطب الروحي أو غير ذلك، يكتَفون فيها بتلاوة القرآن والرّقى الشرعية، ويدَّعون أن باستطاعتهم

مساعدة أيّ مريض على الشفاء، سواء كان مرضه عضوياً أم نفسياً أم روحياً، وذلك عن طريق هذه الرقى وحدها دون تناول أي عقاقير دوائية..

وهذا يخالف الشرع من جهةِ إهمال اتخاذ الأسباب، ومن جهةٍ ثانية فإنه لا يُشترَط لصحة الرّقية وسريانها أن يقوم بذلك أشخاصٌ معيّنون، بل يمكن لأيّ شخص مؤمن أن يَرقي نفسه أو يَرقي غيره، وهذا ما كان ص) يعلّمه لأصحابه في الرّقى التي ذكرناها، وقوله للشفاء: ***علّميها حفصة كما علمتيها الكتابة***[166]دليل) على ذلك أيضاً..

ولم نسمع أن أحداً من صحابة رسول الله (ص) افتتح عيادات للاستشفاء بالرّقى والقرآنِ الكريم في حياة النبي أو بعد وفاته..

بقي علينا أن نتحدث عن الشفاء العدوية من خلال الحديث عن حياتها في عهد الخليفة الراشدي (عمر) رضي الله عنه.

لقد أدرك عمر رضي الله عنه ما في شخصية الشفاء من ميّزات فريدة، تؤهّلها لأن تكون رمزاً قيادياً مبدعاً، فولاّها حسبة السوق.

هذا ما ذكره ابن حجر العسقلاني وابن عبد البرّ وابن سعد في طبقاته والمقدسي وابن حزم في ترجمتهم للشفاء العدوية، مؤكدين على أن عمر رضي الله عنه كان يقدّمها في الرأي ويرعاها ويحترمها...

ماذا تعني حُسبة السوق؟

وهل هناك صحابية غير الشفاء تولّت هذا المنصب؟

وهل تصلح المرأة لتولي المناصب السياسية؟

الحُسبة هي: منصب من مناصب الحكم، يتولّى فيه المحتسب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكافَّة الطرق المشروعة.. وهي بلغة اليوم مؤسسات رقابية على الأنشطة، التي تتعلق بمصالح الناس الدينية والدنيوية، للتأكد من أنها تتمّ بموجب الشريعة..

يُذكر أيضاً أن الصحابية سمراء بنت نهُيكٍ الأسدية، كانت أيضاً ممن ولّيت حسبة السوق في مكة، وأنها كانت تمشي في السوق فتؤدّب الناس، وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر..

وعندما نتحدث عن تولية عمر رضي الله عنه للشفاء على حسبة السوق، لتراقب التجار والعمال، وتعاقب وتردع كل من لا يأتمر بالمعروف، ولا ينتهي عن المنكر، فإن هذا يعني أنه كان بيد الشفاء نوعان من السلطة: **سلطة رقابية وسلطة تنفيذية**، وهذه السلطة هي نوع من أنواع الولاية العامة.. وهذا يعني أن المرأة تصلح لأن تتولى مناصب الولاية العامة، إذا كانت تمتلك المؤهّلات اللازمة لتلك المناصب..

بعض العلماء ينكرون جواز تولي المرأة المناصب السياسية بجميع أنواعها، من رئاسة ووزارة وعضوية في المجالس التشريعية أو المحلية، وحجَّتهم في هذا أنها ولاية عامة، وأن المرأة لا تصلح لهذه الولاية

شرعاً.. ويستدلون بقوله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[167]، وبقول النبي (ص): ***لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة***[168].

المتمعّن في السياق الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة، يجد أنها تتحدث عن نوع خاص من الولاية، ينحصر في مجال الأسرة ورعايتها والإنفاق عليها وترتيب الإدارة فيها، وليست آيةً عامة في كل الأحوال والمجالات..

أما قول النبي (ص): ***لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة****[169]، فهو حديث صحيح، ولكنه وارد أيضاً في سياقٍ خاص، يذمّ فيه النبي عليه الصلاة والسلام تنصيب بوران بنت كسرى على العرش بعد وفاة أبيها، رغم أنها لا تمتلك المؤهّلات الكافية لذلك، وفي ظلّ وجود من هو أكفأ منها..

ولذلك فإن هذا الحديث الشريف يتحدّث عن حالةٍ معينةٍ، ولا يُراد منه النهي عن تولية المرأة بشكل عام، وإلا لعارض القرآن الكريم، الذي مدح بلقيس ملكة سبأ في قيادتها الحكيمة لقومها، وأثنى عليها، لأنها كانت سبباً لنجاتهم في الدنيا والآخرة..

وبناءً على هذا **ذهب أغلب العلماء المعاصرين من مجتهدي الأمة الإسلامية**، كالشيخ شلتوت والشيخ المراغي شيخَي الأزهر سابقاً، والشيخ محمد رشيد رضا، والدكتور محمد السباعي، والدكتور القرضاوي، والشيخ الغزالي.. ذهب هؤلاء العلماء إلى **جواز تولّي المرأة للمناصب السياسية بجميع أنواعها على خلافٍ بينهم بخصوص رئاسة الدولة**، وأوّلوا آراء الفقهاء القدامى، الذين يمنعون المرأة من الخلافة والوزارة، بأن هذه المناصب كانت مناصب سياسية ودينية معاً، وكانت إمامة الصلاة وخطبة الجمعة من مهامّ الخليفة أو وزيره، وحيث أن المرأة لا تصلح لإمامة الناس في الصلوات عموماً

وصلاة الجمعة خصوصاً، بسبب ما يعتريها من أحوال معروفة كالحيض والنّفاس، لم يكن من الممكن أن تكون خليفةً أو وزيرة..

وبما أنه قد تمّ اليوم الفصل بين السلطات الدينية والسياسية، فليس هناك مانع شرعيّ، يمنع المرأة من تولي المناصب السياسية..

واستدل هؤلاء المجتهدون لكلامهم بالقاعدة الشرعية المعروفة: لا يُنكر تغيّر الأحكام الاجتهادية بتغيّر الأزمان والبيئات.

والحقيقة أن هناك نساء وصلن إلى سدّة الحكم، يحدثنا عنهن التاريخ القديم والمعاصر، فُقنَ الكثير من الرجال حكمةً وحنكةً وقدرة على اتخاذ المواقف الجريئة والصائبة في الأوقات الصعبة، كشجرة الدر، والسيدة شغب أم الخليفة المقتدر بالله، وميغاواتي سوكارنو في أندونيسيا، وبي نظير بوتو في الباكستان، وخالدة ضياء في باكستان، إضافةً إلى الأسماء النسائية التي نسمع عن قدراتها السياسية كالسيدة مارغريت ناتشر في بريطانيا والسية تانسو شيلر في تركيا والشيخة حسنة في بنغلادش والشيخة موزة في قطر....

يروى أن الشفاء كانت تمشي في أزقّة المدينة يوماً، فرأت قوماً يمشون الهوينى، ويتكلمون رويداً وبصوت منخفض، فقالت: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسّاك.. فقالت: كان عمر رضي الله عنه إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وكان هو الناسك حقاً..

ويحكى أن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، أرسل إلى الشفاء العدوية مرّة، يريد تكريمها بهدية، فلما حضرت وجدت عنده الصحابية عاتكة بنت أسيد، فدعا عمر رضي الله عنه ببساطين، فأعطى عاتكة البساط الأكبر والشفاء البساط الأصغر، فلما ولّت عاتكة من المجلس، عاتبت الشفاء أمير المؤمنين عمر..

وقد أحببت أن أسرد لكم عتابها وجواب أمير المؤمنين على ذلك، لتعرفوا أيّ شخصية قوية كانت تتمتع بها الشفاء، ولتدركوا الدالّة التي كانت تحظى بها في مجلس أمير المؤمنين عمر..

قالت الشفاء معاتبة: ما كان لك ذلك يا أمير المؤمنين، فأنا أماثلها في الإسلام، وأنا بنتُ عمّك دونها، كما أنك أرسلتَ إليَّ، بينما أتت هي من قِبَل نفسها!!

فأجابها عمر معتذراً: ما كنت خبَّأت البساط الأكبر إلا لك، ولكنكما لما اجتمعتما، تذكرت أنها أقرب إلى رسول الله (ص) منك، فأكرمتُها لذلك.

لا شكّ أن جواب عمر رضي الله عنه وأرضاه أقنع الشفاء، وأذهب ما في قلبها من العتَب. فالقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعدلها قرابة أخرى.. لا من عمر بن الخطاب ولا من غيره!

في ختام حديثي عن الشفاء أقول: رضي الله عن الشفاء وأرضاها.. فقد كانت حقاً عَلَماً ورمزاً فيه من العِلم والحنكة والذكاء والجرأة الشيء الكثير..

* * *

بعد هذه الوقفة مع الشفاء، سأنتقل معكم أعزائي القرّاء إلى عالَم صحابية أخرى، لها لونٌ مختلف ومذاقٌ آخر.

إنه عالَمُ الصحابية سمية بنت خيّاط.. وما أدراكم ما سمية!!

ستعرفون ماذا أعني عندما تقرؤون الصفحات التالية.

***

سورة الجمعة، الآية: ٢. 152

سورة العلق، الآية: ٢-١. 153

سورة القلم، الآية: ١. 154

سنن ابن ماجه، ١/٨١، حديث (٢٢٤). وحسّنه الألباني. 155

سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. 156

سورة الأحزاب، الآية: ٣٢. 157

رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم (٥٩٤). 158

المستدرك على الصحيحين، ٤/٦٣، حديث (٦٨٨٨). وصححه الألباني. 159

سنن الترمذي، ٤/٣٩٩، حديث (٢٠٦٥). وحسّنه الألباني. 160

رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم (٥٨٢٩). 161

نفخ. 162

صحيح البخاري، ٥/٢١٦٥، حديث (٥٤٠٣). 163

صحيح مسلم، ٧/١٥، حديث (٥٨٣٦). 164

مسند الإمام أحمد، ٣٠/٣٩٨، حديث (١٨٤٥٥). 165

المستدرك على الصحيحين، ٤/٦٣، حديث (٦٨٨٨). 166

سورة النساء، الآية: ٣٤. 167

صحيح البخاري، ٤/١٦١٠، حديث (٤١٦٣). 168

صحيح البخاري، ٤/١٦١٠، حديث (٤١٦٣). 169

الصحابيةُ الجليلةُ

سميُّة بنتُ خيَّاط

نحن في هذه الصفحات ضيوف الصحابية الجليلة سميّة بنتِ خيّاط.

صحابيتنا هذه لا تملك حسباً ولا نسباً ولا جمالاً، وليس لها في قريش مكانةٌ أو جاه..

هي باختصار: أمَة مملوكة، عاشت وماتت، وهي ترزح تحت نير العبودية البغيض.

ولسائل هنا أن يسأل: لماذا إذاً سنطوف في رحابها؟!

وماذا سننهل من أمَة ضعيفة، عاشت عبدة، وماتت عبدة؟!

وهنا أقول: هذه العبدة الضعيفة تحدّت بقوة إيمانها أسيادها من بني مخزوم، وتحدّت أبا جهل، أعتى رؤوس الكفر يومذاك، فطعنها بحربة أزهقت روحها، فكانت أول شهيدة في الإسلام!

شهد النبي (ص) لهذه العبدة الضعيفة بأنها من أهل الجنة، فأية عظمة تحملها سيرتُها؟ وهل هناك أعظم من أن يتحوّل العبد الضعيف إلى مدرسة في الصمود والإباء والتحدي؟!

بعضكم في شوق لمعرفة المزيد عنها.

إنها سميّة بنت خيّاط..

عندما يذكر الكثيرون هذا الاسم، يذكرونه بإكبارٍ وشفقة...

مصدر إكبارهم هو: القوة والثبات التي بثّها الإسلام في نفسها، فحرّرها من الانقياد والخضوع إلا لله تعالى وللحق الذي أمر به.. وسما بها إلى مرتبة تفوق مراتب الأغنياء والأسياد.. مرتبة ليس فيها إلا التقوى معياراً للتفاضل..

لم يكن العبيد والإماء والمساكين والفقراء يشعرون بالكرامة قبل مجيء الإسلام، ولم يكونوا يُعاملون بالعدالة والرحمة، بل كان يُنظَر إليهم باشمئزاز واحتقار، ويعامَلون بظلم واضطهاد..

وعندما هلَّت على جزيرة العرب رياحُ الخير مع مجيء محمد (ص)، وشمّ هؤلاء المستضعفون من دينه الجديد رائحة العدل والكرامة، سارعوا إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.. وحملوا لواء الإسلام وفدَوه بأرواحهم.

ولم يخب ظن أولئك المستضعفين بالدين الذي آمنوا به، فلقد طبّق المسلمون تعاليم دينهم على الغني والفقير، على القوي والضعيف.. وحين سرقت المرأةُ المخزومية، وتوسَّط أسامة بن زيد حِبُّ النبي (ص) ليشفع لها

عنده، أغضب النبي (ص) أن يشفع أسامةُ في حدٍّ من حدود الله، وقال له: ***إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ. وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا***[170].

والحقيقة أن ما منحه الإسلام لهؤلاء المستضعفين منذ خمسة عشر قرناً من الزمان، بتنا نسمع في القرن العشرين والواحد والعشرين، ما يشابهه في هيئة الأمم المتحدة، التي سطّرت في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مواد عديدة، تبيّن فيها حرّية الإنسان، وتؤطّر حقوقه، وتؤكد على أهمية المساواة بين الناس جميعهم، دون تمييز بينهم بسبب عرقٍ أو لونٍ أو دين...

أقول هنا: هذا الكلام يشبه ما جاء به الإسلام، مع وضع علامات استفهام كثيرة وخطوط حمراء عريضة..

ولله درُّ الشاعر حين قال:

وإذا الفِعال مع المقال وزنته

رجح الفعال وخفّ كل مقال

فعندما وضع الإسلام هذه القواعد، طبّقها على أرض الواقع بأمانة ووضوح وشفافية.. ولم يكن في الإسلام وجهان ومعياران ومكيالان، فالناس عنده سواسية كأسنان المشط، لا فرق بَن عربي ولا أعجمي، ولا بين سيد وخادم إلا بالتقوى...

أما اليوم .. فإن هذه المساواة حبرٌ على ورق، أو لنقل: هي خدعة تتحكم فيها مصالح الدول الكبرى ومطامعهم، وتلوِّنها رغباتُهم وشهواتهم.

وإلا: تحت ماذا يُصنَّف ما يجري في العراق وفلسطين وأفغانستان؟!

أليس هذا تلوُّنا وتلاعباً بالمعايير والموازين والمكاييل؟!

حقاً صدق الشاعر حين قال:

قَتلُ امرئٍ في غابة

جريمةٌ لا تُغتفر

وذبحُ شعبٍ آمنٍ

مسألةٌ فيها نظر!

إذاً.. عندما تُذكَر سمية، يشعر الكثيرون بالإكبار، ويشوب هذا الإكبار شيءٌ من الحزن والألم والشفقة.. لماذا يا تُرى؟!

أقول: لأن اسم سمية وياسر وبلال وصهيب وخبّاب وغير هؤلاء، يُعيد إلى أذهاننا ألوان الاضطهاد وصنوف العذاب، التي صبَّتها قريش عليهم وعلى أمثالهم، لأنهم آمنوا بالإسلام وبنبيّ الإسلام..

سنبقى هنا مع سمية، وسنُقلِّب بعض صفحات حياة تلك البطلة..

كانت البداية مع ياسر بن عامر، وهو رجل يمنيّ، قدم إلى مكة ليبحث عن أخٍ له فقده منذ سنوات، فطاب له العيش في مكة فاستقرَّ فيها.

لم يكن من الممكن لشخصٍ غريب عن مكة أن يعيش فيها دون أن يدخل في جوار أحدٍ من ساداتها، ليحميه ويرعاه، فدخل في جوارٍ رجل يسمى بأبي حذيفة بن المغيرة، وزوجَّه أبو حذيفة هذا أمةً له تدعى سمية بنت خياط، فولَدت له عماراً وعبد الله والحريث الذي مات قبل البعثة.

أخلص ياسر وعائلته لأبي حذيفة، وأحبهم أبو حذيفة، وأعتق ولدهم عماراً بن ياسر..

بعد موت أبي حذيفة، انتقلت سمية وولدُها عبد الله إلى وَرَثته من بني مخزوم، ولم تجد فيهم رجلاً كأبي حذيفة في لطفه وطِيب معاملته، بل لقيت من سوء معاملتهم ما كان متوقَّعا صدوره من الأسياد المتكبّرين المتعجرفين...

في مكة سمع عمار بن ياسر عن محمد بن عبد الله وعن دينه الجديد.. فأعجبه ذلك الدين، الذي يسوِّي بين كل الناس في الإنسانية والكرامة والعدالة، فتسلّل خفية حتى دخل دار الأرقم، وهناك أعلن إسلامه، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وعاد إلى بيته فرحاً مستبشراً..

سألته أمه سمية: مالي أراك مسروراً يا عمار؟!

شرح عمّار لأمه ما عرفه عن الإسلام، وتلا عليها قول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[171].

قفزت سمية من مجلسها، واستبشرت بانبلاج صباح العدالة والكرامة والخلاص من لظى العبودية..

دمعت عيناها وهي تتذكر صورة أسيادها، ورنّت في أذنها كلماتهم القاسية وأوامرهم الفظّة.. واسترجعت بمخيّلتها أحدهم وهو يلقي إليها بفتات الخبز وبقايا ما في قصعته من طعام..

تذكرت الليالي التي قضتها وهي تبكي، وتدعو بالفرج القريب.. ولعله جاء الفرج القريب!

صاحت بلوعة: خذني إليه يا عمار.. خذني إلى رسول الله..

استقبل النبيُّ (ص) سمية وابنها بالحفاوة والتكريم.. لقَّنها كلمة التوحيد، وسمعها وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

خرجت من مجلس الرسول منشرحة الصدر، وسكن قلبَها شعورٌ بالقوة والأمن.. شعور بالعزّة لم تذق طعمه من قبل..

استغرب سيدها الانقلاب المفاجئ الذي اعتراها.. لم تعد سمية تلك العبدةُ الضعيفة، التي تطأطئ رأسها خوفاً من جبروته، ولم تعد تبكي بصمت عندما يشتمها.. بات يقلقه ذلك البريق المضيء، الذي يلمع في عينيها.. شعر به كأنه أسهم من نار تطير نحوه..

طبعاً لم يكن يعرف أنها أسلمت..

مضت سنةٌ تقريباً على إسلام سمية وزوجها ياسر وولديها عمار وعبد الله، واستطاعوا خلال تلك السنة أن يخفوا إسلامهم.. ولكن.. إلى متى؟!

لا يمكن إلا أن يتنفَّس الصبح بعد العسعسة.. وصدق الشاعر حيث قال:

للحبّ رائحة وليس بوسعها

أن لا تفوحَ مزارع الدرّاق

وعندما قال الله تعالى لرسوله الكريم:(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)[172]، أظهرت سمية إسلامها، ولم تعبأ بقريشٍ ولا بجبروتها..

دعونا نتصوَّر هذا المشهد:

نبي الله (ص) صدع بما يؤمر، وجاهر بدعوته أمام أهل مكة كلِّهم.. وتبعه في ذلك أشخاص معظمهم من الضعفاء، أي من العبيد والفقراء والموالي الغرباء عن مكة! أشخاص لم يكن لهم نسَب يشفع لهم، أو قوة تحميهم.. منهم: سمية بنت خياط، وزوجها ياسر، وابنهما عمار، وصهيب الرومي، وبلال بن رباح، وخبّاب بن الأرت وخُبيب بن عديّ..

فماذا كان حال هؤلاء؟!

غضب زعماء الجهل والكفر من هذا الدين، الذي يعيب دينهم، ويحطُّ من شأن آلهتهم، واشتدّ غضبهم حين وجدوا من كان فيهم مستضعفاً، لا يملك من أمره شيئاً، يشتدّ عوده بالإسلام، ليقف أمامهم وقفة القوي الصامد..

عليهم إذاً أن يتداركوا الأمر، قبل أن يُفسد عليهم محمد عبيدهم وضعفاءهم..

كانت سمية من ضمن قافلة العبيد والضعفاء المتألِّبين على طغيان الأسياد، فأثار هذا شراسة بني مخزوم:

أسميُّة التي لا تملك حولاً ولا قوة، تريد التحدي وتقوى على الصمود؟ سنرى وسترى!

سنجعلها عبرة لمن يعتبر!

هكذا قالوا.

صاروا يخرجونها إلى رمال مكة وقت اشتداد الحرّ والشمس.. حين تغلي الرمالُ كلهب النار.. ويبدؤون في صبّ صنوف الأذى والاضطهاد عليها وعلى زوجها ياسر وابنهما عمار: جلد بالسياط.. تحريق بالنيران.. تعريةٌ وجرٌّ على الرمال، تجويع وتعطيش، تغريق بالماء..

كانوا يتلذّذون بمناظر جروحهم ودمائهم، ويستعذبون أصوات آهاتهم وآلامهم.. وكانوا يتناوبون على تعذيب هؤلاء الضعاف.. كلما تعب جلاّد تولّى الضرب غيره، وغيره كثير، فقد نصب بنو مخزوم خِباءً، ليستريحوا فيه من أجساد المعذَّبين، التي تتلقى الضرب دون خوَران ولا خوف أو تراجع..

تعالوا بنا إخوتي لنرى هذه الصورة من العذاب..

ها هي سمية والأغلال في يديها وقدميها، وأحد رجال بني مخزوم يهوي بالسّوط على جسدها النحيل الواهي، فيأكل السّوط بعض لحمها، ويشرب شيئاً من دمها..

بعد أن ضربها وضربها وضربها، رمى السّوط من يده، وهو يعضُّ على شفته غيظاً وحنقاً، والعرقُ يكسوه من رأسه إلى قدميه..

نظر إليها بحقدٍ واستغرابٍ: ما تزال على حالها.. تنظر إلى السماء بطمأنينة، وقد افترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ عجيبة.. رغم الآلام والجراح والدماء المتساقطة.

كان قلبه يخفق بشدة وقد هدّه العطش والتعب..

لم يستطع عقله المصدوم أن يفسر ما يجري..

كيف تملك هذه الأمة الحقيرةُ كلّ تلك القوة رغم ضعفها وهوانها؟ ولماذا يشعر بالخوف من نظراتها إليه؟!

أليس هو السيد؟!

أليس هو من يمسك السّوط ويَضرب ويُعذِّب؟!

لماذا يخاف إذاً؟!

عاد الهوينى إلى أصحابه، وسلَّم السّوط إلى رجل آخر، ليكمل المهمة..

لم يعد أولئك الجلادون يريدون من سمية سوى أن تكفر بمحمد ودينه ولو بلسانها، وعندها سوف يطلقون سراحها، ليتخلّصوا من الآلام والعذاب، الذي كان يضنيهم أكثر مما يضنيها!

كانوا ينظرون إلى شفتيها المرتجفتين، وينتظرون أن تنطق بكلمة تريحها وتريحهم، ولكن.. تمر الأيام والأيام، وتبقى سمية واقفةً رغمَ سياطهم مطمئنّة الجنان ثابتة الفؤاد.. وتبقى الخيبةُ نصيب العُتاةِ القساةِ غلاظِ الأكباد!

كانوا يشعرون بالهزيمة أمام تلك العبدة الضعيفة.. وأمام زوجها ياسر، ولديها عبد الله وعمار اليافعين الفتيّين، اللذين يخضعان مثل أبيهما وأمهما لجميع أنواع العذاب..

كان النبي (ص) يمرّ على آل ياسر، وهم يُعذَّبون، فيدعو لهم بالفرج القريب..

ذات يوم ناداه عمار بن ياسر، والألم ينبع من لهجته المتضرعة: يا رسول الله.. قد بلغ منا الأذى كل مَبلَغ!!

دمعت عينا الرسول (ص) لمرآهم، وقال لهم بصوته الشفيق الرقيق: ***صبراً يا آل ياسر.. فإن موعدكم الجنة***[173].

نسي الجميع آلامهم بتلك البشارة.. وشعروا بشلالات الأمن والطمأنينة والثبات، تتدفق إلى قلوبهم، وهم يسمعون النبي (ص) يدعو قائلاً: ***اللهم لا تعذِّب أحداً من آل ياسر بالنار***[174].

ولكن.. ذات يوم بكت سمية تحت ضربات السياط على غير عادتها!

لم يصدّق من كان يضربها أنها تبكي..

هذه أول مرة يرى فيها دموعها المنهمرة!

لشدَّ ما كان يغيظه أن يراها تبتلع تلك الدموع مع آلامها، وهي تنظر إليه نظرة تحدٍّ ومقاومة.

إذاً استسلمت سمية!! هكذا قال وتخيّل.

بكت سمّية تحت العذاب لأول مرّة، وظن سيدها أنها تبكي ألماً أو انهياراً، فاقترب منها، وصاح بها بغلظة: أيتها العبدة الحقيرة.. أسمعينا! هيا اشتمي محمداً ودين محمد!

لم تجبه سمية بشيء، لأنها لم تسمعه أصلاً، فقد كانت عيناها تنظران تجاه ابنها عمار..

كان عمار يصرخ من شدة الألم، بعد أن تفنّن معذّبوه في تعذيبه بالحرق، بالجلد، بالجرّ على الرمال الملتهبة.. وهوصامد لا يلين!

أخيراً أحضروا دلواً كبيراً مملوءاً بالماء، وغمسوا فيه رأسه ليخنقوه.. ثم رفعوه قبل الموت بقليل، وقالوا له: سُبَّ محمداً، وقل في اللاّت والعزّى خيراً..

أبى عمار، فكرّر الجلادون خنقه مرات ومرات.. ولم يعد عمار يستطيع الصمود، فقد كان ما يفعلونه أقسى من الموت..

لم تصدّق سمية ما سمعته أذناها: عمار ابنها يسبّ النبي، ويمتدح اللات والعزّى!

صاحت بلوعة: عمار.. إياك والكفر يا عمار.. إياك.. إياك..

فكّ المشركون قيود عمار وأطلقوا سراحه، فأطلق لساقيه العنان، وهو يبكي بحرقةٍ وألم..

ركض إلى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.. واعترف بين يديه أنه تلفظ بكلمات الكفر..

نظر إليه النبي (ص) مبتسماً وسأله: كيف تجد قلبك يا عمار؟

فأجابه: مطمئناً بالإيمان يا رسول الله.

فمسح النبي (ص) عينيه بيديه الشريفتين وقال: إن عادوا لك، فعد لهم بما قلت.

شاع خبر عمار بين المسلمين، وتداول الناس أمره، فقال بعضهم: ويح عمار لقد كفر!

فسمع النبي (ص) ذلك فقال: ***كلا، إن عماراً مُليء إيماناً من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه، وقد اختلط الإيمان بلحمه***[175]، ونزل وحي السماء ليؤكّد صدق إيمان عمار، وذلك في قوله تعالى:(مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[176].

ورغم أن هذه الآية أباحت للمضطهدين، أن يتلفّظوا بالكفر اتّقاء لشرّ الكفار، إلا أن كثيراً منهم اختاروا الثواب الأكبر، فثبتوا ولو كان في ثباتهم تألّم أجسادهم أو إزهاق أرواحهم.. إذ لابد من الصبر لبلوغ الفرج..

وكانوا يجدون عزاءهم في آيات قرآنية، كانت تنزل على النبي(ص)، فتمدّهم بالقوة، وتشحذ هممهم بالصبر..

الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ (الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)[177]، ويقول: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﷺ).[178]

كانت سمية من الذين اختاروا الثبات رغم العذاب، وكذلك **زوجها ياسر**، فقد كان يُعذَّب وهو يقول: الله ربي..الله ربي.

وكان **بلال بن رباح** يعرّى من ثيابه، وتوضع على بطنه صخرة ،ثم يجرّ على الرمال، فيتساقط لحمه وهو يصيح: أحد أحد.. أحد أحد.

وكان خبّاب بن الأرتّ عبداً لأم أنمار، وكانت تأخذ الحديد المحمّى بالنار، فتضعه فوق رأسه، فيتلّوى من الألم ويصرخ، ولكنه يظل على إيمانه ثابتاً كالجبال.. فيمرّ به النبي (ص) ويقول: ***اللهم انصر خبّاب.. اللهم انصر خبّاب****[179].

وهناك زِنّيرة، وهي عبدة رومية عميت من التعذيب في سبيل الله. قال لها سيدها مستهزئاً: لقد أصابتك اللاّت والعزّى بالعمى يا زنيرة.

فأجابته بقوة وصلابة: وهل يدري اللات والعزّى من يعبدهما؟ هذا من الله، وإن يشأ يكشفه الله عني..

وغير بعيد عن سمية وزنيرة، كانت حمَامة، والدة بلال بن رباح، والنهديّة، وغيرُها وغيرها.. ينالهنّ العذابُ الشديد، فلا يزيدُهنّ إلا إيماناً وثباتاً.

كلما شعرت سمية بشيء من الضعف، تذكرت خبَّابا بن الأرتّ، حين شكا إلى النبي (ص) ما يفعله بهم المشركون وقال له: ألا تدعو الله لنا يا رسول الله؟

فأحسّ النبي (ص) بشيء من الضعف والهزيمة في كلامه، فقال له: ***كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدّه ذلك عن دينه. والله لَيَتِمنَّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون***[180].

تتذكر سمية هذا، فتدمع عيناها وتردد في سرها: إذاً.. علي أن أصبر وأستسلم لأمر الله، وأن أدفع ثمن انتصار الحق..

قد لا تشهد سمية النصر في حياتها، لكنّ المسلمين سيشهدونه يوماً ما بإذن الله، فتكون هي واحدة، ممّن مهّدوا الطريق لقدوم نصر الله والفتح..

في غمرة العذاب كان يداعبها شوق إلى الجنة.. فمتى تنال المنى؟! وعلى يد من ستنال الشهادة؟!

كتب الله لها ذلك على يد أبي جهل، الذي لم يصدّق أن تجابهه أمةٌ، يراها ضعيفة حقيرة، فثارت ثائرته.. وقذفها بحربة أصابتها في أسفل بطنها.. فاستشهدت، وكانت أولَ من استشهد من المسلمين.. رجالِهم ونسائِهم.

بعد مدة ليست بالطويلة، لحق ياسرٌ وولده عبدُ الله بسُمَيَّة إلى جنات عرضها السماوات والأرض. كانت روحه تحشرج تحت ضربات السياط، وابتسامةٌ عريضة تجلّل وجهه، فقد كانت ترنّ في أذنيه كلمات النبي ص): *صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة*.)

وباستشهاد ياسر تنتهي رحلة عذاب هذه العائلة المجاهدة الصابرة..

قبل أن نسدل الستار على السيرة العظيمة لسميّة وأسرتها، أحب أن أعقد مقارنة بين ما كان عليه هؤلاء المستضعفون من قوة في الإيمان وصبر على العذاب في سبيل الله.. وبين ما عليه أغلب المسلمين اليوم..

معظم المسلمين اليوم يعيشون في أمان، ويتمكّنون من أداء شعائر دينهم بحرية تامة، ومع ذلك لا يكلف أحدهم نفسه عناء الصبر على شيء! فلا يصبر على الطاعات، ولا يصبر عن المعاصي والمنكرات!

لا يستطيع ضبط عيينه، ولا ضبط لسانه، ولا ضبط يدِيه ورجليه وذهنه وخياله، ثم بعد هذا كلِّه يرجو الجنة وثوابها، ويطمع أن يكون ممن قال فيهم الله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [181].

ولهؤلاء المقصّرين المتكاسلين يقول الشاعر:

تضع الذنوب على الذنوب وترتجي

درجَ الجنانِ وطيبَ عيشِ العابد

ونسيتَ أن الله أخرج آدماً

منها إلى الدنيا بذنبٍ واحد

أين نحن من سمية وعائلتها، الذين دفعوا أرواحهم ثمناً للثبات على الإيمان، ولاقَوا العذاب الرهيب، فصبروا وصمدوا وضحَّوا، فاستحقوا رضوان الله وجنته؟!

أين صبرنا نحن؟!

قد يسأل البعض: **ما وجه الشبه بين صبر المستضعفين على الأذى، وبين الصبر على فعل الطاعات وترك المنكرات؟**

أقول: وجه الشبه يتجلى في أن الصبر من حيث المبدأ هو: حبس النفس على المكروه، وهذا ينطبق على عدّة أمور، كالصبر عند المصيبة، والصبر على الأذى في سبيل الله، والصبر على الجهاد، وكذلك الصبر على فعل الطاعات وترك المنكرات، لأنه جهاد للنفس الأمّارة وللأهواء المسيطرة، وهذا في الحقيقة صبرٌ وأيّ صبر!!

وعندما نتمعّن في سورة العنكبوت، وهي سورة مكية، أي أنها نزلت قبل أن يفرض الجهاد، نرى كلمة الجهاد تتكرر في السورة عدة مرات، منها قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[182]،وقوله: ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[183].

والجهاد المقصود في تلك الآيات، هو جهاد النفس والأهواء والشيطان، وجهاد الصبر على الأذى والاضطهاد، وجهاد الصبر على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، ويؤكد هذا المرادَ قولُه تعالى في مستهل السورة نفسها: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾[184].

وهذا ما أكده النبي (ص) بقوله: ***المجاهد من جاهد نفسه في الله***[185].

قد يقول البعض: **ولكن أين نحن من عصر الرسالة؟! الصحابة ثبتوا وصبروا على الأذى، ولكن كان معهم رسول الله (ص)، وفي هذا دعم لهم وأيّ دعم؟!**

أقول: هذا صحيح، ولكنّ هذا لا يبرّر أن يضعف أحدُنا أمام وساوس الشيطان. فالنبي (ص) يقول: ***تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما إن تمسكتم بهما، كتاب الله وسنّتي***[186]،ومادام هدي الله ونبيّه بين أظهرنا، فليس هناك مبرر للتهاون.

ومع هذا أبثّ إلى إخوتي القرّاء ما يثلج قلوبهم، فأقول:

لقد بشّر النبي (ص) المسلمين، الذين آمنوا به، وتبعوا هديه ولم يروه بمكانةٍ تسبق مكانة الصحابة، الذين عاصروه وعايشوه وسمعوا منه الهدى والخير..

فلقد قال لأصحابه ذات يوم: ***وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ إِخْوَانِي***، فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ (ص): أَوَلَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: ***أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْنِي***[187].

وبدهي أن مرتبة الأخ أعلى من مرتبة الصاحب.

وهناك بشرى ثانية.

سأل (ص) صحابته مرّة: ***أيّ الخلق أعجبُ إيمانا؟*** قالوا: الملائكة، قال: **وكيف لا يؤمنون؟** قالوا: النبّيون. قال: **النبّيون يُحى إليهم فكيف لا يؤمنون؟** قالوا: الصحابة. قال: ***الصحابة مع الأنبياء، فكيف لا يؤمنون؟ ولكن، أعجب الناس إيماناً قوم يجيئون من بعدكم، فيجدون كتاباً من الوحي فيؤمنون به ويتّبعونه، فهم أعجب الخلق إيماناً***[188].وفي رواية: ***ولكنّ أعجب الناس إيماناً قومٌ يجيئون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني، ويصدّقونني ولم يروني، أولئك إخواني*.**[189]

ألا تحبون أيها الإخوة أن تكونوا من إخوان النبي (ص)، الذين ودّ أن يراهم، ومن أعجب الخلق إيماناً؟!

الطريق إلى هذا واضحة بيّنة، ولكنها ليست سهلة. فقد قال (ص): ***حُفَّت الجنّة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات***[190]، وطريق الجنة صعب بربوة، وطريق النار سهل بكبوة..

أعاذنا الله من النار، وما يوصل إليها من قول وعمل، وسهّل لنا طريق الجنة، وما يوصل إليها من قول وعمل.

بهذا قرائي الكرام أختم قصة هذه الصحابية الجليلة، التي عشنا فيها أجواءَ جهادٍ وصبر السيدة سمية بنت خياط...

* * *

سأنتقل من هذه المجاهدة العظيمة إلى مجاهدةٍ عظيمة أخرى.

سأحدثكم عن السيدة نسيبة المازنية.. نسيبة بنت كعب..

جهادٌ كبيرٌ من لون مختلفٍ عن لونِ جهادِ سمية.

أيُّ لونٍ هو لون جهاد نسيبة؟!

سنعرف هذا عندما نقرأ سيرة حياتها في الصفحات التالية.

***

متفق عليه: صحيح البخاري، ٣/١٣٦٦، حديث (٣٥٢٦). صحيح مسلم، ٥/١١٤، حديث (٤٥٠٥). 170

سورة الحجرات، الآية: ١٣. 171

سورة الحجر، الآية: ٩٤. 172

رواه الحاكم في المستدرك، ٣/٤٣٢، حديث (٥٦٤٦). وصححه الألباني. 173

الروض الأنف، ٢/٨٦. 174

أسباب النّزول للواحدي، ١/١٩٠ . 175

سورة النحل، الآية: ١٠٦. 176

سورة العنكبوت، الآية: ٢-١. 177

سورة البقرة، الآية: ٢١٤. 178

أسد الغابة، ابن الأثير، باب خباب بن الأرت، ١/٣١٥. 179

رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٣٢٢، حديث (٣٤١٦). 180

سورة القيامة، الآية: ٢٣-٢٢. 181

سورة العنكبوت، الآية: ٦٩. 182

سورة العنكبوت، الآية: ٦. 183

سورة العنكبوت، الآية: ٢-١. 184

رواه الترمذي في السنن، ٤/١٦٥، حديث (١٦٢١). وصححه الألباني. 185

رواه الحاكم في المستدرك، ١/١٧٢، حديث (٣١٩). وصححه الألباني. 186

مسند الإمام أحمد، ٢٠/٣٧، حديث (١٢٥٧٩). وحسّنه الألباني. 187

مجمع الزوائد للهيثمي، حديث رقم (١٦٦٩١). وصححه الألباني. 188

مجمع الزوائد للهيثمي، حديث رقم (١٤١٠٤). 189

رواه مسلم في الصحيح، ٨/١٤٢، حديث (٧٣٠٨). 190

الصحابيةُ الجليلةُ

نُسَيبةُ بنتُ كعبٍ

نسيبة بنتُ كعبٍ أيّها القرّاء الكرام أنصاريُّة ذاتُ شخصيّة مميّزة متألّقة..

يكمنُ سرُّ تميُّزها وتألقها في شجاعتها وجرأتها..

صحابية من أهل المدينة المنورة، أي من الأنصار الذين آوَوا النبي (ص) وأيّدوه، وفدوه بأنفسهم وأبنائهم وأموالهم، وكانوا خير نموذج للأتباع المؤمنين حقاً وصدقاً.

صحابية من الأنصار الذين بادل النبي (ص) حبّهم وتضحياتهم بالحبّ والاعتراف بالجميل، فقال: *لَوْ أَنَّ الأَنْصَارَ سَلَكُوا وَادِيًا أَوْ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ فِى وَادِى الأَنْصَارِ، وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ*[191].

وفي رواية: ***اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار***[192].

إنها أمّ عُمَارة الأنصارية، نُسيبة بنت كعبٍ المازنيّة النجاريّة.

سأبدأ حديثي عنها من بيعة العقبة الثانية، حيث كانت ترافق وفداً من قومها الأوس والخزرج لمبايعة النبي ص)، وكان الوفد يسير مع قافلة من أهل يثرب المشركين لزيارة مكة من أجل الحج.)

وكانت هذه البيعة بعد سنة من بيعة العقبة الأولى، التي بايع فيها النبيَّ اثنا عشر رجلاً من سكان يثرب، وأرسل معهم النبي (ص) مصعب بن عمير رضي الله عنه، ليقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام، ويفقههم في الدين..

في يثرب دعا مصعبُ إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فأسلم على يده كثيرٌ من أهلها، منهم نسيبة بنت كعب، وزوجها زيد بن عاصم، وابناها حبيب وعبد الله.. وأبقوا إسلامهم طي الكتمان.

اصطحب مصعب معه إلى مكة ثلاثة وسبعين رجلاً من الذين أسلموا على يديه لمبايعة النبي (ص)، وكانت نسيبة وزوجها زيد من أفراد تلك الرحلة الميمونة.. **ولم يكن في الوفد من النساء سوى نسيبة وأمُّ مُنيعٍ أسماءُ بنت عمروٍ بن عدي رضي الله عنهما.**

طبعاً لم تكن الطريق من يثرب إلى مكة سهلةً ميسَّرة كما هي الآن، ومع هذا لم يشعر ذلك الوفد بوعورتها ولا بمشقَّتها، فقلوبهم وعقولهم وأرواحهم وأجسادهم تستبق الخطا للقاء الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام..

اقتربت أم عُمارة من زوجها زيد، وهي تتلفّت هنا وهناك خشية أن يسمعها أحدٌ من مشركي قومها ، فيبلّغ قريشاً بخطّتهم.. ثم همست في أذنه:

أرجو أن يتمّم الله علينا فضله، فنبايع النبي (ص) دون أن ينكشف أمرنا. -

تمتم أبو عبد الله بصوت خفيض: أرجو الله .. أرجو الله..

تابعت نسيبة، وهي تحدِّق ببصرها صوب مكة: لقد نفد صبري يا أبا عبد الله .. وبلغ الشوق المدى..

ردد بصوت متهدّج: وأنا كذلك يا أمّ عُمارة .. ولكن لابد من الصبر..

سرحت أمّ عُمارة بخيالها صوب مكة، وراحت روحها تحلّق في فضائها تبحث عن طيف الرسول الحبيب، علّها تخفف بذلك حدّة الشوق التي برّحت بها، فحرمتها لذة السهاد والراحة، منذ أن شدّت رحالها مع القافلة..

كان صوت الحادي الشجيّ يصل إلى أذنيها، دون أن يجد له منفذاً إلى روحها المشتاقة وقلبها العاشق وعقلها المشغول، فيرتدّ على نفسه تائهاً صداه في الآفاق..

بعد مسيرة مضنية لاحت مكة، ورنّت في الأجواء أصداء التلبية المحرّفة، التي كان المشركون يحفظونها ويردّدونها، ويزعمون أنها تلبية إبراهيمية، مع أنها لا تمتّ إلى توحيد إبراهيم عليه السلام بصلة..

كانوا يقولون: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملك..

كادت نسيبة تثور على أولئك الملبّين، لتبيّن لهم زيف ما هم عليه من الوثنية والشرك، لولا أنها وقومها المسلمين اتفقوا مع مصعب على أن يخفوا إسلامهم حتى يلاقوا رسول الله (ص) في مكة، وهناك سوف يُعلمهم النبي بما سيفعلونه..

في الموعد المحدّد للقاء، وبعد أن مضى ثلث الليل، تسلّل الأنصار إلى شِعبٍ عند العقبة في منى، ولما اكتمل جمعهم، قدم عليهم النبي (ص) وبصحبته عمه العباس، وهو يومئذ على دين قومه، ولكنه أحب أن يستوثق من أمر الأنصار مع ابن أخيه محمد.

تكلّم العباس فقال: يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه (أي: من المشركين)، فهو في عزّ في قومه ومَنَعةٍ في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم. وإن كنتم ترون أنكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فدعوه من الآن، فإنه في عزّ ومنعةٍ في قومه وبلده..

لما انتهى العباس من كلامه، **قال القوم: قد سمعنا يا رسول الله، فخذ منّا لنفسك وربك ما أحببت..**

نعم.. هكذا قالوها وهم على قلب رجل واحد، وكيف لهم أن تختلف قلوبهم وأقوالهم، وقد اجتمعوا على الإيمان بدين الله عن قناعة، وعشقت قلوبهم وأرواحهم رسول الله حتى قبل أن يروه، فبات أحبَّ إليهم من أولادهم وأموالهم وأنفسهم؟!

سُرّ النبي (ص) من جوابهم، وبسط يده فصافحهم وصافحوه، وبايعوه على أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأطفالهم.. ومدّت أم عمارة يدها تريد أن تبايع، ولكن.. ولكن.. ماذا..؟

قال النبي (ص): ***إني لا أصافح النساء***[193].

ظنت أم عمارة أن النبي لا يريد أن يبايعها لأنها امرأة، وربما راودتها أفكار سوداوية ..

لسنا ندري.. فقد كانت تسمع مصعب بن عمير، وهو يحدثهم عن احترام الإسلام للنساء، لكنها الآن تتساءل: أين الاحترام إن كانت محرومة من المبايعة لأنها امرأة؟!

لحظات فقط، اكتشفت بعدها أنها مخطئة، فها هو النبي (ص) يبايعها ويبايع رفيقتها أم منيع، لكنه لم يصافحهما...

بايعهما كما بايع الرجال تماماً: على أن تحمياه مما تحميان منه أنفسَهما وأطفالهما.

اغرورقت عينا نسيبة بدموع الفرح، ولم تنس ذلك اليوم أبداً، وظلت تذكره وتتباهى به أمام صويحباتها وأولادها وأحفادها..

إخوتي القرّاء: عندما نتأمل في بيعة العقبة الثانية، ونترجمها بلغة اليوم، نقول: **إن هذه البيعة هي بيعة سياسية بامتياز، وقد عاشتها المرأة كما عاشها الرجل تماماً، والتزمت بما التزم به دون زيادة أو نقصان.**

من هنا، نستغرب عندما نرى أن بعض الدول العربية والإسلامية، مازالت حتى اليوم تمنع المرأة من الانتخاب والترشّح والمشاركة في الحياة السياسية، فإذا سألتهم: لماذا؟ قالوا: الانتخاب ولاية، وليس للمرأة ولايةٌ على الرجل في الإسلام، لأن القرآن الكريم يقول: (الرجال قوامون على النساء). سورة النساء آية ٣٤

ويحق لنا أن نتساءل: كيف نستطيع أن نوفق بين هذا الكلام، وبين مبايعة النبي (ص) لأم عمارة وأم منيع؟!

هنا أقول: إن قول الله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا)[194] أتى في معرض الحديث عن الأسرة، يشهد لذلك السياقُ الإجماليُّ الذي وردت فيه هذه الآية، فهي واردة في سورة النساء. وتتحدث الآيات الكريمات قبلها عن نكاح المحصنات المؤمنات، وفي آية القِوامة يرد الحديث عن اللاتي تخافون نشوزهنّ، وعن وعظهنّ وهجرهنّ في المضاجع، وبعدها تتحدث الآية عن التحكيم بين الزوجين إن خفتم شقاق بينهما، فهي إذاً حسبما رأى كثير من العلماء قِوامة خاصة بالأسرة، وليس فيها ما يمنع المرأة من أن تقوم بدورها في الحياة العامة، خصوصاً وأن هناك آيةً قرآنية أخرى جعلت للمرأة ولاية على الرجال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شأنها في ذلك شأن الرجل تماماً، فلقد قال تعالى: (**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)[195]والولاية هنا ولاية عامة، يدخل فيها كلّ ما من شأنه صلاحُ الأمّة وقوامُها وإرشادها..

* * *

أمر آخر أحب التوقف عنده قليلاً، ألا وهو موضوع المصافحة، خصوصاً وأننا نراها اليوم شائعة بين الرجال والنساء في كثير من بلدان العالم العربي والإسلامي.. ما رأي الشرع في هذا؟! **وما هو حكمُ المصافحة؟!**

ذكرنا قبل قليل أن النبي (ص) بايع أم عمارة وأم منيع دون أن يصافحهما. والمصافحة وهزّ الأيادي ليست شرطاً في صحة البيعة.

أما من الناحية الفقهية، **فيرى معظم العلماء حرمةَ المصافحة بين الذكور والإناث الذين لا تجمعهم قرابةٌ تحرم الزواج بينهم.**

ودليلهم في هذا قول النبي (ص) لأم عمارة وأم منيع: ***إني لا أصافح النساء***[196]. وقول عائشة رضي الله عنها: **والله ما مسّت يد رسول الله يد امرأة قط، غير أنه يبايعهنّ بالكلام**[197].

طبعاً يستثنى من هذا ما تفرضه الضرورة، كالطبيب حين يضطرّ إلى لمس المريضة لفحصها طبياً، وكالرجل حين يضطرّ للمس المرأة ليدفع عنها ضرراً محققاً، أو ليعينها على صعود مكان مرتفع، عندما لا يوجد من النساء أو المحارم من يمكن أن يعينها..

بينما ذهب بعض العلماء، وهم قلة قليلة، إلى اعتبار المصافحة مكروهة، ومنهم من أجازها إذا كانت باحتشام وبنيّة سليمة، ودليلهم أنه لم يرد في الشرع نص صريح وصحيح على حرمتها، أما امتناع النبي ص) عن مصافحة النساء، فلم يعتبره هؤلاء العلماء نصاً صريحاً على حرمة المصافحة، فلقد قال (ص): (***إني لا أصافح النساء***[198]، ولم يقل: لا تصافحوا النساء، وبالتالي اعتبر بعض الفقهاء كلام النبي (ص) * حضًّا على فعل الأفضل.. وليس أمراً واجب التنفيذ.

طبعاً المصافحة المحرمة أو المكروهة هي التي تكون بين الغرباء، الذين لا يجمع بينهم نسب محرّم للزواج، كالجيران والمعارف والزملاء في العمل والمدرسة وما شابه ذلك، ويشمل ذلك أولاد العم والعمة وأولاد الخال والخالة، وإخوةَ الزوج وخاله وعمه، والصهر زوج الأخت وزوج الخالة والعمّة. أما الصهر زوج البنت وزوج الحفيدة فهو من الذين لا مشكلة في مصافحتهم من الناحية الشرعية.

بالمناسبة، أعرف أكثر من سيدة لا تصافح زوج ابنتها! وهذا ليس من نواهي الشرع.. فإن كانت لا ترغب في مصافحته لأسباب تخّصها فهذا شأنها، أما الإسلام فلم ينهَ عن هذا.

* * *

نعود إلى الصحابية الجليلة نسيبة بنت كعب، فنراها تترقّب وصول النبي (ص) إلى يثرب مهاجراً من مكة برفقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بلهفةٍ وحبّ، ونراها بعد ذلك تواظب على حضور مجالس العلم في مسجد النبي (ص).

ولما نادى منادي الجهاد في سبيل الله تعالى إلى الخروج لغزوة أحد، خرجت مع زوجها وولديها لتشارك في هذه الغزوة.

ولكن.. لماذا خرجت؟ ماذا يمكن أن تفعل إذا اشتبكت الأسنّة والتحمت السيوف؟

هذا سؤال وجيه...

البعض يقول مستهزئاً: لا يمكنها سوى أن تولولَ على الأعداء وتندب القتلى، وفي أحسن أحوالها يمكن لها أن تحثّ المقاتلين وتشجّعهم!!

وهناك بعض آخر أكثر رقيًّا يقول: يمكن لها أن ترعى شؤون الجيش، فتقدم له الطعام والشراب، كما يمكنها أن تساعد في العناية بالجرحى وتمريضهم.

تعالوا بنا لنرى، ماذا فعلت نسيبة بنت كعب في غزوة أحد!

في الحقيقة لم تكن نسيبة وحدها من خرج من النساء إلى تلك الغزوة، ففاطمة الزهراء شاركت فيها، رغم أنها كانت حاملاً بابنها البكر الحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين، وممّن شارك فيها أيضاً: أم المؤمنين عائشة وأم سليم رضي الله عنهما، يروي أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: *ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأمّ سُليم -يعني أمه- وإنها لمشمّرتان، تنقلان القُرب على متونهما[199]، تُفرغان الماء في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم*[200].

أما نسيبة فتروي لأمّ سعيدٍ بنت سعد بن الربيع، ما حدث معها في غزوة أحد فتقول:

خرجت صباح الغزوة إلى سفح جبل أحد، ومعي سقاءٌ فيه ماء، أبغي أن أسقي المجاهدين في سبيل الله.. كانت الغَلبة عندما وصلتُ للمسلمين، وما مضى سوى وقتٍ قليل حتى انهزم المسلمون، فقد ظنّ الرماة الواقفون على جبل أحد أن المعركة انتهت، فتركوا أماكنهم ونزلوا، مع أن النبي (ص) كان قد حذّرهم من النزول ولو انتهت المعركة. وكان هذا خطأ فادحاً، فالتفّ عكرمةُ بن أبي جهل وخالدُ بن الوليد، وكانا ما يزالان مشركين، التفّا على المسلمين من فوق الجبل وحاصروهم، وأعملوا فيهم القتل، فاضطرب أمرهم وتفرّقت صفوفهم..

كانت أم سعيد تستمع لنسيبة، وكلها آذان صاغية...

وماذا حدث لرسول الله (ص)..؟ سألت أم سعيد. -

أجابت نسيبة: عندما رأيت ما حدث، ألقيتُ السَّقاء، وبدأت أبحث عن رسول الله، فوجدته وأمامه القليل من الصحابة يدافعون عنه، فشددت عليّ ثيابي، وأمسكتُ بالسيف، وصرت أقاتل دفاعاً عن رسول الله (ص)..

تساءلت أم سعيد بدهشة واستغراب: ولكن، كيف انفضّ الصحابة عن الرسول في ساعة كهذه؟

أجابت نسيبة بصوت متهدّج: لقد أشاع المشركون أن رسول الله (ص) قتل.. فأخذت الحيرةُ كثيراً من المسلمين، فلم يعد أحدهم يدري ما يفعل، ومنهم من أذهلته المفاجأةُ، فألقى سلاحه. وقلّةٌ قليلةٌ هم الذين ثبتوا يقاتلون في سبيل الله، منهم سعد بن أبي وقاص وأبو بكر وعلي وعمر وعثمان وأبو دجانة وقتادة بن النعمان رضي الله عنهم أجمعين.

سكتت أم عمارة هنيهة، ثم أكملت بصوت حزين: كان (ص) يناديهم ويصيح بهم: إليّ عباد الله.. إليّ عباد الله.. أنا رسول الله..

لكن كثيراً منهم كانوا ممعنين في الفرار، لا يسمعون الدعاء ولا النداء.

قالت أم سعيد: أخبريني ماذا فعل أنس بن النضر عندما أخبروه أن رسول الله قتل؟

ردت نسيبة: أنس.. لله درّه من بطل.. رأى بعض الصحابة يرجعون القهقرى، وهم يبكون، فسألهم عن ذلك، فقالوا: لقد قتل رسول الله.

فقال: فما تصنعون في الحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم شهر سيفه وقاتل حتى استشهد..

قالت أم سعيد: خبريني يا أم عمارة، كيف دافعت عن النبي (ص)؟ ألم تشعري بالخوف؟

أجابتها: أبداً يا أم سعيد، لقد كنت أخشى على رسول الله (ص) من سهام المشركين وسيوفهم، التي كانت تصوّب إليه من كل جانب، فوقفت أمامه لأفديه بروحي....

لله درّك يا أم عمارة، فقد دافعتِ عن النبي (ص) دفاعاً عجز عنه كثير من الرجال..

يقول النبي (ص) عن يوم أُحُد: ***ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أرى نسيبةَ تدافع دوني***[201].

كانت أم عمارة تقاتل بسيفٍ دون ترس، فرأى النبي (ص) أحدَهم ينسحب من المعركة، فقال له: ألقِ ترسك إلى من يقاتل، فألقاه فأخذته نسيبة وتترّست به، فجعل النبي (ص) يقول لها مشجعاً: ***ومن يطيق ما تطيقين يا أمّ عمارة****[202].

وغير بعيد عنها، كان زوجها زيد بن عاصم وولداها حبيب وعبد الله فيمن ثبتوا، ودافعوا عن النبي (ص)، ووضعوا أرواحهم على أكفّهم فداء له..

وعنما تقدّم ابنُ قَمئة من رسول الله (ص)، وهو يصيح: دلوني على محمد.. لا نجوت إن نجا.. كانت له أم عمارة بالمرصاد، فاعترضت طريقه هي ومصعب بن عمير، فضربته بسيفها فلم تصبه، فتمكّن ابن قمئة منها، فضربها على عاتقها ضربة قوية، فتدفّق الدم من كتفها بغزارة.

وفي خضمّ المعركة، ووسط نارها وأوارها، كان النبي يراقب أصحابه برحمة ومحبة، فلما أصيبت نسيبة قال لابنها منبِّها: يا ابن أم عمارة، أمّك.. أمك..

ثم دعا لها ولزوجها وولديها قائلاً: ***بارك الله عليكم من أهل بيت****، فقالت أم عمارة: يا رسول الله ادع الله أن نرافقك في الجنة، فقال: ***اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة****، فقالت بفرح: ما أبالي ما أصابني بعد ذلك من الدنيا[203].

ظلت نسيبةُ سنةً كاملة تتداوى من ذلك الجرح حتى شفيت، وتروي صديقتها أم سعيد أنها لمّا غسلتها حين وفاتها، عدّت عليها ثلاثة عشر جرحاً، أصابتها جميعها في سبيل الله، وأن الجرح الذي أصابها به ابنُ قمئة كان جرحاً أجوف له غَور، بقي أثره حتى بعد أن برئت منه.

عندما نتأمل في خروج بعض الصحابيات مع الجيش الإسلامي، ليفعلن ما يمكنهن فعله، فيرعين شؤون الجنود، ويهيئن لهم الطعام، ويمرضن الجرحى، ويقاتلن في سبيل الله، ندرك كم هم مفتئتون على الإسلام أولئك الذين يقصرون عمل المرأة على الطبخ والنفخ والكي والغسيل...

أليس في خروج المرأة إلى الغزو دلالةٌ هامة على أن للمرأة دوراً عظيماً وهاماً في تأييد دينها ونصرته؟!

لم تكن النساء بعيدةً عن مواطن القتال في غزوة أحد، بل كنّ يخضن في قلب الميدان، بما يحتويه ذلك من أخطار، أقلها تعرض إحداهن للإصابة بالجراح، وأكثرها الاستشهاد في سبيل الله، أو الأسر من قبل جيش الأعداء..

أليس ذلك محتملاً إخوتي القرّاء؟!!

وبالمناسبة أقول: **سئلت أمُّ عمارة عن نساء المشركين اللواتي خرجن مع قومهن إلى ساحة المعركة: هل قاتلنَ مع الرجال؟**

فقالت: أعوذ بالله، ما رأيت امرأةً منهنّ رمت سهماً ولا حجراً، ولكنّي رأيتهنّ يضربن الدفوف، ويذكّرن القوم بقتلى بدر، وكان معهن مكاحل، فكلّما جَبُن رجل أو تكعكع، ناولته إحداهن مِروداً ومُكحلة، وقلن له: تكحّل.. فإنما أنت امرأة.

لم تكتفِ أم عمارة بشهود غزوة أحد، فشاركت مع النبي (ص) بعد ذلك في صلح الحديبية وغزوة خيبر وعمرة القضاء وغزوة حنين، كما شاركت في معركة اليمامة، وكانت هذه آخر معركة تشارك فيها.. وفي تلك المعركة قطعت يدها وأصيبت بجراحات كثيرة..

ولأمّ عمارة قصة مهمّة مع كذّاب اليمامة، جعلتها تحرص على شهود المعركة.

لا شك أنكم إخوتي القرّاء سمعتم بمسيلمة الكذاب، الذي ادّعى النبوة وسمّى نفسه رحمن اليمامة. (واليمامة هي منطقة شرقي الحجاز).

ادّعى مسيلمةُ النبوّة قبل هجرة النبي (ص) إلى المدينة، وفي سنة سبع للهجرة، قدم وفد من بني حنيفة سكّان اليمامة إلى النبي (ص)، وأعلنوا إسلامهم، فلما رجعوا إلى اليمامة، وعلم مسيلمة بإسلامهم، ادّعى أنه شريك للنبي (ص) في النبوة، فافتُتن به بعض الناس، وارتدوا عن الإسلام. وكتب مسيلمة إلى النبي (ص) رسالة يقول فيها: إلى محمد رسول الله.. من مسيلمة رسول الله.. سلام عليك.. أما بعد فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإنّ لنا نصفَ الأرض ولقريشٍ نصفُها، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

فردّ النبي (ص) على رسالته تلك برسالة قال فيها:

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من * يشاء من عباده والعاقبةُ للمتقين*[204].

وأرسل النبي (ص) كتابه إلى مسيلمة الكذاب مع سفير مميّز.

أتدرون من هو هذا السفير؟!!

إنه حَبِيب بن زيد، ابنُ أمّ عُمارة.

لما قدم حبيب على مسيلمة بتلك الرسالة، استشاط غضباً وسأله:

أتؤمن أن محمداً رسول الله؟! -

أجاب حبيب: نعم.. أؤمن بأنه رسول الله.

فسأله مسيلمة: أتؤمن أني رسول الله؟!

فقال حبيب: لا أسمع..

فكرر عليه السؤال ذاته، فردّ الجواب ذاته: لا أسمع!

فأمر مسيلمة بتقطيع أعضائه، وهو على قيد الحياة عضواً عضواً، وكان كلما قطع منه عضواً يسأله: أتؤمن أن محمداً رسول الله؟ فيجيب: نعم أؤمن بأن محمداً رسول الله.

فيسأله: أتؤمن أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع.

ظلّ حبيب ثابتاً على مبدئه، غير هيّاب للآلام تنهش جسده، ولا للموت يمدّ أذرعة أخطبوط ليلتهمه.. فالحق أحقّ أن يقال، ولا بد من أناس يقفون في وجه الباطل، ويدفعون الثمن في الدنيا، ليجدوه في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار..

لا أسمع.. كلمة اتخذها حَبيب شعاراً لنصر الحق والثبات عليه..

عندما علمت أم عمارة باستشهاد ولدها دمعت عيناها وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون.. اللهم اؤجرني في مصيبتي وعوّضني خيراً منها.

لم تستطع أم عمارة أن تنسى ولدها الحبيب، فِلذةَ كبدها. وكان شعور الكراهية لمسيلمة الذي قتله، ينمو ويتجذّر في صدرها يوماً فيوماً، إلى أن حانت ساعة الحساب...

كان ذلك في السنة الثانية عشرة من الهجرة، حين أرسل خليفة المسلمين أبو بكر خالداً بن الوليد على رأس جيش لقتال المرتدين في نجدٍ وما حولها.

وكانت معركة اليمامة بين جيش المسلمين وبين مسيلمة الكذاب وأتباعه من بني حنيفة..

وخرجت أمُّ عمارة هي وابنُها عبد الله، وكلها أمل أن تقتل عدو الله ورسوله، وأن تقتص من المجرم، الذي قتل ولدها دون ذنب سوى أنه آمن بالله ورسوله، وكفر بأولياء الشيطان..

وكانت الغلبة للمسلمين بفضل الله، والتجأ المرتدّون إلى حديقة، سميت فيما بعد بحديقة الموت، فاختبؤوا فيها، ودخلت نسيبة إلى تلك الحديقة، وهي تحمل سيفها باحثة عن عدوها اللدود مسيلمة الكذاب..

وأخيراً عثرت عليه.. لكنه كان جثة هامدة، فقد اشترك في قتله ابنُها عبد الله وأبو دجانة ووحشي قاتل أسد الإسلام حمزة، ولعله أراد أن يكفّر عن فعلته، فقتل مسيلمةَ رأس الكفر والدّجل والضلال..

وعادت أم عمارة إلى المدينة المنورة فرحةً بنصر دين الله ومقتل رأس الكفر، رغم الخسارة الكبيرة التي لحقت بها يوم ذاك..

نعم .. فقد فقدت يدها اليمنى، وأصيبت بجراحات شتّى، ولكن ذلك لم يكن ليسلبها فرحة النصر، ولا الأمل بالثواب.. فما يدها المقطوعة إلا عضو من أعضائها سبقها إلى الجنة، وهي اليوم تعيش على أمل اللقاء به وبكل من سبقها من الأحباب في جنان الخلد، وحسن ذلك مستقراً ومقاماً..

عاشت أم عمارة بقية حياتها وهي تنتظر ذلك اليوم...

لم يطل انتظارها كثيراً، فكل آتٍ قريب، وعندما حانت ساعة اللقاء، فاضت روحها إلى ربها.. وبقيت سيرتها العطرة خالدةً على مرّ التاريخ.. تهدي الحائرين والحائرات إلى طريق الثبات والرشاد والجهاد..

فسلام عليك منّا يا أم عمارة.. يا نسيبة المازنية..

جمعنا الله بك وببقية الصحابيات الكريمات تحت لواء نبينا يوم القيامة..

* * *

انتهت إخوتي وأخواتي وقفتنا مع البطلة المجاهدة نسيبة المازنية.

ألقاكم في بحثنا القادم مع الرميصاء.. أمّ سُليم بنتِ ملحان..

****

---

191 رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٣٧٧، حديث (٣٥٦٨).

192 رواه الإمام أحمد في المسند، ١٨/٢٥٥، حديث (١١٧٣٠). وصححه الألباني.

193 رواه النسائي في سننه، حديث رقم (٤١٩٨)، وصححه الألباني.

194 سورة النساء، الآية: ٣٤.

195 سورة التوبة، الآية: ٧١.

196 رواه النسائي في سننه، حديث رقم (٤١٩٨)، وصححه الألباني.

197 رواه البخاري في الصحيح، ٢/٩٦٧، حديث (٢٥٦٤).

198 سبق تخريجه.

199 ظهورهما.

200 رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٣٨٦، حديث (٣٦٠٠).

201 مغازي الواقدي، ١/٢٦٩.

202 مغازي الواقدي، ١/٢٦٩.

203 مغازي الواقدي، ١/٢٦٩.

204 رواه البيهقي في شعب الإيمان، ٢/١٦١، حديث (١٤٤٠).

الصحابيةُ الجليلةُ

الرّميصاء (أمّ سُلَيمٍ بنتُ مِلحان)

سيدور حديثي عن صحابية جريئة، شجاعة، صامدة، صابرة، يفيض الإيمان من كل ذرة من كيانها، ليتدفّق في أعمالها دعوةً إلى الإسلام ودفاعاً عنه..

هي باختصار: امرأة لا كالنساء.. وأمّ لا كالأمهات..

عنها قال النبي (ص): ***رأيتني دخلتُ الجنة، فإذا أنا بالرّميصاء امرأة أبي طلحة، وسمعت فيها خَشفة**[205]، **فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال***[206].

من هي هذه الرّميصاء؟ ومن هو أبو طلحة؟ وماذا فعلت حتى استحقّت أن يبشّرها النبي بالجنة؟!

إنها أمّ سُليم بنتُ مِلحان النّجارية الأنصارية، واسمها: سهلة، وقيل: رُميلة، وتلقب بالرّميصاء أو الغميصاء، وقد اشتهرت بكنيتها أم سُليم أكثر من اسمها ولقبها.

آمنت أم سليم بالإسلام، رغم أنها لم ترَ النبي (ص).. لكنها سمعت عنه من مصعب بن عمير رضي الله عنه، الذي أرسله الرسول إلى يثرب لتعليم أهلها الإسلام.

عادت أم سُليم إلى منزلها في اليوم الذي اعتنقت فيه الإسلام، وهي تشعر بانشراح لم تشعر به من قبل.. انتظرت زوجها مالكاً بن النضر على أحرّ من الجمر، لتدلّه على طريق النجاة والإيمان، قبل أن يغتاله الموت، الذي لا يعلم أحد إلا الله متى يكون..

لم تتوقع أبداً أن يرفض زوجها الإسلام.. لكنّ مالكاً بن النضر فعلها ورفض، وأصرّ على التمسك بدين آبائه وشركهم ووثنيتهم..

حاولت بشتّى الوسائل وفي شتى الأوقات، أن تقنع زوجها بما في الإسلام من روعة وهدى.. ولكن.. إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء..

كانت ذات مرّة تتحدث إليه، وتقول له: قال الله وقال رسول الله، فثار في وجهها ثورة عظيمة، وأسمعها كلاماً قاسياً، وصفع الباب مغضباً، وخرج من البيت بعد أن قال لها: إن لم تعودي إلى دين آبائك وأجدادك، فلن تري وجهي بعد اليوم..

ما هذا الخيار القاسي؟!

هي تحب زوجها حباً جماً، لكنها تحب دينها وربها ونبيّها أكثر منه ومن ولديها ومن نفسها التي بين جنبيها!

خيار صعب وقاسٍ.. ولكن.. إن كان عليها أن تختار.. فلن تختار الفاني وتترك الباقي.. ولن تختار الغالي وتترك الأغلى!

هو الله يا إخوتي الكرام.. هو الله.. ومن ذاق حلاوة حبّه صار لها أسيراً.

نرى من فتياتنا اليوم من تفرّط برضا الله، لترضي زوجها أو جارتها أو ابنها، وتنسى أن من أرضى الله بسخط الناس، رضي الله عليه، وأرضى عليه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس.

إذاً، لم تتردد أم سليم، بل حسمت أمرها.. واختارت ربها على كل ما سواه، ورددت بصوت حزين قول الله تعالى: (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)[207].

انشرح صدرها عندما قرأت هذه الآية، فرفعت يديها ضارعة وقالت: يا رب فوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، ففرّج كربي يا أرحم الراحمين..

مرّت شهورٌ عديدة، وأم سُليم تترقب اللحظة، التي سيفتح فيها زوجها باب الدار ويعود إليها وقد هداه الله، فيلتمّ شمل العائلة من جديد، لكنّ الناعي حمل إليها خبراً لم تكن تتوقعه.. فقد مات مالك بن النضر في الشام، وذاب الأمل الذي كانت تنتظره وتعيش عليه!

حزنت أم سُليم لموت زوجها، وحزنت أكثر لأنه مات مشركاً..

كان ولداها أنس والبراء ما يزالان طفلين صغيرين. نظرت إليهما، ورددت من بين دموعها: اللهم اؤجرني في مصيبتي، وعوّضني خيراً منها..

فرّغت أم سليم نفسها لتربية هذين الولدين على الإيمان بالله ومراقبته وخشيته.. وكانت تلقّنهما مبادئ الإسلام، وتزرع فيهما قيمه السامية.

عندما هاجر النبي (ص) إلى المدينة المنورة، طار قلبها فرحاً لقدومه، وكانت مع الأنصار الذين استقبلوه مهلّلين مكبرين، وهم ينشدون:

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا

جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة

مرحباً يا خير داع

قدّم الأنصار في المدينة للنبي وللمهاجرين معه كلّ ما يمكن أن يقدموا: المالَ والحمايةَ والمعونة.. وتمنّت أم سُليم لو أنها تملك المال، إذاً لوضعته بين يدي النبي (ص)، لينفقه في سبيل الله.. ولكن ماذا تفعل، وهي لا تملك إلا ما يكاد يسدّ رمقها ورمق ولديها؟!

ومضت في ذهنها فكرةٌ رائعة.. إذ لا يُعدم الإنسان الصادق وسيلةً يحقّق بها أهدافه، ويبرهن على جدية دعواه وصدقها.

ماهي الفكرة التي اهتدت إليها أم سُليم؟!

أخذت ابنها أنساً إلى النبي (ص)، وكان عمره ثماني سنوات، وقيل عشرَ سنوات.. سلّمت عليه، وقالت له: **هذا ابني أنس يا رسول الله، يخدمك ويقوم بحوائجك..**

إذاً جاءت أم سُليم بأعزّ ما تملك.. ابنِها وفلذة كبدها.. ووضعته في خدمة النبي (ص).

كانت أم سُليم ترجو بذلك رضاء ربها ورسولِه، وتأمل أن يتعلم ابنها العلم من النبي (ص) مباشرة..

لا شك أن أم سليم تعرف أيّ غلام كان ابنها، وتعرف كيف وعلى ماذا ربّته، وكان أنس عند حسن ظنها، وكلنا اليوم نعرف من هو أنسٌ بن مالك.. خادمُ النبي.. ويا له من شرف عظيم!

أحب النبي (ص) أنساً وقرّبه، ودعا له بقوله: اللهم أكثر ماله وولده، وأطل عمره، واغفر ذنبه.. وقد استجاب الله دعاء نبيه، فكان أنس آخر من مات من الصحابة بالبصرة، وقد قارب المئةَ من عمره، وأكثرَ الله ماله وأولاده، وكان أنس يقول: وإني لأرجو الله الرابعة، أي مغفرة الله تعالى لذنوبه.

إذاً هكذا كانت أم سُليم.. أعملت عقلها، وبحثت عن مستقبل ابنها، ووضعته في البيئة التي تضمن نجاحه وفلاحه بإذن الله.. ولهذا قلنا في بداية البحث: إنها أمّ لا كالأمهات..

ألا يجب أن تكون أمّ سُليم قدوةً لكثير من أمهات اليوم؟

يؤلمنا أن نجد همّ معظم الأمهات ينصبّ على تربية أجساد أولادهن، فيطعمنهم أحسن الطعام، ويلبسنهم أحسن اللباس، ولكنهنّ يغفلن عن تغذية عقولهم وأرواحهم، وتبخل أنفسهنّ عن أن تجود بهم لطلب العلم وخدمة الإسلام..

بعد موت مالكٍ زوج أمّ سُليم بفترة قصيرة، تقدّم لخطبتها زيد بن سهل، المعروف بأبي طلحة، وكان ذا حسب ونسب ومال وجاه.. ولكنّ أم سليم ردّته، ولم تقبل به زوجاً.

هذا عجيب! لماذا ردّته، وهو يملك كل المواصفات التي ترغب بها النساء؟!

ببساطة، لأنه كان مشركاً، فكيف ترضى به، وهي التي فارقت زوجها مالكاً بسبب كفره؟!

الأمر محسومٌ لديها، ولا مجال للتفكير والمهاودة.. فاعتذرت منه قائلة: يا أبا طلحة، ما مثلك يردّ، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة..

سمع أبو طلحة كلامها، فهزّ رأسه وهمّ بالخروج من دارها، ولكنّ فكرة ما ومضت في عقل أم سُليم، جعلتها تتابع الحديث قائلة:

يا أبا طلحة، ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد، إنما هو شجرة تنبت من الأرض، نجّرها حبشيٌّ من أحباش - بني النجار؟

أجاب أبو طلحة: بلى .. بلى يا أمّ سُليم..

فاستطردت قائلة: فكيف تسجد لخشبة تنبت من الأرض، لو أشعلت فيها النار لاحترقت؟! كيف تعبدها من دون الله؟!

لم يجب أبو طلحة بشيء، فما ذكرته أم سليم أمر حقيقي، لا يمكن له أن يناقش أو يجادل فيه، ولربما أثارت أم سليم بأسئلتها هذه أفكاراً طالما أرّقته وأقضّت مضجعه، وطالما حاول أن يتجاهلها ويتناسى الإجابة عليها..

عاد أبو طلحة إلى منزله وقد وقع كلام أم سليم في قلبه..

ظلّ يفكر في الأوثان التي يعبدها، كما عبدها آباؤه وأجداده..

بعد تفكير طويل، استسلم للحقيقة.. فهذه الأصنام التي يعبدها، لا تجلب له نفعاً، ولا تدفع عنه ضرراً، فكيف يسجد لها من دون الله؟!

عاود أبو طلحة خِطبة أم سُليم.. واستشفّت تلك السيدة اللمّاحة ما يعتلج في صدره، فقالت له: يا أبا طلحة.. هل تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأزوّجك نفسي، ولا أريد منك صفراءَ ولا بيضاء، فيكون إسلامُك مهري؟!

عمل الصدق الذي حمله كلام أم سليم في نفس أبي طلحة عمله، فأسلم، وتزوّجها على مهر، لم تُمهَره امرأةٌ من قبل.. مهرٍ لو وُزن بمال الدنيا لرجح!

مرة أخرى أتأسّف لحال فتياتنا اليوم!

يتقدّم لخطبتهنّ فلان ما، فيبحثن عن المال والجمال والبيت والسيارة.. بينما يبقى الدينُ والأخلاق آخرَ همِهنّ.. وحدِّث ولا حرج عن بورصة المهور بين فتيات العائلة، فهذه مهرها مليون، وتلك مليونان، وهذه أرخص وتلك أغلى!!

هناك فارق كبير بين المهور المادية، والمهور المعنوية..

أذكر هنا أن امرأة عرضت نفسها على النبي (ص) ليزوّجها بمن يشاء، فزوّجها لصحابي فقير، وكان مهرها: ***زوجتُكَها بما معك من القرآن***[208].

يا له من مهر لا تضمحلّ قيمته، ولا يصيبه التضخّم أو الكساد أو الزوال.

نعود إلى أم سليم بعد زواجها من أبي طلحة..

أبو طلحة اليوم رجل مسلم، يعرف واجبه في نصرة دين الله تعالى، وعندما نشبت معركة أحد، شارك فيها مع زوجته وابنِها البراء بن مالك..

كانت أم سُليم تحمل مع عائشة وفاطمة وبعض الصحابيات رضي الله عنهن أجمعين قُرَب الماء، فيسقين الجيش..

إن المتأمل في نِطاق أم سُليم آنذاك يرى شيئاً يلمع!

ما هو هذا الشيء ياترى؟!

هل هو ذهبٌ أم ماسٌ؟!

لا هذا ولا ذاك.. إنه خنجرٌ حملته لتدافع به عن نفسها، إذا اقترب منها أحد المشركين.

لم تفرّ أم سُليم وزوجها أبو طلحة حين تشتّت جيش المسلمين في أحد، بل ثبتا مع النبيّ فيمن ثبت، وقاتل أبو طلحة دون رسول الله (ص)، وهو يصيح: نحري دون نحرك يا رسول الله.

مضت المعركة، وسلّم الله أم سُليم وأبا طلحة، ورزقهما الله مولوداً أسمياه أبا عُمير. لما كبر أبو عمير قليلاً، كان له طيرٌ صغير يلعب به اسمه النُّغير، وعندما كان النبي (ص) يزور بيت أبي طلحة، كان يمازح أبا عمير، فيقول له: يا أبا عُمير ما فعل النُّغير؟!

وذات يوم مات النّغير، فحزن أبو عمير، فرآه النبي (ص) فمسح على رأسه مواسياً، وهو يقول: يا أبا عمير ما فعل النُّغير؟

أصابت أبا عمير من حزنه على نُغيره حمّى شديدةٌ ألزمته الفراش..

دبّ الذعر في قلب أبي طلحة، فهذا ولده الوحيد، ومن فمه الجميل سمع كلمة (أبي) أول مرة، تلك الكلمة التي كان يطير لها صوابه، ويطرب لها قلبه..

صار أبو طلحة بعد مرض ابنه قلقاً مضطرباً كثير الغضب.. ولم يَعُد كما عهدته أم سُليم ذلك الأنيسَ المؤنس..

ذات يوم ذهب أبو طلحة إلى عمله، وجلست أم سُليم بجانب صغيرها تمرّضه، مسحت على رأسه وهي تدعو: اللهم ربّ الناس أذهب البأس، اشفِ أنت الشافي، شفاءً لا يغادر سقماً..

ضّمته إلى صدرها.. كان صدره يعلو ويهبط بسرعة..

تدحرجت الدموع من عينيها.. كأني أتخيله، وهو يقول لها بصوت متقطِّع لاهثٍ: ماما.. أنا أحبك.. لا تتركيني وحدي..

فتجيبه، وقلبها يكتوي ألماً ورعباً: لا تقلق يا حبيبي.. لن أتركك أبداً..

ارتعش الغلام فجأة بين يديها.. كانت أنفاسه تتلاحق في حشرجة مسموعة، وفجأة.. توقّف كل شيء.. لم يعُدْ صدرُه يهبطُ ويعلو، ولم تعُد أنفاسُه تُسمع..

هزّته بشدة.. نادته بصوت مرتجف.. لكنه لم يسمعها.. فقد أسلم الروح..

بكت أم سُليم ابنها الحبيب.. أحسّت بروحها تخرج مع روحه، تمنّت لو أنها تستطيع أن تهبه حياتها إذاً لفعلت..

لاح في ذاكرتها حديث النبي (ص): ***إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولدَ عبدي؟! فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟! فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: يا رب حمدك واسترجع. فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد***[209].

مسحت دموعها بيديها الواهنتين، وهي تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اؤجرني في مصيبتي، وعوّضني خيراً منها..

طافت في مخيلتها صورٌ كثيرة.. منها صور أبي طلحة مع ابنه.. وتذكرت شدة تعلّقه به.. الدلال.. الحبّ.. الهيام.. تصورت نفسها وهي تخبره بموت ابنه الحبيب.. تساءلت: ماذا سيكون حاله؟ كيف سيتحمّل تلك الصدمة القاسية؟

صحيح أنّ ابنها مريض بالحمّى، لكنّ موته لم يخطر في بالها وبال زوجها..

عزمت أم سُليم في سرّها على أمر ما.. فتزيّنت وتعطّرت، وانتظرت قدوم زوجها، وقد غطّت ابنها، وأغلقت عليه الباب..

دُهش أبو طلحة عندما رآها متطيِّبة متزيّنة، وهي التي منذ مرض ابنها، لم تمسسْ طيباً ولا زينة!

لم يخطر في باله أن مكروهاً ألمَّ بالغلام..

سألها: كيف ابننا؟ قالت: لقد نام نومة ما نام مثلَها قط.

أراد أن يدخل ليطمئنّ عليه، لكنها أخذت بيده، وهي تقول: دعه، فو الله ما وجد طعم هذا النوم المريح منذ أمدٍ طويل..

نام الزوجان.. ولما استيقظا لصلاة الفجر، قالت أم سُليم:

يا أبا طلحة، لقد استعار جيراننا منّا عارية، فلما طلبناها منهم، أبوا أن يعيدوها إلينا.. -

اغتاظ أبو طلحة وقال: بئسما فعلوا! ألا يعلمون أن العارية مرتجعةٌ؟!

عند ذلك قالت أم سليم، وهي تغالب دموعها:

وكذلك ابننا يا أبا طلحة، أعطانا الله إيّاه عاريةً، وقد استردّ الله عاريته.. -

لم يصدّق أبو طلحة أذنيه.. خُيِّل إليه أنها تهذي أو تمزح، فهبّ واقفاً، ودخل على ابنه، وكشف الغطاء عنه.. و.. ورحمك الله يا بني.

وارى الأب الثاكل ولده الثرى، ثم ذهب إلى رسول الله (ص)، وشكا له ما فعلته زوجته، فنظر إليه النبي ص) وابتسم، وقال: ***بارك الله لكما في ليلتكما، إذا ولدت ائتوني بالغلام*[210].)**

وفعلاً.. بارك الله لهما في ليلتهما، وولدت أم سُليم ولداً، سمّته عبد الله، كان حافظاً للقرآن الكريم هو وعشرةٌ من أولاده..

إخوتي وأخواتي: عندما نقرأ قوله تعالى:(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).[211]

ونقرأ قوله تعالى على لسان الخضر في سورة الكهف: (وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)[212].

أقول:عندما نقرأ هذا، ندرك أنّ ما يختاره الله تعالى لعبيده فيه خيرهم وصلاحهم، وإن بدا في ظاهره أنه شرّ. فحياة الغلام حسب علم الله تعالى المسجّل في اللوح المحفوظ، سوف تكون نقمةً لوالديه لا نعمة، فأراد الله تعالى أن يكافئهما على صلاحهما باستبدال ذلك الغلام بولد صالحٍ تقيٍّ، يكون قرّة عين لوالديه..

ويذكر المفسرون أن الله تعالى عوّضهما عن الغلام بنتاً، كان من نسلها الكثير من أنبياء بني إسرائيل..

كثير منّا يقرؤون هذه الآيات، ويعرفون قصةَ أم سُليم وثناءَ النبي (ص) على صبرها وتسليمها، ويعرفون كم عوّضها الله خيراً، ثم نرى بعضهم يضجرون ويأسون ويعترضون إذا أصابتهم مصيبة، ولو اطّلعوا على الغيب لاختاروا ما اختار الله لهم!!

ولكنّ الغيب بيد الله، لا يُطلع عليه إلا من يشاء، وما على المؤمن إذا أُصيب بمصيبة إلا أن يسلّم أمره لله، ويرضى بقضائه وقدره، فالإيمان بالقضاء والقدر يذهب الهمّ والحزن. والمؤمن المتوكل على الله، تراه شاكراً حامداً صابراً راضياً في كل أحواله، لأنه مؤمن بقضاء الله، يعلم أنّ الله يختار له ما فيه الخير، وإن بدا له في ظاهره أنه شرّ..

نعود إلى أم سُليم. لنراها تشارك في غزوة حنينٍ، قبل أن تلد ولدها عبد الله، فكانت تسقي الجيش وترعى شؤونه.. وثبتت مع زوجها فيمن ثبتوا، يدافعون عن رسول الله (ص)، حين تفرّق عنه كثير من المسلمين.

سمعت أمَّ سُليم النبيَّ وهو يصيح بالناس: أين أيها الناس؟! هلموا إليّ.. أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله:

أنا النبيّ لا كذِب

أنا ابنُ عبد المطّلب

ورأت زوجها أبا طلحة، وهو يقاتل باستبسالٍ نادر، ويزأر بالأعداء زئير الأسد، حتى قال عنه النبي (ص): **لَصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من ألف رجل***[213].*

وعندما احتدم القتال وفرّ الناس، تركت أم سُليم سقاية الجيش وتمريض الجرحى، وأمسكت الخنجر الذي كانت تخبّئه في نطاقها، وبدأت تقاتل مع النبي (ص)!!

لم تخف ولم تجبن، ولم يمنعها حملها بجنينها، الذي أوشكت ولادته، من أن تقاتل لنصرة دين الله..

عندما التفت النبي (ص) ورآها في ميدان المعركة، قال: أم سُليم؟! فقالت: نعم.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله..

روى الإمام مسلم في صحيحه أن أبا طلحة قال للنبي (ص) قبل أن يشتدّ وطيس المعركة: يا رسول الله إن أمّ سُليم اتخذت خنجراً.

لربما أراد أبو طلحة أن يفتخر أمام رسول الله (ص) بما تفعل زوجته!

ضحك النبي (ص) لما قالت أمّ سليم: يا رسول الله هذا خنجرٌ أخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بَقرتُ به بطنه[214].

وفعلاً استخدمت أم سُليم خنجرها، حين احتاج الأمر إلى مشاركتها في القتال..

انتصر المسلمون في غزوة حنين، فقد أخذ النبي حصيِّات من الأرض، فرماها في وجوه الكفار، وهو يقول: انهزموا وربِّ محمد.. وقذف الله في قلوبهم الرعب، فانهزموا، لا يلوي أحدٌ منهم على أحد..

عندما وضعت أمّ سُليم وليدها بعد الغزوة، تذكرت قول النبي (ص): **إذا ولدت فائتوني بالمولود.**. فأرسلت المولود إليه، فحمله (ص)، وسمّاه عبد الله، ثم أخذ تمرة فلاكها، ودهن بها فمَ الصغير، فجعل يتلمّظها، فابتسم النبي (ص) وهو يقول:***أبت الأنصار إلا حبّ التمر***[215].

إذاً هذه هي عائلة أم سُليم.. ولأمّ سليم أختٌ معروفة هي أمّ حَرام، الصحابيةُ التي خاضت البحر مع المسلمين، الذين فتحوا جزيرة قبرص في عهد معاوية رضي الله عنه، واستشهدت هناك.. وما زال ضريحها قائماً في قبرص.

ورد أن النبي (ص) كان يكثر من زيارة عائلة أم سُليم المؤمنة المخلصة، ويطيل المكوث عندهم، حتى إنه كان ينام عندهم أحياناً نومة القيلولة، وكثيراً ما كان يصلي عندهم بعض النوافل على بساط متواضع..

وعندما سئل النبي (ص) عن سبب هذه الزيارات المتكررة لعائلة أم سليم أجابهم: ***إني أرحمها، قُتل أخوها معي***[216].

وأخوها هذا هو سُليم بن مِلحان، ولها أخ آخر اسمه حَرام بن مِلحان استشهد يوم بئر معونة...

في يوم من الأيام هرع أبو طلحة، يخبر أم سليم أنه سمع صوت النبي (ص) ضعيفاً، فعرف أنه جائعٌ، وطلب منها أن تعدّ الطعام، وذهب ليدعو رسول الله، ليأكل في بيته..

قبِل النبي الدعوة، ودعا معه من كان بحضرته من أصحابه.

ارتبك أبو طلحة، فهو يعلم أن الطعام الذي أعدّته زوجته، لا يكفي الأعداد الذين سيصحبهم النبي (ص) معه!

فأسرع إلى بيته، وأعلم زوجته بما جرى، وقد غلبه الهمّ والغمّ.. فابتسمت أم سُليم وقالت: لا عليك يا أبا طلحة.. الله ورسوله أعلم..

وصدق حدسها، فالنبي (ص) يعلم أن أبا طلحة يدعوه وحده إلى الغداء، ولكنه لم يشأ أن يشبع، وأصحابه جائعون، فدعاهم معه واتّكل على الله، فطعام الجماعة مبارك فيه، وهذا ما كان (ص) يعلّمه لصحابته قائلاً: ***طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة***[217].*

وصل المدعوّون إلى بيت أبي طلحة، فأمر النبي (ص) أم سُليم أن تفتّ الخبز، ثم تضع فوقه السمن، وتناول الجميع الطعام باسم الله تعالى، فشبعوا جميعاً، ولم ينفد الطعام[218]!

عاش أبو طلحة مسروراً مع أم سليم، فقد كانت له سنداً يعينه على طاعة الله..

لا ينسى أبو طلحة موقفها حين تصدّق بأرض يبرحاء.. فلقد سمع قول الله تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾[219]، فقال للنبي (ص): يا رسول الله، إن أحب مالي إلي أرض بيرحاء، وإنها صدقة أرجو برَّها وذُخرَها عند الله، فضعها حيث أراك الله..

فتبسم النبي (ص) وقال: **بخ بخ .. ذاك مال رابح. ثم أردف قائلاً: أرى أن تجعلها في الأقربين..** فقسم أبو طلحة تلك الأرض بين الفقراء من أقاربه، وعلى مرأى من زوجته أم سليم وتشجيعها[220].

صدق رسول الله (ص) حين قال: ***الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ***[221].

لم تعترض زوجته يوماً ما، ولم تبخِّله وتقطع خيرَه ومعروفه عمّن حوله، كما تفعل بعض النساء مع أزواجهنّ اليوم، بل كانت مسرورةً بالثواب الذي يدّخره عند الله يوم الحساب.

قبل أن نسدل الستار عن حياة هذه الصحابية الفاضلة أحب أن أقول: روت أم سليم عن النبي (ص) 14 حديثاً،من أشهرها حديث يظهر لنا جرأة أم سليم في طلب العلم.

تروي أم المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها، أن أمّ سُليم أتت إلى النبي (ص) تسأله قائلة: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غُسل إذا احتلمت؟فقال (ص): ***إذا رأت الماء***، فغطّت أم سلمة وجهها استحياءً من هذا السؤال. ثم أردفت أمّ سُليمٍ تسأله مستوضحة: وهل تحتلم المرأة يا رسول الله؟ فقال (ص): ***نعم، تربت يمينكِ، فبم يشبهها ولدها***[222].

شهدت أم سُليم غزوة خيبر.. وبالمناسبة، أمّ سليم هي الصحابية، التي دفع إليها النبي (ص) صفيةَ بنت حييّ، التي أصبحت زوجته فيما بعد، فجهّزتها وزفّتها إليه، وهم عائدون من خيبر إلى المدينة..

هذه هي أمّ سُليم، وهذه هي سيرتها المترعةُ بما ينعش الفؤاد، ويثري المعرفة، ويشحذُ الهمّة..

رضي الله عن الرّميصاء وأرضاها، وجمعنا بها في جنة الخلد تحت لواء سيد المرسلين... آمين اللهم آمين.

* * *

كلنا نعرف من هي الخنساء.. إنها شاعرةٌ كبيرةٌ ملأت الدنيا سمعتُها وكلماتُها العظيمة، وخصوصاً تلك الكلماتُ التي قالتها عندما استشهد أولادها الأربعة.

ماذا في سيرة الخنساء، مما لا يعرفه كثير من الناس؟!

هذا ما سأتحدث عنه في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى.

***

صوتاً وحركة. 205

رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٣٤٦، حديث (٣٤٧٦). 206

سورة الطلاق، الآية: ٣-٢. 207

رواه البخاري في الصحيح، ٤/١٩١٩، حديث (٤٧٤١). 208

سنن الترمذي، ٣/٣٤١، حديث (١٠٢١). وقال الألباني: حسن لغيره. 209

صحيح مسلم، ٧/١٤٥، حديث (٦٤٧٦). 210

سورة البقرة، الآية: ٢١٦. 211

سورة الكهف، الآية: ٨١-٨٠. 212

رواه الحاكم في المستدرك، ٣/٣٩٧، حديث (٥٥٠٣). وصححه الألباني. 213

رواه مسلم في الصحيح، ٥/١٩٦، حديث (٤٧٨٣). 214

215 رواه ابن حبان في الصحيح، ١٦/١٥٨، حديث (٧١٨٨).

216 متفق عليه: صحيح البخاري، ٣/١٠٤٦، حديث (٢٦٨٩). صحيح مسلم، ٧/١٤٥، حديث (٦٤٧٣).

217 رواه مسلم في الصحيح، ٦/١٣٢، حديث (٥٤٨٨).

218 أصل القصة رواها البخاري في الصحيح، ٣/١٣١١، حديث (٣٣٨٥). ومسلم، ٦/١١٨، حديث (٥٤٣٧).

219 سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

220 رواه البخاري في الصحيح، ٢/٥٣٠، حديث (١٣٩٢).

221 رواه مسلم في الصحيح، ٤/١٧٨، حديث (٣٧١٦).

222 متفق عليه: صحيح البخاري، ١/٦٠، حديث (١٣٠). صحيح مسلم، ١/١٧٢، حديث (٧٣٨).

الصحابيةُ الجليلةُ

الخَنساء (تُماضر بنتُ عمروٍ السّلمية)

الخنساء صحابيةٌ شاعرةٌ، أجمع أهلُ الشعر والعلم على أنه لم تكن امرأةٌ قبلها ولا بعدها أشعرَ منها.

اسمها **تُماضر بنتُ عمروٍ بنِ الشريدِ السلميّة.. ويعود نسبها إلى قبيلة مُضر العربية.. ولقبها الخنساء..**

ومن لا يعرف الخنساء؟!

إنها الخنساء! ومن لا يعرف الخنساء؟!

لا أظنّ بلداً من البلاد الإسلامية لم يسمِّ شارعاً أو مدرسةً أو ساحةً باسمها، ولا أظن أحداً منّا لم يردد عبارتها الشهيرة، التي قالتها حين استشهد أولادها الأربعة: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته!

جُمع شعرها في ديوان يسمى *ديوان الخنساء*، وكانت تمتلك قدرةً فائقة على قول الشعر، وتكتنز ثراءً عريضاً من مفردات اللغة ومعانيها. ولقد سئل جرير: من أشعرُ الناس؟ فقال: أنا.. لولا الخنساء! فقيل له: فبم فضلتك؟ فقال: بقولها:

إنّ الزمان وما يفنى به عجبٌ

أبقى لنا ذنَباً واستؤصل الراسُ

إنّ الجديدين[223] في طول اختلافهما

لا يَفسُدان، ولكن يفسُد الناسُ

وهنا قد يسأل سائلٌ ويقول قائلٌ: أليس الشعر أمراً مكروهاً مذموماً في الإسلام؟

ألم يقل الله تعالى في كتابه الكريم:(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ).[224]

ألم يقل النبي (ص): ***لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً، خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً***[225]؟!.

وأنا أقول لهذا السائل: حتى ندرك معنى الآية الكريمة والحديث الشريف، ونجدَ الجواب الشافي، لابد أن نبحث في سيرة النبي (ص) مع هذه الصحابية الشاعرة: كيف كان يتعامل معها، وهل نهاها عن قول الشعر، وهل أعرض عن سماع شعرها، أم ماذا فعل؟!

قد تدهشون عندما تعلمون أنه عليه الصلاة والسلام كان يستنشِدُ الخنساءَ الشعرَ، أي يطلب إليها أن تقول الشعر أمامه، وأحب أن أؤكد هنا على معنى مهمّ قد يسيء البعض فهمه، فإنشاد الشعر عند العرب يعني

إلقاء الشعر، ولا يعني غناء الشعر كما هو مفهوم كلمة الإنشاد في عرف الناس اليوم، وكما يحاول بعض المتسلّلين المتصيّدين أن يزعم.

وكان شعر الخنساء يعجب النبي (ص)، فكان يقول لها ممتدحاً مستحسناً: هيه يا خناس!!

وكان في بعض الأحيان يومئ بيده تعبيراً عن إعجابه بشعرها..

وبهذه المناسبة، ما رأيكم إخوتي القرّاء أن نطوف سويّة على سيرة الحبيب المصطفى مع الشعر والشعراء؟!

ورد أن أعرابياً جاء إلى الرسول (ص)، فتكلّم بكلام فصيح مبين، فأثنى النبي (ص) عليه ثم قال: ***إنّ من البيان سحراً، وإنّ من الشعر حِكَماً***[226].

ويروي البخاري في صحيحه أن النبي (ص) قال: ***إن من الشعر حكمة***[227].

وكان صحابة النبي (ص) ينشدون الشعر أمامه، فيستمع إليهم مبتسماً، من هذا ما يرويه جابر بن سمرة رضى الله عنه فيقول: جالست النبي (ص) أكثر من مئة مرة، وكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من الجاهلية، وهو ساكت وربما تبسّم معهم[228].

ويروي عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: كنت ردفاً للنبي (ص)، (أي راكباً خلفه على دابّته)، فأنشدته مئة بيتٍ من قول أمية أبن أبي الصلت الثقفي، فكلما قلت له بيتاً، قال النبي (ص): هيه، حتى أنشدته مئة بيت، فقال الرسول (ص): ***إنْ كان لَيسلم***[229]. ويعني بهذا أنّ أمية أبن أبي الصلت كان قريباً جداً من الإسلام بفكره وأخلاقيات شعره، لكنه لم يسلم.

وعندما نتحدث عن الشعر والشعراء في زمن النبي، لا يمكننا أن نغفل الحديث عن شعر الصحابي الجليل حسّان بن ثابت ودوره في نصرة الإسلام ونبي الإسلام، فقد كان يُوضعُ له منبرٌ في المسجد، فيقوم عليه منافحاً عن الرسول (ص) ومدافعاً عنه، فيذبُّ عنه كل مقولة سوءٍ كان الكفار يقولونها بشأنه، وكان النبي ص) يعجبه ذلك، فيمتدح حساناً قائلاً: ***إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ، مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ***[230].)

يروي أنس بن مالك أن النبي (ص) لما دخل مكة في عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وهو ينشد بصوت عال :

خلّوا بني الكفارِ عن سبيلهِ

اليوم نضربكم على تنزيلهِ

ضرباً يزيل الهامَ[231] عن مقيلِه[232]

ويذهلُ الخليلَ عن خليله

فاستهجن ذلك عمر بن الخطاب فقال: يا ابن رواحة، أتقول الشعر بين يدي رسول الله وفي حرم الله؟!فقال ص): ***خلِّ عنه يا عمر، فلهيَ أسرعُ فيهم من نضح النّبل***[233]*[234].)

نعم... فإن الكلمة الحقّ في موطن الحقّ وفي لهجة الحقّ، لتجد طريقها في كثير من الأحيان إلى قلوب المستمعين، لترهبهم وتأخذ على أيديهم، أو تطربهم وتستلّ ما في قلوبهم من سخائم وأحقاد، بسرعة أكبر من سرعةِ أسهم المقاتلين في ميدان المعركة، إذا حمي الوطيس.

والأعجب من ذلك أن النبي (ص) كان يتمثّل شيئاً من الشعر في بعض الأحيان، أي ينشد شعراً لغيره، من هذا قوله في غزوة حنين:

أنا النبيّ لا كذب

أنا بن عبد المطلب[235].

ومن هذا أنّ حجراً أصاب أصبعَه فدميت، فقال :

هل أنتِ إلا إِصبعٌ دَميتِ

وفي سبيلِ الله ما لَقيت[236]

وسئلت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله (ص) يتمثّل بشيء من الشعر؟ فقالت: كان يتمثّل بشعر ابن رواحة بقوله: ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد[237].

طبعاً لم يكن النبيّ (ص) شاعراً، ولقد قال تعالى في القرآن الكريم:(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ)[238]، وذلك كي لا يختلط الأمر على الناس بين القرآن الكريم والشعر...

وسبق أن ذكرنا عند الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت عالمةً بالأدب والشعر، وأنها روت للشاعر الجاهليّ لُبيد ألف بيتٍ من الشعر..

لا شك أنكم بعد هذا كله تتساءلون: إذا كان للشعر هذا الدور العظيم في نصرة الحق وأهله، فما معنى قوله تعالى: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)[239]، وقول النبي(ص): ***لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً، خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً***[240]**؟!**.

أما الآية الكريمة فتتمّتها توضّح المراد منها، إذ يقول تعالى في سورة الشعراء: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ)[241]. *

إذاً، الآية الكريمة تذمّ نوعاً معيناً من الشعراء، وهم الذين يبيعون ضمائرهم وقناعاتهم ومعتقداتهم مقابل اللّهاث وراء المال أو الشهرة...

أما الشعراء المؤمنون الذين يخدمون العقيدة والفكر، ويضعون شعرهم في خندق مواجهة الضلالة والاستكبار، فقد استثناهم الله تعالى في نفس السورة بقوله: (**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**).[242]

أما قول النبي (ص): ***لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً، خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً***[243]، فقد ذهب العلماء إلى تأويله بما يتوافق مع الأحاديث الأخرى الصحيحة، التي تمتدح الشعر بل وتحثّ عليه، فقالوا: **المذموم من الشعر هو ما ذمّته الآيات في سورة الشعراء، أو هو ما تغلّب على عقل المرء ولبّه، بحيث بات يشغلُه عن تلاوة القرآن وذكر الله تعالى وعمل الصالحات...**

فللشعر وقتُه، ولذكر الله تعالى وتلاوة القرآن وقتُه... والحقيقة أن الشعر الموظَّف في خدمة دين الله، لا يمكن له إلا أن يستقي مداده من معين كلام الله تعالى، ويستمدّ نوره من شعاع ذكره..

لا يمكن لنا أن نغفل الشعر المستخدم لنصرة الباطل أو لإشعال فتيل الفتن والخصومات أو لإثارة الشهوات المحرمة، فهذا كله من الشعر المذموم المنهي عنه. **وما أسوأ قول الشاعر:**

فإن قالوا حرامٌ، قل: حرامٌ

ولكنَّ اللذائذ في الحرامِ!!

وما أسوأ قول الشاعر:

إنّما الدنيا مَدامُ

ومُدامٌ ونِدامُ

فإذا فاتك هذا

فعلى الدّنيا السلام!!

وما أروع قول الشاعر:

شريعةُ الله للإصلاح عنوانُ

وكلُّ شيءٍ سوى الإسلامِ خُسرانُ

تاريخُنا من رسولِ الله مبدوُه

وما عداه فلا عزٌ ولا شانُ

لولاه ظلَّ أبو جهلٍ يضللّنا

وتستبيحُ الدِّما عبسٌ وذبيانُ

وما أروع قول الإمام الشافعي:

إذا شئتَ أن تحيا سليماً من الأذى

وقلبُك مرتاحٌ وعِرضك صيُّن

لسانُك لا تذكُر به عورةَ امرئٍ

فكلّك عوراتٌ وللناس ألسنُ

وعينُك إن أبدَت إليك معايباً

فصُنها وقل: يا عينِ للناس أعينُ

وعاشر بمعروفٍ وسامحْ من اعتدى

وفارقْ ولكنْ بالتي هي أحسنُ

إذاً كانت الخنساء شاعرةً فصيحةً أديبة، وكان النبي (ص) يستمع لها وهي تنشد الشعر، أي تقوله، وكان يمتدحها قائلاً: هيه يا خُناس..

ألا يدعونا امتداح النبي للخنساء وتشجيعه لها على قول الشعر إلى إعادة بعض حساباتنا اليوم!!

ما هو المستند الشرعي من القرآن الكريم والسنة الشريفة الصحيحة للناس الذين يحرّمون ظهور النساء المسلمات في المؤتمرات والندوات ووسائل الإعلام بشكلٍ شرعيّ محتشمٍ ملتزمٍ بتعاليم الإسلام وأهدافه؟!؟

في الحقيقة ليس هناك دليلٌ شرعيٌّ صريح وواضح في هذا المجال، وحجتهم الوحيدة تتلخص في مبدأ (سدّ الذرائع) أي الوسائل، وحسب رأيهم فإن إلقاء المرأة للخُطب والأشعار والدروس والمواعظ بحضور الرجال، يؤدّي إلى افتتان الرجال، وينبغي بناء على ذلك أن يُحَّرم على المرأة القيامُ بأي نشاطٍ أمام الرجال، ولو كانت المرأة متسترة ومحتشمة باللباس الإسلامي، ومنضبطة في مشيتها وكلامها بالأدب الإسلامي.. إذ كل ما أوصل الى حرام أو شبهة حرام فهو حرام...

والحقيقة أن التوسع في الأخذ بمبدأ سدّ الذرائع، قد يجرّ إلى تحريم ما أحلّه الله تعالى، وهذا منهيٌّ عنه شرعاً، فالله تعالى يقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[244]. (

ويقول:(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).[245]

فتحريم الحلال لا يقلّ إثماً عن تحليل الحرام، بل ربما يزيد..

انظروا كيف قال تعالى بعد النهي عن تحريم الطيبات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[246]، والاعتداء على شرع الله أمر عظيم توعّد الله تعالى فاعله

بالإثم الشديد حيث قال:(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).[247] ۗ

إذاً، سدّ الذرائع مبدأ معمول به، بشرط أن لا يوصل إلى تحريم ما أحله الله تعالى، وبناء على هذا فإن المشاركة النسوية في المحافل العامة جائزةٌ، إذا كانت منضبطة بالضوابط الإسلامية، لأن الحكم والفيصل في ذلك نصوص الشرع الواضحة والصريحة، فالله تعالى هو المشرّع، وهو أعلم بما يصلح لعباده وما لا يصلح، وما أحلّه لنا الله تعالى في القرآن الكريم أو على لسان نبيه في السنة الشريفة الصحيحة عملنا به، وما نهانا عنه انتهينا..

* * *

ونعود إلى الخنساء لنقول:

كانت الخنساء شاعرة منذ عصر الجاهلية، وعندما قتل أخواها صخر ومعاوية حزنت حزناً شديداً، وبكتهما أعواماً طويلة، وندبتهما بشعرها الحزين، وأسرفت في ذلك، حتى امتلأ ديوانها به... ومما قالته في رثاء أخيها صخر:

أعينيّ جودا ولا تجمُدا

ألا تبكيانِ لصخرِ النّدى

ألا تبكيان الجريءَ الجميلَ

ألا تبكيان الفتى السيدا

طويلَ العمادِ عظيمَ الرقادِ

ساد عشيرتَه أمردا

ومما قالته أيضاً في أخيها صخر:

وإنّ صخراً لمولانا وسيدُنا

وإن صخراً إذا نشتو لنحّار[248]

وإن صخراً لتأتمّ الهداةُ به

كأنه علَمٌ في رأسه نارُ

مثلُ الرُّدَينيّ[249] لم تنفذ شبيبتُه

كأنه تحت طيِّ البُردِ أسوارُ

وقالت في رثائه أيضاً:

أمِن حدث الأيام عينك تَهمُل

وتبكي على صخرٍ وفي الدهر مذهلُ

وقالت تنعى أخاها معاوية:

ألا لا أرى في الناس مثلَ معاويه

إذا طرقت إحدى الليالي بِداهيه

ألا لا أرى كالفارس الوردِ فارساً

إذا ما دعته جرأةٌ وعلانيه

وكان لزازَ الحربِ عند شبوبِها

إذا شمّرت عن ساقِها وهي ذاكيه

وقوَّاد خيلٍ نحو أخرى كأنها

سُعالٌ وعقبانٌ عليها زبانيه

فأقسمتُ لا ينفكّ دمعي وعَولتي

عليكَ بحزنٍ ما دعا الله داعيه

بَلينا وما يبلى تَعارُ وما يُرى

على حدث الأيام إلا كما هيه

هذا هو حال الخنساء لمقتل أخويها في الجاهلية: بكاء وحزن ورثاء لسنوات طوال، لم يرقأ لها دمع، ولم يهنأ لها جفن، فكيف كان حالها بعد الاسلام؟!

يروي كتّاب التراجم أنها قدمت إلى النبي (ص) مسلمةً مع قومها من بني سُليم، وأنه كان (ص) يستنشدها الشعر، فتنشد أمامه الشعر، أي تقوله، فيعجبه شعرها كما ذكرنا، ويقول لها مادحاً: هيه يا خناس!!

ولكن ماذا بعد ذلك؟! هل بقيت الخنساء بعد إسلامها، ترثي بأشعارها الجميلة الحزينة أخويها صخراً ومعاوية؟ وهل ظلّ الحزن والبكاء رفيقيها في حلّها وترحالها؟

يروى أنها دخلت على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهي تلبس صِداراً من شعر حيوانٍ، يغطي عنقها إلى سرّتها، وكان الجاهليون يلبسون هذا الصدار حداداً على الأموات، فقالت لها أم المؤمنين: ما هذا يا خنساء؟ أما علمت أن النبي (ص) نهى عن ذلك!!

أجابتها الخنساء: والله لم أعلم يا أم المؤمنين.. ولكنّ لهذا الصدار قصةً دعتني إلى لبسه، فقد زوجني أبي سيد قومه، وكان رجلاً مبذِّراً، أسرف في ماله حتى أنفده، فأتيت أخي صخراً أستعينه، فقسم ماله شطرين، وأعطاني أحسن الشطرين، ولكن زوجي عاد إلى إسرافه وتبذيره، حتى أذهب المال، فقسم صخرٌ ماله مرة ثانية وأعطاني أحسنه، فقالت له زوجته مغتاظة: أماترضى أن تعطيها النصف حتىتعطيها الخيار!!

فأجابها:

والله لا أمنحها شرارَها

وهي التي أُرحضُ عني عارَها

ولو هلكتُ خرقت خمارَها

واتخذتْ من شعرٍ صدارَها

ومنذ ذلك الوقت آلت الخنساء، ألا يفارق الصّدار جسدها ما بقيت، وفاء منها لذكرى أخيها الذي قاسمها ماله مرتين..

والحقيقة أن صورة الخنساء في ظلّ الإسلام، وفي حياة النبي (ص) خصوصاً، تغيب عنا فترة من الزمن، لتبرز بعد ذلك في أبهى حلّة وأعظم صورة وأقوى موقف، وذلك في معركة القادسية..

كان ذلك سنة ١٤ هجرية، حين أرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سعداً بن أبي وقاص على رأس جيش المسلمين لفتح العراق وتحريرها من الإمبراطورية الفارسية الغاشمة، التي استعبدت أهل العراق، ففرضت عليهم الضرائب الجائرة، وحرمتهم من العلم ومن الحرية الدينية ومن أبسط حقوق الحياة، إلى جانب منعها دعاة الإسلام من الدعوة إلى الله تعالى في تلك البلاد..

سار جيش سعدٍ للجهاد في سبيل الله تعالى، حتى وصلوا إلى القادسية من أراضي العراق، وهناك التقى الجيشان: جيشُ المسلمين وقائدهم سعد بن أبي وقاص، وجيشُ الفرس وقائدهم رستم. وقد اختلف المؤرّخون في عدد جيش المسلمين، والأرجح أنهم بلغوا ثلاثين ألف مسلم، كما اختلفوا في عدد جيش الفرس ما بين ستين ألفاً ومئة ألفٍ. والعدد كما تلاحظون غير متكافىء بين الجيشين، فضلاً عن أن مع جيش الفرس آلة قتال رهيبة، لم يعهدها المسلمون من قبل، ولم يألفوها: عدد كبير من الفيلة، يقال: إنهم ثلاثون فيلاً، ويقال: سبعون.

وكان اليوم الأول من المعركة يوماً شديداً على المسلمين، حيث جعلت الخيول تفرّ بسبب رؤيتها للفيلة وسماعها لصوتها..

شاركت الخنساء في معركة القادسية ضمن جمع نسويّ، فكنّ يخدمن الجيش، يطعمن ويسقين ويرعين أمور الجنود، ويردُدنَ الجرحى والقتلى إلى معسكر المسلمين..

اغتمّ جميع من في الجيش رجالاً ونساءً، لما حدث في اليوم الأول من المعركة بسبب الفيلة، واجتمع سعدٌ قائد جيش المسلمين بكبار قوّاده، يسألهم عن حيلة تمكّنهم من التغلب على الفيلة، وتفتّق ذهن البعض عن حيلتين بارعتين، أولهما: أن يصوّب بعض الرماة نبالهم إلى ركبان الفيلة، فينشغلون بصدّ النبال عن أنفسهم، فيتسلّل بعض الجنود إلى خلف الفيلة، ليقطعوا الركائب المشدودة على ظهورها، وقد أسفرت هذه الحيلة عن ارتفاع أصوات الفيلة وهيجانها يميناً وشمالاً، فضلاً عن إصابة بعضها بالسهام.

أما الحيلة الثانية فهي إلباس بعض الإبل لباساً مبرقعاً، تظهر فيه الإبل شبيهةً بالفيلة، مما جعل منظر الفيلة مألوفاً لدى الإبل، كما أدّى إلى توقّف الفيلة عن التقدم بين صفوف المسلمين...

ثلاثة أيام مضت، والحرب سجالٌ بين المسلمين والفرس، لا غلبة لأحد الطرفين على الآخر..

أحسّت الخنساء بالخطر الكبير الذي يحدق بالمسلمين، وأدركت أن هزيمتهم أمام الفرس في هذه المعركة، تعني اشتداد عود الفرس واستمرار طغيانهم واستبدادهم، وربما يجرّهم هذا إلى التفكير في غزو المسلمين في عقر دارهم..

لذلك.. لا بدّ من التضحية، ولا بدّ من الاستبسال في سبيل نصرة دين الله، فإما النصر أو الشهادة...

جمعت الخنساء أولادها الأربعة عشية الليلة الثالثة من ليالي المعركة، وخطبت فيهم قائلة:

يا بنيّ إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم - بنو امرأة واحدة، ما خُنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجّنت حسبكم[250]، ولا غيّرت نسبكم. وإنكم تعلمون ما أعدّه الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين...

سكتت الخنساء هنيهة، وهي تنظر إلى أولادها بعينين اغرورقتا بالدموع، ثم تابعت تقول:

اعلموا يا أبنائي أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، والله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا - وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[251].

وتابعت الخنساء حديثها على هذه الشاكلة، وهي تحمّس أولادها، وترفع عزيمتهم، وتشحذ هممهم للجهاد في سبيل الله.

في اليوم الرابع من معركة القادسية، خرج أبناء الخنساء إلى لقاء العدو، وهم يحملون معهم شحنات الحماس والإيمان والإخلاص، التي زوّدتهم بها أمهم الخنساء..

ما تزال كلماتها الأخيرة تجلجل في آذانهم: الدار الباقية خير من الدار الفانية.. الدار الباقية خير من الدار الفانية..

فارتجز أوّلهم منشداً:

يا إخوتي إنَّ العجوز الناصحه

قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه

مقالةً ذاتَ بيانٍ واضحه

فباكروا الحربَ الضروس الكالحه

وإنما تلقونَ عند الصائحه

من آلِ ساسانٍ كلاباً نابحه

قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه

وأنتمُ بين حياةٍ صالحه

أو ميتةٍ تورث غُنماً رابحه

وتقدم وقاتل حتى استشهد، فأنشد ثانيهم قائلاً:

إنَّ العجوز ذاتُ حزمٍ وجَلَد

والنظرِ الأوفقِ والرأي السدد

قد أمرتنا بالسّداد والرّشد

نصيحةً منها وبرًّا بالولد

فباكروا الحرب حماةً في العدد

إما لفوزٍ باردٍ على الكبد

أو ميتةٍ تورثكم عزّ الأبد

في جنة الفردوسِ والعيشِ الرغد

ثم شدّ على الأعداء، فقاتلهم حتى استشهد.. فتقدم ثالث أولاد الخنساء يقاتل مستبسلاً، وهو يرتجز:

والله لا نعصي العجوزَ حرفا

قد أمرتنا حدَباً وعطفا

نُصحاً وبراً صادقاً ولُطفاً

فبادروا الحربَ الضروسَ زحفا

حتى تلفّوا آل كسرى لفّا

أو تكشفوهم عن حماكم كَشفا

ثم قاتل حتى استشهد في سبيل الله... فتقدم رابع الأبناء من الأعداء، وهو ينشد:

لستُ لِلخنسا ولا للأحزمِ

ولا لِعمروٍ ذي السناء الأقدمِ

إن لم أَرِد في الجيشِ، جيشِ الأعجمِ

ماضٍ على الهول خضَمٍّ خَضرَمِ

إما لفوزٍ عاجلٍ ومغنمِ

أو لوفاةٍ في سبيلِ الأكرمِ

ثم اخترق صفوف الأعداء يقاتل في سبيل الله حتى استشهد...

في ذلك اليوم الذي استشهد فيه أولاد الخنساء الأربعة، تمّ النصر للمسلمين بعد قتال دام أربعة أيام، وقُتل رستم قائد الفرس، وفرّ جنود العدوّ لا يلوون على شيء..

بلغ الخنساء خبرُ استشهادِ أولادها الأربعة مرفقاً بخبر النصر على الأعداء، فماذا كان موقفها يا ترى؟

هل بكتهم كما بكت أخوالهم قبل الإسلام؟؟

هل نعتهم ورثتهم أسفاً وحزناً وألماً، كما رثت أخويها من قبل؟

إن من يمعن النظر في موقف الخنساء من استشهاد أولادها الأربعة في يوم واحد، وموقفها قبل الإسلام من مقتل أخويها، لا يصدق أنه أمام نفس المرأة..

الخنساء التي بقيت زمناً طويلاً ترثي وتبكي أخويها، رفعت يديها إلى السماء عندما بلغها نبأ استشهاد أولادها الأربعة، لتقول بلسان واثق وقلب مطمئن: الحمد لله الذي شرّفني باستشهادهم، وإني لأرجو ربي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته.

الله الله يا خنساء!

إنه الإيمان يا إخوتي يصنع المعجزات!

الإيمان والرضا والاستسلام لقضاء الله كالكيمياء، يغيّر طبائع الأشياء.

رحم الله الخنساء، ورحم أولادها الأربعة، ورحم عمر أمير المؤمنين، الذي بادر صبر العجوز واستبسالها باالدفاع عن دين الله بالشكر والامتنان، فأجرى لها أرزاقَ أولادها الأربعة، حتى قُبض رحمه الله.

موقف الخنساء من استشهاد أولادها يذكّرني بموقف امرأة فلسطينية تدعى أم نضال فرحات:

رأيتها للمرة الأولى في التلفاز منذ ٧ سنوات تقريباً، ورأيتها للمرة الثانية شخصياً أثناء زيارة لها إلى سورية. وفي كلتا المرّتين كنتُ معجبةً بل ومدهوشة بها، ولو كان الانحناء يجوز لغير الله تعالى، لانحنيت لتلك المرأة إجلالاً واحتراماً وإكباراً..

هي أمّ لا كالأمهات، أمّ تصنع الأبطال، أمّ تذكّرنا بالخنساء وبصحابيات رسول الله (ص) رضوان الله عليهنّ وعلى من يقتدي بهنّ إلى يوم القيامة...

لم تكتفِ أم نضال بإيوائها المجاهدين المناضلين في منزلها، بل قدّمت أولادها أيضاً للاستشهاد في سبيل الله... ليستردّوا الأرض ويحموا العِرض.

في صورةٍ تشبه الخيال، كانت أم نضال تروي كيف تزاحم ولداها الأصغر والأكبر على الفوز بشرف البطولة والفداء..

قد تدهشون كما دهشت أنا، عندما تعلمون أن اختيار المتطوعين، يتمّ بناءً على عملية قرعة لكثرة المتهافتين على طلب الشهادة في سبيل الله.

تقول أم نضال: رست القرعة على ابني الأصغر.

عندما عاد هو وأخوه إلى المنزل، ونظرت في وجه ابني الأكبر، علمت من دموع عينيه أنه لم يحظَ بالشرف العظيم.

دخل غرفته وأغلقها بالمفتاح، سمعت صوته وهو يبكي وأنا خارج الغرفة، رجوته أن يفتح لي فلم يفعل.

في اليوم الثاني أصبح مريضاً من كثرة حزنه وبكائه.. وعندما رأى ابني الأصغر ما ألمّ بأخيه، آثره على نفسه...

نعم آثره.. أعطاه دوره في الشهادة، فعادت إليه ضحكتُه، واستردّ عافيته.

عندما ودّعته إلى الباب، قبّل يدي، وهو يقول:

ادعي لي يمّا.. موعدنا في الجنة يمّا.. -

تتابع أم نضال قائلة:

أنا أم كأيّ أم.. أحب أولادي أكثر من نفسي، لكني أحب وطني وديني أكثر منهم. أرجو الله أن يجمعني بهم - في مستقرّ رحمته، في جنة عرضها كعرض السموات والأرض.

عندما سمعت أمُّ نضالٍ نعيَ ولدها، دمعت عيناها، فهي أمّ أولاً، وبشرٌ ثانياً، ولكنها مع ذلك زغردت زغرودةَ الفرح بالجنة، وزغرودة الأمل بالنصر، وزغرودة البشرى باسترداد الأقصى الأسير.. وزغرودة رابعة وخامسة وسادسة..

دموعٌ وزغاريد، هكذا يُزفّ الشهداءُ في فلسطين...

ولقد رأينا بأمّ العين نساء وأطفال المجاهدين في العُدوانَين، اللذين شنّتهما إسرائيلُ الغاصبة على أهلنا في جنوب لبنان في تموز ٢٠٠٦م، وعلى أهلنا في قطاع غزّة في نهاية عام ٢٠٠٨م، رأيناهم وهم يحمدون الله على نعمة استشهاد الأحبة في سبيله تعالى.

إذن.. هكذا يزفّ الشهداء في فلسطين، وهكذا زَفّت الخنساء وصحابياتُ الرسول أولادهنّ وأزواجهنّ وأحبابهنّ، عندما استشهدوا في سبيل الله.

في كل زمان ومكان يجود الله على هذه الأمة الودود الولود بخنساواتٍ، يبذُلنَ الغالي والرخيص في سبيل نصرة الحق والعدل والإيمان.

رحم الله الخنساء رحمة واسعة، ونفعنا بذكراها وذكرى كل الصالحين والصالحات.

* * *

نسمع ممن يزورون قبرص، أنهم زاروا قبر الصحابية الجليلة أم حرام..

من هي أم حرام؟ وكيف وصلت إلى قبرص؟ ولماذا دفنت هناك؟

هذا ما سنعرفه إن شاء الله تعالى في البحث القادم.

***

---

223 الليل والنهار.

224 سورة الشعراء، الآية: ٢٢٤.

225 رواه البخاري في الصحيح، ٥/٢٢٧٩، حديث (٥٨٠٢).

226 رواه البخاري في الأدب المفرد، ١/٣٠١، حديث (٨٧٢)، صححه الألباني.

227 رواه البخاري في الصحيح، ٥/٢٢٧٦، حديث (٥٧٩٣).

228 سنن الترمذي، ٥/١٤٠، حديث (٢٨٥٠). وصححه الألباني.

229 تهذيب الآثار للطبري، ٢/٤٢٤، حديث (٥٤١).

230 رواه مسلم في الصحيح، ٧/١٦٤، حديث (٦٥٥٠).

231 الهام: أعلى الرأس.

المقيل: الموضع والمستقى. 232

رمي السهام. 233

سنن الترمذي، ٥/١٣٩، حديث (٢٨٤٧). وصححه الألباني. 234

رواه البخاري في الصحيح، ٣/١٠٥١، حديث (٢٧٠٩). 235

رواه مسلم في الصحيح، ٥/١٨١، حديث (٤٧٥٥). 236

رواه الترمذي في السنن، ٥/١٣٩، حديث (٢٨٤٨). وصححه الألباني. 237

سورة يس، الآية: ٦٩. 238

سورة الشعراء، الآية: ٢٢٤. 239

رواه البخاري في الصحيح، ٥/٢٢٧٩، حديث (٥٨٠٢). 240

سورة الشعراء، الآية: ٢٢٦-٢٢٤. 241

سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧. 242

رواه البخاري في الصحيح، ٥/٢٢٧٩، حديث (٥٨٠٣). 243

سورة المائدة، الآية: ٨٧. 244

سورة الأعراف، الآية: ٣٢. 245

سورة المائدة، الآية: ٨٧. 246

سورة البقرة، الآية: ٢٢٩. 247

لأن نحر الجزور في الشتاء. 248

الرديني: رماح مشهورة عند العرب. 249

الْهَجِينُ: ابن العرَبِيِّ من الأمَةِ الراعِيَة. 250

سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠. 251

الصحابيةُ الجليلةُ

أم حَرام بنتُ مِلحان

سنتحدث هنا أعزائي القرّاء عن صحابيةٍ أنصارية، كانت لها ولعائلتها مكانةٌ مميَّزة عند رسول الله (ص)..

أختها هي الصحابية الجليلة أم سُليم الأنصارية، الملقبة بالغميصاء أو الرّميصاء، والدةُ أنسٍ بن مالك، خادمِ النبي (ص)، والتي سبق أن تكلمنا عن سيرتها.

وأخواها سليم بن ملحان وحَرام بن ملحان، وقد استشهدا في سبيل الله يوم بئر معونة..

أما زوجها الأول فهو الصحابي الجليل عمرو بن قيس، استشهد هو وولدها قيس بن عمرو في غزوة أحد، فتزوّجها الصحابي الجليل عبادةُ بن الصامت، أحدُ النقباء الاثني عشر، الذين اختارهم الأنصار يوم العقبة الثانية بناء على طلب النبي (ص)..

هذه العائلة الجليلة هي من أنصار المدينة المنورة، الذين تسابقوا إلى بذل الغالي والرخيص في سبيل الله، ولنصرة رسول الله، (ص).

تلك هي أمُ حَرام بنتُ مِلحان الأنصاريةُ النجّارية..

دعونا نبدأ بسيرة تلك الصحابية من حادثة مفصليّة في حياتها...

كان ذلك سنة ثمانٍ وعشرين للهجرة..

كانت أمُ حَرام آنذاك امرأة كهلة مسنّة، تركب أمواج البحر مع زوجها عبادة بن الصامت وبعض صحابة النبي (ص)، ومنهم أبو ذر الغفاري وأبو الدرداء وشدّاد بن أوس..

كانت تلك أولَ مرّة ترى فيها أمُ حَرام البحر، هذا المخلوق البديع العجيب الرهيب... الذي يرى أولهُ ولا يرى آخرهُ، تتلاطم الأمواج فيهِ، لتصل أحياناً إلى ارتفاع أعلى من ارتفاع البيت الذي تسكنه أمُ حَرام. تعيش فيه مخلوقاتٌ غريبة عجيبةٌ مختلفة الأحجام والألوان، وينبت في قاعه نباتٌ يختلف عما تعرفه من نباتات اليابسة..

تذكرت أم حرام وصف عمرو بن العاص للبحر، حين كتب إليه عمرُ بن الخطاب رضي الله عنهما قائلاً: صف لي البحر وراكبه، فإّن نفسي تنازعني إليه. (وكان معاوية بن أبي سفيان قد استأذنه في ركوب البحر لنشر دين الله تعالى في الجزر المبثوثة فيه).

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إني رأيت خلقاً كبيراً، يركبه خلق صغير، ليس إلا السماءَ والماء. إن ركد خرق القلوبَ، وإن تحرّك أزاغ العقولَ. الناس فيه كدودٍ على عودٍ، إن مال غرق، وإن نجا برِق..

فلما قرأ أمير المؤمنين عمر وصف عمرو بن العاص للبحر، كتب إلى معاوية: والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً.

تمتمت أم حَرام: لله درّك يا عمرو، والله لم يعدُ البحرُ ما وصفته به!!

فجأة هبّت رياح قوية، حرّكت القارب الذي يضمّ أمُّ حرام وزوجُها يمنة ويسرةً في حركة عشوائية، وبدأت أمواج البحر تعلو وتهبط..

تخيّلتها أمُ حَرام كأنها ماردٌ عملاق، يريد التهام فريسته. فنظرت بفزع إلى بقية القوارب، التي يستقلّها باقي الصحابة، وقد تقاذفتها الريح كريشة صغيرة لا تملك لنفسها حولاً ولا قوة! تمسّكت بزوجها عبادة، وقلبها يطرق بشدة.. صاح عبادة بمن في القارب: تمسّكوا بالحبل جيداً، وإلا قذفتنا الأمواج خارج القارب ....

لم تعد أمُ حَرام تسمع أو ترى شيئاً مما يجري حولها، فقد أغلقت عينيها، وسبحت في مناجاة روحانيّة لربها الإله القادر المقتدر.. خالقِ البحر والسماء والشمس والأرض..

كانت تدرك أنها بهذا وبهذا فقط تستطيع أن تصبر وتثبت وتتماسك، فاللهُ وحده هو القادر على معونتهم وعلى إيصالهم إلى برّ السلام بسلام...

ولكن.. ماذا كانت أم حرام ومن معها يفعلون في البحر؟!

سأخبركم...

ذات يوم زار النبي (ص) آل أمِّ حَرام في بيتهم، وكثيراً ما كان يزورهم، فلما حان وقت قيلولته، فرش له زوجُها عبادة فراشاَ، فاضطجع عليه (ص)، فأخذته سِنةٌ من النوم، ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت أمُ حَرام: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ***رأيتُ أناساً من أمتي عُرضوا عليّ غزاةً في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر مثلَ الملوك على الأسرّة***[252].

لمعت عينا أم حرام، وقالت بصوت ضارع: ادعُ الله يا رسول الله أن يجعلني منهم. فرفع النبي (ص) يديه، ودعا لأم حرام أن تكون مع هؤلاء المجاهدين، ثم أغمض عينيه وأخذته سِنة من النّوم مرة أخرى، استيقظ إثرها وهو يضحك. فرددّت أم حَرام : ما يضحكك يا رسول الله؟

أجابها: ***ناسٌ من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرّة، قد وجبت لهم مغفرة الله تعالى***[253].

هتفت أم حَرام بضراعة: ادعُ الله يا رسول الله أن يجعلني منهم.

أجاب (ص) مبتسماً: ***أنتِ منهم.. أنت من الأوّلين***[254].

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله. ها هي نبوءتك تتحقق، وها أنذا أركب البحر لأغزو في سبيل الله..

هكذا ردّدت أمُ حَرام في سرّها، وقد زال ما في قلبها من خوف واضطراب، وحلّ محله السكينة والطمأنينة والشوق...

أجل الشوق! فهي في شوقٍ للوصول إلى قبرص، تلك الجزيرة القابعة في وسط البحر، والتي أخضعها الرومان قسراً لإمبراطوريتهم الغاشمة، ومارسوا على أهلها صنوف الأذى والاستبداد.

كم تتوق أمّ حرام إلى نشر دين الله بين أبناء تلك الجزيرة، وتحريرِ أهلها من ظلم الرومان!!

فتحت عينيها ونظرت حولها، فإذا الريح قد سكنت، والقوارب قد استقرّت على سطح البحر...

اقتربت من زوجها وهمست في أذنه: متى سنصلُ يا عبادة...متى؟

أجابها: نحن بحاجة إلى يومين أو ثلاثة حتى نصل.

رددت: ماذا؟! يومان أو ثلاثة! إذاً ما يزال أمامها وقتٌ طويلٌ، لتطأ قدماها جزيرة قبرص!

أتراها تبلغ ذلك اليوم، أم أن أمواج البحرِ قد تحول بينها وبين بلوغ مأرَبِها؟؟

اعترتها قشعريرة، عندما تخيلت الأمواج المتلاطمة، تبتلعها إلى جوف البحر، لتصبح قوتاً لمخلوقاته العجيبة...

تذكرت أمُ حرام الجهد الذي بذله معاوية بن أبي سفيان والي دمشق في إقناع أمير المؤمنين عثمان بن عفان بركوب البحر من أجل نشر دين الله.

كانت حُجة الخليفة عثمان في الامتناع عن الموافقة كحُجة سلفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، والتي تتلخص في الخوف على جيش المسلمين من مخاطر ركوب البحر، هذا المخلوق الرهيب.. لكنَّ عثمان وافق على ذلك أمام إلحاح معاوية، واشترط عليهِ أن لا يجبر أحداً من المسلمين على الخروج في تلك الغزوة، بل يترك الأمر لرغبتهم واختيارهم..

وافق معاوية على الشرط، وأعدّ أسطولاً بحرياً مؤلَّفا من عدد كبير من القوارب، وأعلن بين المسلمين عن نيته في المسير إلى قبرص لفتحها ونشر دين الله فيها.. وانطلق المجاهدون في سبيل الله إلى قبرص يخوضون البحر الأبيض المتوسط بقيادة عبد الله بن قيس، بعضهم انطلق من الشام وبعضهم الآخر من مصر.

لا تنسى أمُّ حَرام ذلك اليوم أبداً.. وكيف تنساه، وقد انتظرته سنواتٍ طويلة، وبالتحديد منذ تلك الرؤيا التي رآها النبي (ص) في بيتها، والبشرى التي زفّها إليها قائلاً: أنتِ منهم يا أم حِرام.. أنتِ منهم..

رفعت أمُ حَرام يديها إلى السماء تشكر ربها، أن أنالها شرف السبق لخوض البحر جهاداً في سبيل الله، وتدعوه أن يجعلها ممّن قال فيهم النبي (ص): ***أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِى يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا. أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِى يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ***[255].

لم تكن أمُ حَرام المرأة الوحيدة التي خرجت لفتح قبرص، بل كان هناك نساءُ أُخريات، منهن فاختةُ بنتُ قرظة زوجةُ معاويةَ بن أبي سفيان. لم تجبن تلك النساء عن ركوب البحر، فكل المخاطر في نظرهنّ تهون، مادام في ذلك رضاء لله ورسوله.

لنا هنا وقفة مع أم حرام رضي الله عنها، نعقد فيها مقارنة بينها وبين ما عليه حال كثير من نسائنا اليوم.

تولد الواحدة منهن وتعيش وتموت دون أن يكون لها رسالةٌ ساميةٌ، تعمل وتكدح من أجلها، لا همّ لها إلا أن تأكل وتشرب وتتناسل.

بعضٌ آخر من النساء يملكن رسالة وهدفاً في الحياة، ولكن إحداهنّ لا تعرف كيف تخطط للوصول إلى ما تطمح إليه! أيامها كلها سواء.. السنوات كالشهور، والشهور كالأيام، والأيام تمرّ تلو الأيام، والفوضى وتضييعُ الوقت سيدُ الموقف المتحكمُ بالحياة، وأختنا الكريمة تكتفي بالأماني والأحلام، التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

هؤلاء النّساء ينطبق عليهم قول الشاعر:

قد مات قومٌ وما ماتت مكارمُهم

وعاش قومٌ وهم في الناسِ أمواتُ

والحقيقة أن حياة المرء لا تقاس بالسنوات والشهور والأيام، بل بمدى ما يحقّقه من إنجازات، و بمقدار ما يتركه من بصمات، لا تموت بموتهِ، ولا تزول بزواله.

زوجاتُ النبي (ص) وبناتُه وصحابياتُه رضي الله عنهن أجمعين يمتلكن رسالةً وهدفاً، وضعنَه نصبَ أعينهنّ، وسعينَ جاهداتٍ لتحقيقه والوصول إليه. ولذلك نرى ذكراهنّ ما تزال إلى اليوم مشعَّة نابضةً بالحياة، رغم أن الموت اختطف أجسادهن، وغيَّبها تحت الثرى منذ أمدٍ بعيد.. وفي هذا يقول الشاعر:

دقاتُ قلبِ المرء قائلةٌ لهُ

إنَّ الحياةَ دقائقٌ و ثواني

فارفع لنفسكَ بعد موتِكَ ذكرَها

فالذكرُ للإنسانِ عمرٌ ثاني

أليس حرياً بنا أخواتي أن تتساءل إحدانا: أين أنا اليوم؟ وأين أريد أن أكون في المستقبل؟!

ربما كنا كلنا نعرف أين نحن الآن، ولكنّ معظمنا لا يعرف ماذا يريد أن يكون.. ما هي رسالته في الحياة.. وما هي مخطّطاته لتحقيق تلك الرسالة!

قرأتُ مقولةً أعجبتني، قيلت على سبيل السخرية من الذين لا يعرفون ماذا يريدون أن يفعلوا في حياتهم: إذا أردتَ أن تصل إلى أي مكانٍ لا على التعيين، فليس عليك بذل جهدٍ كبير! فقط امش بضع خطواتٍ في أيّ اتجاه، وستصل بعد دقيقة واحدة! أما إذا كنتَ تريد الوصول إلى مكان معيّن، فعليك أن تعرف أين أنت الآن، وإلى أين تريد أن تذهب، وكيف يمكن أن تصل!

يشبّه البعض الشخصَ الذي لديه رسالةٌ ورؤيةٌ لتحقيق تلك الرسالة، بقبطانٍ يقود سفينته في خضمّ البحار، يعرف الموانئ الجيدة وغير الجيدة، ويعرف أماكن القراصنة، ويستطيع أن يبتعد عنها، ولديه خريطةٌ وبوصلةٌ واضحة تهديه في طريقه.

أما الشخص الذي لا يملك رسالة ولا مخططاً، فهو كالقبطان التائه، لا يدري كيف سيسير، ولا يعرف المواني، ولا يملك خريطةً تنجيه، وبوصلةً تهديه، ولا يرى حوله إلا ماءً وسماءً.

قبطانٌ كهذا، هل يصل بالسفينة إلى حيث يريد؟ وهل ينجو من غدر البحار؟؟ لا أظن ذلك!

يقول علماء النفس: الشخص الذي لا رسالة له، معرّض لهزّات اجتماعيةٍ ونكباتٍ ماليةٍ واضطراباتٍ نفسية، ولا يمكن أن يعيش سعيداً ولا ناجحاً.

عندما يعرف الإنسان ماذا يريد، وكيف يصل إلى ما يريد، تتولّد في نفسه طمأنينةٌ داخلية، وهذه الطمأنينة مفتاحٌ من مفاتيح السعادة، رغم ما قد يعترض صاحبها من متاعب جسدية.

إخوتي وأخواتي:

السعادة لا تُنال بالمال والعقارات والشركات والنزهات، ولا بالشهرة والإطراء..

السعادة الحقيقية هي في داخل الإنسان، وفي أعماق نفسه البشرية.. هي شيء معنوي لا يُرى بالعين، ولا يقاس بالكمّ، ولا تحتويه الخزائن، ولا يُشترى بالمال.

السعادة الحقيقية لا ينالها المرءُ ولا يحصل عليها، إلا إذا كانت رسالته وأهدافه وفقاً لما يرضى عنه الله ورسوله، يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ 256.

نعود إلى أم حَرام، لنراها فرحةً مستبشرةً، وقد اقتربت القوارب من ساحل قبرص.

كان قلبها يخفق من شدة الفرح...

ها قد جاء اليوم الذي ظلّت تنتظره أكثر من ثمانية عشر عاماً...

وحطّت قوارب المسلمين الفاتحين على أرض تلك الجزيرة، ولم تحصل معركةٌ بين المسلمين وبين أهل قبرص، بل عقد الجانبان صلحاً واتفاقاً.

شهدت أمُ حَرام ذلك الصلح، ومكث الجيش الإسلامي في قبرص مدةً من الزمن، تمكّن فيها المسلمون من أن يبيّنوا لأهلها تعاليم الدين الجديد المكمّل للرسالات السماوية السابقة، رسالة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم صلوات الله وسلامه...

وعندما نادى المنادي بالرحيل، توجّه المسلمون من جديد إلى ساحل البحر، ليركبوا قواربهم وييمّموا وجوههم صوب بلادهم عائدين....

كانت أمُ حَرام تركب على ظهر بغلة شهباء، وتسير إلى جانب زوجها عبادة ضمن قافلةِ المتوجهين إلى ساحل البحر في قبرص..

سمعها زوجُها عبادة تردد بحبور: الحمد لله، الحمد لك يا رب أن بلّغتني دعوة نبيك، وشرّفتني بتبليغ دينك...

ثم أردفت تدعو بدعائها المعتاد، الذي كانت تدعو به عقب كل صلاة: اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك وثواب الشهداء.

ردّد عبادة خلفها: اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك وثواب الشهداء، وهو يتذكر ما علمهم إياه النبي (ص) في يوم من أيام الصحبة الجميلة الفريدة: ***من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه***[257].

لا أحد يدري كيف حدث ما حدث**!!**

فجأة جفلت بغلةُ أم حَرام، ورفعت قوائمها الأمامية، وهي تصدر أصواتاً غريبة.

وقعت أمُ حِرام من على ظهر البغلة.. هرع عبادة إلى زوجته ليساعدها.. كانت تتأوّه من الألم.. وضع رأسها المدمَى على ركبتيه، وهو يصيح بأصحابه ليُحضروا من يعالجها.

كانت أمُ حَرام فاقدةً للوعي، والدم يسيل من رأسها بغزارة... ضمّها عبادة إلى صدره، وتمازجت دموعه مع دمائها...

فتحت عينيها بصعوبة، ونظرت إليه نظراتٍ ذات مغزى، ثم رددت بصوت متقطع: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

وفاضت روحُها إلى باريها في ذلك المكان النائي عن الديار، وقد شاءت إرادة الرحمن أن تنال أمُ حَرام ثواب الشهادة في سبيل الله، على الرغم من أنها لم تشهر سيفاً ولم تقاتل أحداً....

نعم ماتت شهيدة، وهي تجاهد في سبيل الله جهادَ الدعوة وتبليغ الرسالة.. فالشهادة كما علمنا سابقاً لا تنحصر في شهيد المعركة، بل هناك شهداء لم تطأ أقدامهم أرض المعركة، ومع ذلك يكتب لهم ثواب الشهادة مصداقاً لحديث النبي (ص): ***من قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن***[258] ***فهو شهيد*.** وفي رواية: ***والغريق شهيد***[259].

توقّف الجيش عن المسير إكراما لتلك الصحابية الجليلة، وشُيِّع جثمانُها إلى مثواه الأخير، بعد أن غُسّلت وكُفّنت وصُلّي عليها...

وهناك في أرض قبرص، ضمّ ترابُها جسد الصحابية الشهيدة..

وانحنى الزوج أمام قبر الحبيبة، وكأنه يهمس لها بشيء...

لاحت في ذاكرته نظراتها الأخيرة! فهم منها أنها تواسيه وتوصيه بالصبر، وفهم شيئاً آخر، فتمتم بخشوع: موعدنا الجنة بإذن الله يا أم حَرام.. موعدنا الجنة...

عاد الجيش أدراجه، وبقي قبر أم حَرام هناك في قبرص، يذكّر المسلمين إلى قيام الساعة، بما تحمّله سلفُهم الصالح من مشاقّ، وما تكبّدوه من مصاعبَ وأهوالٍ في سبيل نشر دين الله تعالى...

بإمكان كل من يزور قبرص اليوم أن يزور قبر تلك الصحابية الجليلة، ولو أنه توقّف هناك وأصاخ السمع قليلاً، لربما سمعها تعاتبه وتلومه..

أظنّ أن محتوى عتابها يتوافق مع قول الشاعر لأمّة الإسلام:

يا أمتي..

كلّ شعبٍ قام يبني نهضةً

وأرى بنيانكم مُنقسما

في قديم الدهرِ كنتم أمَّة

لهفَ نفسي كيف صرتم أمما!!

من قبرص، وبالتحديد من مسجد تكية هالة سلطان، الذي بني بالقرب من ضريح الصحابية أم حَرام عام ١٨١٦م في عهد العثمانيين، يستطيع الزائر أن يدرك سبب عتاب أم حَرام...

فالقبر أو الضريح يقبع في القسم الجنوبي من جزيرة قبرص، ويسكنه اليونانيون، ويحتاج الأتراكُ المسلمون الذين يسكنون الجزء الشمالي من الجزيرة إلى معاملة طويلة عريضة، ليُسمح لهم بالدخول إلى القسم الجنوبي، الذي يضمّ رُفات الصحابية الجليلة أم حَرام بنت ملحان.

أحداثٌ جسام تعرضت لها جزيرة قبرص منذ الحرب العالمية الأولى، حين انتزعتها بريطانيا من يد العثمانيين، ودام استعمارها لقبرص حتى عام ١٩٦٠م، حيث نالت قبرص استقلالها، واشترك القبارصة الذين يعودون لأصلٍ يوناني مسيحي وتركي مسلم، في تأسيس الجمهورية القبرصية الواحدة. ولكن.. في عام ١٩٦٣م، قام بعض المتنفّذين بمحاولةٍ لضمّ جزيرة قبرص إلى دولة اليونان إحياءً للإمبراطورية الإغريقية القديمة، وغاب عن قبرص ما كان فيها من تسامح وتفاهم وعيشٍ مشترك.. وغاب عن ذاكرة من فيها قولُ نبيّ الله عيسى عليه السلام: **سمعتم أنه قيل تحبّ قَريبك وتُبغض عدوك، أما أنا فأقول لكم: أحبو أعداءكم، باركوا لاعنيكم، صلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم...**

وتعرّض القبارصة الأتراك لحملاتٍ اضطهادية، ربما يسميها البعض *حملات التطهير العرقي*، لمدة عشرة أعوام تقريباً، الأمر الذي اضطر تركيا للتدخل منذ عام ١٩٧٤ م.

وفي عام ١٩٨٤م تمّ إعلان الجزء الشمالي من الجزيرة، الذي يسكنه الأتراك المسلمون جمهورية مستقلّة عن الجزء الجنوبي، الذي يسكنه اليونانيون المسيحيون، **وانقسمت قبرص إلى قبرصين: قبرص اليونانية وقبرص التركية.**

ومنذ ذلك الحين والنزاعات قائمة بين شقّي الجزيرة.. وحدّث ولا حرج عن الاضطهادات التي تطال الجميع بلظاها: الأتراك المسلمين الذين يقطنون في الجانب اليوناني المسيحيّ، واليونانيين المسيحيين الذي يسكنون الجانب التركي المسلم!!

لا شك أنكم تتساءلون معي: **من المستفيد من إذكاء هذه النزاعات وإشعال فتيل الفتن الطائفية واستغلالها؟**

الجواب لا يختلف حوله اثنان:

أرباب المصالح والمطامع.

لكأني أسمع أمّ حَرام تناديكم يا أهل قبرص قائلة:

التعايش المشترك المظلّل بالعدالة والسلام والمحبة بين أبناء البلد الواحد، مسلمين ومسيحيين، هو ما دعت إليه رسالة المسيح وأخيه محمدٍ عليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ولعلّي أسمع صدى صوتها الخاشع يتلو قوله تعالى:(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[260]، ويردد قول النبي (ص): ***من قتل معاهَداً**[261]**، لم يرَح رائحة الجنة، وإنّ ريحهَا تُجدُ من مسيرة أربعينَ عاماً ***[262].

ويستشهد بقول المسيح عليه السلام: **طوبى لصانعي السلام.. فإنهم أحباب الله يُدعَون.**

إخوتي الكرام.. إن زرتم قبرص اليونانية، فزوروا قبر أم حرام، فهو قريبٌ من مطار لارنكا، واقرؤوا الفاتحة على روحها الطاهرة، وتذكروا هناك صحابياتِ رسول الله (ص)، وادعوا الله تعالى أن يوفّق المسلمين إلى استعادة مجدهم التليد، الذي أضاعوه بأيديهم...

* * *

سأحدّثكم في الصفحات التالية عن الرُبيِّع..

يحمل الرَّبيع من الجمال ما لا يحمله غيره من الفصول، لكنني لن أتحدّث هنا عن الرَّبيع الذي يأتي كل عام، وتأتي معه الزهزر الجميلة.. بل سأتحدث عن صحابية جليلة اسمها الرُّبيِّع بنت معوِّذ.

وأؤكد لكم إخوتي أن سيرتها العطرة، تحملُ ما هو أجمل وأرقى وأنقى من زهور الرَّبيع.

***

صحيح البخاري، ٥/٢٣١٦، حديث (٥٩٢٦). 252

253. صحيح البخاري، ٥/٢٣١٦، حديث (٥٩٢٦).

254. صحيح البخاري، ٥/٢٣١٦، حديث (٥٩٢٦).

255. صحيح البخاري، ٣/١٠٦٩، حديث (٢٧٦٦).

256. سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

257. صحيح مسلم، ٦/٤٨، حديث (٥٠٣٩).

258. شدة الإسهال.

259. صحيح مسلم، ٦/٥١، حديث (٥٠٥٠).

260. سورة النساء، الآية: ١٣٥.

261. المعاهَد هو: أهل الكتاب المستَأمن على نفسه وماله.

262. رواه البخاري في صحيحه، حديث (٣١٦٦).

الصحابيةُ الجليلةُ

الرَّبيِّعُ بنتُ معوِّذ

الرُّبَيِّع بنتُ معوِّذ الأنصاريّة النجاريّة صحابية فتيّة، ترعرعت منذ نشأتها الباكرة في أحضان الإسلام.. فعائلتها آمنت بالله تعالى رباً، وبمحمد (ص) نبياً، وبالإسلام ديناً..

فمن هي هذه السيدة التي لم يسمع بها كثيرٌ من الناس؟!

تعالوا بنا نطوف سويّة في رحاب تلك الصحابية الجليلة..

البداية ستكون مع اللحظة الحاسمة، التي قدم فيها النبي (ص) إلى المدينة المنورة، وكانت الرُّبيّع آنذاك طفلةً صغيرة السن، تقف مع أبيها المعوّذ بن الحارث وجدتها عفراء وعمومتها وكثيرٍ من الأنصار، ينتظرون النبي (ص) عند مشارف المدينة، وقد تسمّرت أعينهم تجاه الأفق البعيد، تترقب بلهفة وصول الحبيب (ص) وصاحبه أبي بكر إلى يثرب..

وعندما لمعت في الأفق ظلال النبي (ص) وصاحبه، ركضت الربيّع مع من ركضوا لاستقبالهم، ودموع الفرح تنهمر من عينيها.

كانت الكلمات تتلعثم على شفتيها المرتجفتين من الفرح، وهي تنشد مع من أنشدوا:

طلع البدر علينا

من ثنيّات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع

الله الله يا رُبيّع ... هنيئاً لك تلك اللحظات، التي يغبطك عليها كل المسلمين!

اندفعت الربيّع تخترق صفوف الأنصار، وهي تتشوّف للإمساك بخطام القصواء، ناقةِ الحبيب المصطفى، لتسوقها باتجاه دارهم المتواضعة، لعلّ عائلتها تحظى بشرف استضافة النبي (ص)..

لم تكن الربيّع وعائلتُها وحدهم من يتمنّى هذا، بل جميع الأنصار كانوا يطمحون لنيل ذلك الشرف العظيم.. وتسابق الجميع للإمساك بخطام الناقة وتحويلها جهة دورهم، ولكن النبي (ص) قال لهم مبتسماً: دعوها، فإنها مأمورة..

وجف قلب الربيّع، عندما مرّت ناقة الرسول (ص) من أمام دارهم، تخيّلتها تقف أمام الدار، وتخيلت النبي ص) يحلّ ضيفاً عزيزاً عليهم..)

لم تسعها الدنيا من الفرحة، وهي تتصور نفسها تخدم النبي الحبيب، تقدّم له الطعام، وتسوّي له الفراش، وتستقبل ضيوفه، ولكن.. سرعان ما غامت الفرحة من عينيها، وانهمرت منهما دمعتان ساخنتان، عندما تجاوزت الناقة دارهم إلى حيّ آخر.. وهناك عند فسحة خالية من البناء، اتُخذت مَربِداً يجفّف فيه التمر، يملكه غلامان يتيمان من الأنصار، بركت القصواء ناقة النبي، فنزل النبي (ص) عنها وهو يقول: ربّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين..

ثم أردف قائلاً : هنا إن شاء الله المقام.

وفي ذلك المكان بنى النبي (ص) مسجده ومساكنه، بعد أن اشترى الأرض من أولياء الغلامين اليتيمين.

عندما نزل النبي (ص) في ذلك المكان سأل: أيّ بيوت أهلنا أقرب من هنا؟

فصاح أبو أيوب الأنصاري بفرح: أنا يا رسول الله.

فمكث النبي (ص) في بيت أبي أيوب ضيفاً قرابة سبعة أشهر، حتى انتهى من بناء مسجده ومساكنه..

كم غبطت الربيّع آنذاك وجميعُ الأنصار أبا أيوب، لأنه سيستقبل ضيفاً لم ترَ البشرية ولن ترى خيراً منه!!

لست أدري إن كانت الربيّع تتردد مع جدتها وأبيها معوّذ وأمها أم يزيد بنت قيس إلى دار أبي أيوب الأنصاري، مع من تردّدوا على النبي (ص) يزورونه آنذاك، وإن كنت أرجّح هذا.. وربما أرسلتها أمها أو جدتها عفراء إلى دار أبي أيوب، تحمل للنبي (ص) الطعام هدية، كما كان يفعل جميع الأنصار..

رضي الله عنكم أيها الأنصار، نصرتم نبيّنا، وآويتموه وحميتموه، وذببتُم عنه الأذى بكل ما تستطيعون.

يروي كتّاب السيرة أن الأنصار كانوا يتناوبون في إرسال الطعام إلى النبي (ص) وهو في بيت أبي أيوب، فما من ليلة إلا وعلى باب الرسول (ص) ثلاثةٌ يحملون إليه الطعام، ولم تكن تخطئه جفنة سعد بن عبادة أو جفنة أسعد بن زرارة كل ليلة، فكان الرسول (ص) يدعو صحابته المهاجرين، ليأكلو معه مما أهداه الأنصار..

نعود إلى الربيّع بنت معوِّذ لنراها الآن في بيت جدتها عفراء مع أبيها المعوّذ بن الحارث، وقد اجتمع هناك جميع أعمامها..

لم تدرك الربيّع سبب اجتماعهم، وانشغلت بالحديث مع إحدى بنات عمومتها.. وسرعان ما توقفت الاثنتان عن الحديث حين علا صوت جدتهما عفراء، وقالت بانفعالٍ وعصبية: أنشدكم الله يا أولادي.. من رأى منكم رأس الكفر أبا جهل أن يطيح برأسه.

ثم توجهت نحو القبلة، ورفعت يديها قائلة: اللهم ارزق أولادي ثواب الشهادة في سبيلك وشرف نصرة نبيّك ودينك..

علمت الربيع فيما بعد أن أباها وعمومتها جميعاً، سيخرجون مع النبي (ص) إلى بدر، وهو وادٍ يبعد عن المدينة قرابة (١٦٠كم)، فقد بلغ النبيَّ (ص) أن قافلةً لقريش قادمةً من الشام باتجاه مكة، ستمرّ من بدر،

فندب المسلمين إلى الخروج لمصادرتها قائلاً: هذه عِير قريش فيها أموالُكم، فاخرجوا إليها لعلّ الله أن يُنفلِكُموها..

من المعروف طبعا أن قريشاً استولت في مكة قبل سنةٍ ونيّف على أموال المسلمين، الذين هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم إلى الله تعالى، ولذا فقد رأى النبي (ص) أن المال الذي في القافلة القرشية هو جزء من حقّ صحابته المهاجرين، وأنّه يجوز لصاحب الحق أن يقاتل من أجل استعادة حقه السّليب.

واللطيف في الموضوع أن الذين خرجوا مع النبي (ص) إلى بدر، لم يكونوا فقط من المهاجرين الذين طُردوا من مكة، بل خرج معهم الأنصار ينصرونهم ويدعمونهم من أجل تحصيل حقوقهم، ولم يقل الأنصار أو يخطر في بالهم أن يقولوا: على المهاجرين أن يدافعوا عن حقوقهم المغتصبة، ويحصّلوها وحدهم، بل كانوا يشعرون أنّ معنى الأخوّة في الله تتخطى حدود الكلمات، لتكون أخوَّة حقيقيَّة، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني الحب والإخلاص والتناصر والتباذل والتناصح..

خرج مع النبي (ص) للاستيلاء على القافلة ثلاثمئةٍ وأربعة عشر صحابياً، أربعةٌ وسبعون منهم من المهاجرين ومئتان وأربعون من الأنصار..

لكنَّ الحال تحوَّل من مصادرة أموال القافلة إلى معركة حقيقية، فقد غيّر أبو سفيان الطريق الذي اعتادت القوافل أن تسير فيه، وأرسل إلى قريش رسولاً يعلمهم بما عزم عليه محمد (ص)، ويحثّهم على نجدة أموالهم، فتجهزت قريش للخروج لنجدة القافلة ومقاتلة النبي (ص) وصحابته، وهيّأت جيشاً قوامه ٩٥٠ مقاتلاً، أي ثلاثة أضعاف عدد جيش المسلمين.

ورغم أنَّ القافلة نجت، إلا أن قريشاً أصرّت على إنفاذ جيشها لقتال المسلمين، نزولاً عند رأي رأس الكفر أبي جهل، الذي قال: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيمَ عليها ثلاثاً، ننحر الجَزور (أي الإبل)، ونُطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع العرب بنا وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً.

وعندما علم النبي (ص) بنجاة القافلة وخروج قريشٍ للقتال، جمع صحابته واستشارهم فيما يفعلونه، فقريشٌ تفوقهم في العدّة والعتاد.. فقام سعد بن معاذ يقول على لسان الأنصار:

يا رسول الله.. لقد آمنّا بك وصدّقناك، وأعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامضِ لما أردت فنحن معك. فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضتَ بنا البحر فخُضتَه لَخُضناهُ معك، ما تخلّف منّا رجلٌ واحد...

ما إن أتمّ سعد بن معاذ مقولته حتى صاح الأنصار، وفيهم معوّذ والد الربيّع وإخوته معاذ وعوف وإياس وعاقل وعامر وخالد، أولاد عفراء: نعم يا رسول الله لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك..

سُرّ النبي (ص) لصدق صحابته واستبسالهم في نصرة دين الله، فبشرهم بالنصر قائلاً: سيروا وأبشروا، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم.

وراح النبي (ص) يعدّد عدداً، ممن يتوقّع أن يُصرعوا في تلك الغزوة، وكان منهم أبو جهل، أعدى أعداء الإسلام.

ما إن سمع معاذ ومعوّذ اسم أبي جهل ضمن أسماء من تنبّأ النبي بمصرعهم، حتى لاحت في ذاكرتهما صورةُ والدتهما عفراء، وهي توصيهما وتوصي إخوتهما: أنشدكم الله يا أولادي، من رأى منكم رأس الكفر أبا جهل، أن يطيح برأسه.

فاشرأبّت أعناقُهما، وشخصت أبصارُهما إلى السماء، يدعوان ربهما أن يكون مصرعُه على أيديهما، فاستجاب الله دعاءهما، وسقط أبو جهل قتيلاً جرّاء ضربات من سيفيهما[263].

انتهت المعركة لصالح المسلمين، وعاد المقاتلون في سبيل الله أدراجهم إلى المدينة المنورة فرحين بنصر الله...

هناك على مشارف المدينة المنورة، وقف أهلها ينتظرون عودة المجاهدين لاستقبالهم وتهنئتهم والاحتفاء بهم ... ووقفت الربيّع مع من وقفوا تنتظر الأب الحبيب والأعمام الغوالي ...

من بعيد رأت عمّها معاذاً فركضت إليه فرحة، وهي تقول : مباركٌ لكم النصر على الأعداء يا عمّي ... ثم حوّلت وجهها هنا وهناك، وهي تقول:

أين أبي يا عمي.. أين أبي؟ فتمتم بحزن: أبوك.. أبوك... -

فهمت الربيّع ما وراء الكلمات، لقد استشهد أبوها في سبيل نصرة دين الله..

شعرت بلهب الشوق يشتعل في داخلها، فهي تحب أباها وتشتاق إليه، ولا يمكنها أن تتصور حياتها من دونه!

أرادت أن تصرخ بصوتها الملوّع، ولكن يداً أمسكت بها من الخلف وجذبتها برفق. نظرت الرُّبيّع خلفها، فإذا هي جدُتها عفراء، وسحابةٌ من نور تجلّل وجهها المضمّخ بالدموع. ضمّتها إليها وهي تقول:

لا تحزني يا صغيرتي.. فأبوك وعمّك عوفٌ الآن في جنان عرضها السموات والأرض..-

سمعت الربيّع وجدَّتُها همهمةً تسري هنا وهناك: رسول الله قادم... رسول الله قادم...

نظرت الربيّع وجدتها، فرأتا الرسول (ص) يسلّم على صحابته مواسياً إياهم بفقد حبيبٍ أو قريبٍ.. فشعرتا بتيّار من الطمأنينة والرضا يسري في القلب والروح.. وعندما مرّ النبي (ص) بجانب الربيّع هتفت في سرّها : كل مصيبة دونك تهون... فداكَ أبي وعمي يا رسول الله...

ووصلتها الأخبار تباعاً عن استبسال أبيها في قتال المشركين، وعن بلائه الحسن في قتل أبي جهل رأس الكفر[264].

وزاد في طمأنينتها وثباتها أن النبي (ص) ترحّم على والدها وعمّها قائلاً: ***رحم الله ابنَي عفراء، فهما شركاء في قتل فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر. فقيل: يا رسول الله، ومن قتله معهما؟ قال: الملائكةُ، وابنُ مسعود قد شارك في قتله***[265].

عزمت الربيّع بعد تلك الحادثة على أن تكرّس نفسها لخدمة دين الله وخدمة رسوله، وكانت كلما اشتدّ حنينُها وشوقُها إلى والدها معوّذ، تذهب إلى النبي (ص) في مسجده أو بيته، وتكتفي بالنظر إليه، فتروي ظمأها إلى

المشاعر الأبويّة التي تفتقدها، فالنبي (ص) هو أبوها وأبو جميع المسلمين والمسلمات... أبوّة روحيّة ووجدانيةٌ وتربوية وعقائدية، وأكرِم بها من أبوّة!

كانت الرّبيِّع تفرح فرحاً عظيماً، حين كان القدر يجود عليها، بأن تسكب للنبي (ص) ماء وَضوئه، فتعود إلى بيتها نشوانةً جذلى، بما خصّها به الله تعالى من فضلٍ ومنّة..

يروى أن علياً بن الحسين أرسل أحدَهم إلى الربيّع، يسألها عن كيفية وضوء النبي (ص)، فأخرجت له إناء فيه مدّ من الماء (حوالي ليتر من الماء)، ثم قالت:بهذا كنت أخرجُ لرسول الله (ص) للوضوء[266].

وكثيراً ما كانت الربيّع تتباهى بهذا أمام من يسألها من التابعين عن صفة وضوء النبي (ص) فتقول: قال لي النبي (ص): *اسكبي لي وَضوءاً، فغسل كفيه ثلاثاً ووضّأ وجهه ثلاثاً، ومضمض واستنشق مرّة، ووضّأ يديه ثلاثاً ثلاثاً، ومسح رأسه مرتين، مؤخّر رأسه ثم مقدَّمه، ومسح أذنيه كلتيهما، ظهورَهما وبطونهما، ووضّأ رجليه ثلاثاً ثلاثاً*[267]. وفي رواية: *تمضمض واستنثر ثلاثاً*.

ذكرنا أن الربيّع، تلك الطفلةُ الصغيرة، عاهدت الله تعالى أن تجنّد نفسها لخدمة دين الله، ونصرة رسول الله، فماذا فعلت بعهدها هذا؟!

لقد وفّت الربيِّع بوعدها وعهدها، فقد ورد أنها شاركت في غزوات الرسول (ص)، فكانت تسقي العطاش، وتطعم الجياع، وتساعد في ردّ القتلى والجرحى إلى المدينة المنورة[268].

وشاركت في غزوة الخندق في حمل الصحابيّ سعدٍ بن معاذ، حين جُرح إلى خيمة رفيدة الأنصارية...

خيمة رُفَيدة!

من هي رُفيدة؟ وما هي خيمتُها؟ ولماذا يُحمل الجرحى إليها؟

رفيدة هذه هي صحابيةٌ من الأنصار، كانت على علمٍ بمداواة الجرحى وتطبيبهم، ويمكن بلغة اليوم أن نسميها: الطبيبة رفيدة..

وهنا لنا سؤال: هل يجوز للمرأة أن تطبّب الرجال عند الحاجة؟!

كثيرون هم الذين يرفضون ذلك أو يستهجنونه، لكنَّ موقف النبي (ص) من رفيدة الطبيبة، لم يكن موقف المستنكرِ أو الرافضِ أو المستهجنِ لذلك... لم يقل لها: ما تفعلينه حرام.. اتركي هذه المهنة للرجال، فهم أقدر منك عليها!! بل كان له تجاه رفيدةَ وعلمِها وطبّها وقدرتها على خدمة المجتمع موقفٌ رائدٌ، يجدر التوقّف عنده والتمعّن فيه.

تعالوا بنا لنرى هذا الموقف النبويّ الرائد، فهو القدوة والأسوة لكل المسلمين.

يروي كتاب السيرة والتراجم أن النبي (ص) أمر أن يُضرب لرفيدة خيمة في مسجده لمداواة الجرحى في الغزوات، وأنه لما أصيب سعدٌ بن معاذ في غزوة الخندق قال لصحابته : ***اجعلوه في خيمة رفيدة***[269]، وكان يعوده في تلك الخيمة المضروبة في ناحيةٍ من نواحي المسجد...

أليس هذا تشجيعاً من النبي (ص) للنساء المسلمات، أن يكنّ مثل رُفيدةَ، التي نذرت نفسها لخدمة المسلمين ومداواة مرضاهم؟!

بلى، هذا تشجيعٌ، بل هو أكثر من ذلك.. إنه مدرسةٌ واضحة المعالم، تطالب النساء بالعلم والتعلم والتصدي لإبراز الكفاءة ووضعِها تحت تصرف البلاد والعباد، كلما دعت الحاجةُ. وذلك طبعاً ضمن ضوابط الجوّ الإسلامي التقيّ النقي، ووفقاً لما شرعه الله تعالى من الالتزام والاحتشام.

نعود إلى الصحابية الربيّع بنتِ معوّذ، لنراها وهي تشارك في بيعة الرضوان.

بيعة الرضوان هذه جرت قبل أن يعقد النبيُّ مع أهل مكة صلح الحديبية. فقد سار النبي سنةَ ستٍّ للهجرة إلى مكة بنيّة العمرة، وسار معه من الصحابة قرابة ألفٍ وأربعمائة صحابيٍ، يريدون أن يحظوا بشرف العمرة مع سيد المرسلين.

صحبت الربيّع بنت معوّذ النبي (ص) وصحابته في تلك الرحلة مع ثلّة من الصحابيات، ولكنّ قريشاً منعتهم من العمرة، وصدّتهم عن الوصول إلى المسجد الحرام، فأرسل النبي (ص) عثمان بن عفان ليكلّمهم في الأمر، فاحتبسته قريشٌ عندها فترة من الزمن، حتى شاع بين الناس أن قريشاً قتلت عثمان. فحزن النبي وصحابته حزناً شديداً، فعثمانُ من خيرة الصحابة، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وهو أيضاً صهر الرسول (ص)، وقَتلُه غدرٌ واضحٌ تأباه القوانينُ والأعرافُ السائدة، التي تؤمِّن الرسلَ والسفراء المبعوثين للمفاوضات على دمائهم وأنفسهم..

حضرت الرّبيّع ومن معها من الصحابيات، اللواتي خرجن لأداء العمرة الاجتماع المهمّ الذي عقده النبي ص) للتداول في شأن مقتل عثمان. ولم تتمالك نفسها حين رأته حزيناً أن ذرفت الدموع، وهي ترجو الله) تعالى أن يرحم عثمان، وأن ينصر نبيّه..

اقترب الصحابة من النبي، وهو تحت الشجرة، فبايعوه واحداً إثر واحد...

على ماذا يبايعوه يا ترى؟

لقد بايعوه على مقاتلةِ القوم، ونصرةِ دين الله، وإعلاء كلمته، والثأرِ لعثمانَ المقتولِ غدراً في سبيل الله!

انتهى النبي (ص) من مبايعة الرجال، وجاء دور النساء، فتهيّأت الربيّع والصحابياتُ للمبايعة...

ربما يستغرب البعض ويقول : أيُّة مبايعةٍ هذه؟ فالمرأة لا تبايع على القتال، لأن القتال لا يجب عليها!!

تعالوا بنا لنرى هل هذا صحيح؟

وهل بايع النبي (ص) الربيّع، التي شهدت هذا الموقف، أم امتنع عن ذلك؟

كتّاب التراجم يذكرون، أن الربيّع كانت ممن بايع النبي بيعة الرضوان، أي إنها بايعته على قتال القوم ونصرة دين الله، ولم تقعد هي وبقية الصحابيات جانباً. ولم يؤمنَّ بنظرة الصحابي الشاعر أبي محجن الثقفيّ، الذي قال ذات يومٍ لامرأةٍ:

إنَّ الرجال على الجياد مبيتُهم

فدعي الرَّماح لأهلها وتعطّري

بل آمنت الربيعُ وأخواتُها بأنَّ الإسلام فتح لهنَّ المجال واسعاً، ليدخلن الجنة من أيِّ بابٍ شئن: من باب الجهاد، أو من باب التعلم والتعليم، أو من باب الصدقة وفعل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو من باب العبادات والصلوات والزكوات، أو من تلك الأبواب جميعها.

كما شرع الإسلام فروضَ الكفاية، ليفهم الناسُ أن اللحظة التي يحتاج فيها المجتمع إلى من يقوم بشؤونه، يجب على من يستطيع ذلك، أن يبسط جهده وعلمه وكفاءته، فإن قُضيت حاجةُ المجتمع فبها ونعمت، وإلا فإن الله تعالى سيحاسب الجميع على التقصير والتخلّف والنكوص..

ومن هنا نص الفقهاء على فرضية الجهاد على المسلمين فرضاً عينياً، بما فيهم المرأة والطفل، إذا استطاعا حمل السلاح، وذلك حين يحتلّ العدو جزءاً من أيّ بلد إسلامي.

أحبّ أن أنوّه هنا إلى أن مبايعةَ النبي (ص) للنساء، سواء في هذه البيعة أم في بيعة العقبة أو في بيعة فتح مكة، كانت مشافهة تخلو من المصافحة، وليست كما يزعم البعض بأن النبي (ص) صافح النساء.

فحديث النبي (ص) واضحٌ تماماً، فقد قال: ***إنّي لا أصافحُ النساء***[270]، وسبق لنا أن طرحنا هذا الحديث وشيئاً من التفصيلات المتعلقة به عند الحديث الصحابية الجليلة نسيبة بنت كعب، وذكرنا قول عائشة رضي الله عنها: *والله ما مسّت يدُ رسول الله يدَ امرأةٍ قط، غير أنه يبايعهنّ بالكلام*[271].

إذاً بايعت الربيع النبي (ص) على ما بايعه عليه الرجال، ونزلت في حق هؤلاء المبايعين آية كريمة في سورة الفتح، ضمنت لهم رضوان الله تعالى، ولهذا سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان. قال تعالى: (لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)[272].

وقال النبي (ص): ***لا يدخلُ النارَ إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحدُ الذين بايعوا تحتها***[273]. وقال أيضاً: ***لن يلجَ النَّار أحدٌ شهد بدراً أو بيعة الرضوان*.**[274]

طبعاً لم يجرِ قتالٌ في ذالك الوقت، لأن قريشاً لم تقتل عثمان رضي الله عنه، فعاد سالماً غانماً، وتمّ على إثرها عقدُ صلح الحديبية بين النبي (ص) وبين قريش...

نعود إلى أنيستنا الربيّع بنت معوّذ، لنراها وقد كبرت واشتدّ عودها، وخُطبت إلى الصحابي المهاجر إياس بن البُكير الليثي، وزُفت إليه عروساً تقية صالحة...

في صبيحة العرس زار النبي (ص) العروسين ليبارك لهما في زواجهما.

طبعاً لا يسعنا إلا أن نتصوّر فرحَ الربيّع وزوجِها، فرسولُ الله يزورهما في بيتهما المتواضع..الله الله!

تروي الربيّع بنت المعوّذ هذا الحدث الكبير، الذي لن تنساه أبداً، والذي ظلّت تتباهى به أمام صويحباتها طوال عمرها...

تقول: دخل عليّ رسول الله (ص) صبيحة عرسي، فجعلت جويرياتٌ لنا يضربنَ بالدُّفّ، ويندُبن من قُتل من آبائهنّ يوم بدر، حتى قالت جاريةٌ: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غدٍ، فقال (ص): ***دعي هذا، وقولي ما كنت تقولين***.[275]

لنا هنا وقفةٌ مع غناء المرأة في الإسلام، هل هو حلالٌ أم حرام.

يستدل بعض العلماء المعاصرين بهذا الحديث الوارد عن الربيّع في صحيح البخاري على جواز غناء المرأة وجواز سماع الرجل لصوتها بالغناء، ومن هؤلاء العلماء د. يوسف القرضاوي في كتابه (فقه الغناء والموسيقا)، ويشترطون في هذا:

١- سلامة مضمون الأغنية من المخالفة الشرعية.

٢- سلامة طريقة الغناء من التكسّر والإغراء.

٣- عدم اقتران الغناء بمحرّم (كشرب الخمر والموسيقى المثيرة).

٤ - تجنَّب الإسراف في السماع.

ولكنّ ما عليه أغلب الفقهاء القدامى والمعاصرين هو حرمةُ غناءِ المرأة أمام الرجال الأجانب وحرمةُ سماع صوتها بالغناء، أما صوتها من دون غناء فهو جائز مطلقاً، ودليلهم في هذا أن غناء المرأة يشتمل على تمطيط الصوت وتمييعه، وقد يكون في ذلك فتنة للرجال، وأوّلوا حديث الربيّع الصحيح بما يلي:

١- اللواتي غنّين في حديث الربيّع هنّ جويرياتٌ، ولفظ الجارية في اللغة يطلق على البنت الصغيرة وعلى الأمَة، ولا يطلق على الحرّة البالغة أبداً، وسماع صوت غناء البنت الصغيرة غير محرّم بالاتفاق. أما صوت العبدة المملوكة بالغناء، فقد جرى حوله اختلافٌ: هل يجوز، أو لا يجوز.

٢- إنشاد الشعر بدون تميّع وتكسّر، يسمى غناءً عند العرب، وهذا الإنشاد بدون تمطيط جائز عند جميع الفقهاء.

إذاً كبرت الربيّع ونضجت وتزوجت، وازدادت شخصيتُها حنكةً وقوةً، وكانت ذات موقفٍ حازمٍ وجوابٍ واضح.

يحكى في هذا أن أسماء بنت مخربة (أو مخرمة) والدةَ أبي جهل أسلمت، وكانت تبيع العطور، فأرادت الرّبيّع أن تشتري عطراً منها، فسألتها أسماء عن اسمها، فقالت: أنا الربيّع بنت معوّذ.

فقالت أسماء ساخرةً: أنت ابنة قاتل سيده! تعني بذلك: أنت ابنة قاتل أبي جهل.

فأجابت الربيّع: بل أنا ابنة قاتلِ عبده..

فاغتاظت أسماء والدة أبي جهل وقالت: حرامٌ عليّ أن أبيعك من عطري شيئاً.

فأجابتها الربيّع: وحرامٌ عليّ أن أشتري منك شيئاً.

ثم قامت، ولم تعد بعدها لشراء تلك العطور...

عاشت الربيّع رضي الله عنها إلى خلافة عبد الله الملك بن مروان، وروت عن النبي (ص) واحداً وعشرين حديثاً، منها ما ذكرناه أثناء سردنا لقصة حياتها، **ومنها** أن النبي (ص) أرسل غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَى قُرَى الأَنْصَارِ يخبرهم أنه: ***مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِرًا فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِمًا فَلْيَصُمْ***[276]. قَالَتْ: فَكُنَّا نَصُومُهُ بَعْدُ، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا، وَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ (أي الصوف ترغيباً لهم وتحبيباً بالصيام)، فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ أَعْطَيْنَاهُ ذَاكَ (أي اللعبة)، حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الإِفْطَارِ.

سأل أحد التابعين الربيّع قائلاً: صفي لنا رسول الله (ص)، فقالت: يا بنيّ لو رأيتَه رأيتَ الشمس طالعة[277].

* * *

هذه ورقاتٌ من حياة الرّبيّع.. عشناها وأفدنا منها..

فسلامٌ عليك منّا يا رُبيّع... يا صحابيةَ الرسول الكريم..

* * *

في البحث التالي سوف نتحدث عن صحابيّة جليلة أخرى، لها أثر ملموس في حياة المرأة المسلمة إلى يومنا هذا..

إنها الصحابية الشهيدة أمُّ ورقةَ بنتُ نَوفل..

***

---

263 بقي في أبي جهل حركة كحركات المذبوح، فمر بجانبه ابن مسعود فأجهز عليه وضرب عنقه.

264 اختلفت الروايات فيمن قتل أبا جهل، ففي الصحيحين من رواية عبد الرحمن بن عوف أن معاذاً بن عفراء ومعاذاً بن الجموح اشتركا في قتله، وفيهما أيضاً أن ابني عفراء هما اللذان قتلاه، وأن عبد الله بن مسعود أجهز عليه، ويجمع العلماء بين هذه الروايات بأن جميع من ذكروا شاركوا في قتله.

265 دلائل النبوة للبيهقي، ٣/٨٩، حديث (٩٤٩).

266 المعجم الكبير للطبراني، ٢٤/٢٦٧، حديث (٢٠٦٩٨).

267 رواه أبو داود في السنن، ١/٤٨، حديث (١٢٦). وحسّنه الألباني.

268 روى البخاري في صحيحه عن الربيّع أنها قالت: كنّا نغزو مع النبي، فنسقي القوم ونخدُمهم، ونردّ الجرحى والقَتلى إلى المدينة. حديث رقم (٢٨٨٣).

269 سيرة ابن هشام، ٢/٢٣٩.

270 رواه النسائي في سننه، حديث رقم (٤١٩٨). وصححه الألباني.

271 رواه البخاري في الصحيح، ٥/٢٠٢٥، حديث (٤٩٨٣).

272 سورة الفتح، الآية: ١٨.

273 رواه مسلم في الصحيح، ٧/١٦٩، حديث (٦٥٦٠).

274 أخرجه ابن عساكر، ٦٢/١٤٩.

275 رواه البخاري في الصحيح، ٥/١٩٧٦، حديث (٤٨٥٢).

276 رواه البخاري في الصحيح، ٢/٦٩٢، حديث (١٨٥٩).

277 رواه الدارمي في السنن، ١/٤٤، حديث (٦٠).

الصحابيةُ الجليلةُ

أمُّ ورَقةَ الأنصاريّة

أم ورقةَ صحابيةٌ من الأنصار، لقّبها النبي (ص) بالشهيدة، وصدقت نبوءة النبي (ص) فيها، فماتت شهيدة رغم أنها لم تشارك في غزوة، ولم تحمل سلاحاً...

لم تذكر كتب التراجم والسيرة النبوية إلا نزراً يسيراً جدًّا عن حياة هذه الصحابية، ومع هذا يمكننا أن نقول: **إن لهذه الصحابية أثراً ملموساً في حياة المرأة المسلمة إلى يومنا هذا...**

لماذا.. وكيف؟؟

سنجد الجواب الشافي من خلال استعراض سيرتها الغنيّة، وسنبدأ حديثنا بالقصة التالية:

كانت الشمس قد اختفت وراء الأفق، حين لبست الصحابية أم عبد الله ثيابها، وأسرعت الخطا صوب بيت أمّ ورقة الأنصارية، لتستشيرها بموضوع يشغل بالها..

طرقت باب الدار، ففتحته جارية صغيرة، ودعت أم عبد الله إلى الدخول.

دخلت أم عبد الله، فوجدت أهل الدار يصلّون جماعة، فانتظرت ريثما ينتهون من صلاتهم.. شيء ما جعلها تقف بانزعاج، وتحملق في صفّ المصلين بدهشة مقرونة بالاستنكار.. إذ لم يكن هناك إمام!

صلاة جماعةٍ بدون إمام!

فقط صفٌّ من النساء يركعن معاً ويسجدن معاً!

ازداد استغراب أم عبد الله، عندما قامت النسوة لأداء الركعة الثانية، فقد وصل إلى سمعها صوتُ أمِّ ورقة، وهي تقرأ بصوت مرتفع سورة الفاتحة، ثم تردفها بسورة الماعون.

عضّت أم عبد الله على شفتها..

لقد نصّبت أم ورقة نفسها إمامةً على النساء، وفعلت كما يفعل الإمام، تجهر في مواطن الجهر، وتسرّ في مواطن الإسرار، مع فارق بسيط: فقد كانت تقف وسط المصليات المقتديات بها، في حين يقف الإمام وحده متقدماً على المصلين خلفه..

تساءلت أم عبد الله في سرّها:

كيف لأمّ ورقة أن تتجرّأ على دين الله؟! كيف لها أن تبتدع في الدين شيئاً جديداً؟ ألم تعلم أن الإمامة - وخطبة الجمعة لا تصح إلا للرجال؟

انتهت أمُّ ورقة من الصلاة، وقامت تستقبل ضيفتها بحفاوة، ولكنها فوجئت بأم عبد الله تلقي عليها اللّوم والعتاب قائلة: كيف تصلّين إمامة بالنساء يا أمّ ورقة؟ أتريدين أن تحلّلي ما حرم الله؟ ألا تعلمين أن الإمامة خاصةٌ بالرجال؟!

تلقّت أمّ ورقة تقريع أم عبد الله برحابة صدر، وقالت وهي تبتسم ابتسامة الواثق:

اطمئني يا أم عبد الله، فأنا لم أفعل هذا إلا بأمر من رسول الله (ص). -

ردّدت أم عبد الله مستغربة: بأمر من رسول الله؟!

أجابتها: نعم، نعم يا أمّ عبد الله، فقد أمرني رسول الله أن أؤم أهل داري من النساء، وأمر خادمي أن يؤذّن لنا عند وقت كل صلاة...

لم تجد أمُّ عبد الله أمام هذا الكلام، إلا أن تعتذر لأمّ ورقة، وتخبرها أنها قالت ما قالت من باب النصيحة والغَيرة على دين الله..

عندما غادرت أم عبد الله بيت أم ورقة كانت تردد:

هنيئاً لك يا أمّ ورقة.. هنيئا لك يا إمامة النساء.. -

* * *

حقاً هنيئاً لأمّ ورقة، ولكن:

ما هي المؤهّلات التي حملتها أم ورقة، حتى استحقّت أن تكون إمامةً للنساء؟ وهل أمرُ النبي (ص) لأمّ ورقة بإمامة النساء خاصٌّ بها دون غيرها من النساء؟

للجواب عن السؤال الأول نقول: لم تكن أمُّ ورقة مجرد امرأةٍ تحمل وتلد وتطبخ وتكنس، كما هو وللأسف حال كثير من النساء...

بل كانت امرأةً عالمةً حافظةً للكثير من سور القرآن الكريم، تشهد مجالس العلم، التي كان النبي (ص) يعقدها في مسجده المبارك، يعلّم فيها القرآن الكريم، ويبيّن شرع الله تعالى..

ولم يكن النبي (ص) يقول لها: امكثي في بيتك فهو خير لك، ولم يكنيفعل كما يفعل بعض الرجال اليوم، فنراهم يحرمون المرأة من المشاركة في كثير الميادين النافعة والمفيدة، بحجة أن خيرَ حال المرأة، أن لا ترى الرجال، ولا يراها الرجال...

من الناس من يفهم قول الله تعالى:﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[278] على

أنه موجّه لجميع النساء المسلمات، ويدّعون أنهم بحجزهم وحجرهم لزوجاتهم في البيوت، يطبّقون شرع الله ويأتمرون بأمره..

والحقيقة أن هذه الآية، التي يلتبس على الكثيرين معناها خاصةٌ بنساء النبي (ص)، اللواتي غلّظت في حقهن بعض الأحكام، لأنهن زوجات النبي (ص)، وهذا واضح في سياق الآيات التي تسبق هذه الآية في سورة الأحزاب، ففي مطلع الآية يقول ربنا عزّ وجلّ: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[279].

وحتى هذه الآية الخاصة بنساء النبي (ص)، كانت تفهم على أن المطلوب منهن تحرّي المزيد من الاحتشام والبعد عمّا يسيء لهنّ ولكونهنّ زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يكن يفهم منها منعهنّ من الخروج من بيوتهن مطلقاً، إذ كنَّ يخرجن بعد نزول الآية، وكان النبي (ص) يصطحب معه إلى الغزوات من تخرج لها القرعة من نسائه، وكنَّ يقصدن بيت الله الحرام معتمرات وحاجّات. وكلنا يعرف أن أم المؤمنين عائشة خرجت في معركة الجمل قائدةً لجيش المسلمين، وكانت تفتي النساء والرجال من الصحابة والتابعين، حتى قال فيها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (ما أشكل علينا صحابة رسول الله شيء إلا وجدنا عند عائشة فيه علماً)، وبذلك استحقّت أن يطلق عليها مفتية الرجال والنساء.

ألا يدعونا هذا لنتساءل عن سبب تشوّه النظرة إلى المرأة المسلمة ودورها عبر التاريخ، وتدنّي الخط البياني لقياس مستوى صعودها في درجات الحرية والكرامة والدور الإيجابي، الذي رسمه لها الإسلام!!

أقول هنا:

السبب الرئيسي لذلك هو إلباس العادات والتقاليد البالية لباس الإسلام، والاعتماد على الأحاديث الموضوعة والضعيفة بدل الصحيحة.. وسأضرب مثالاً بالحادثة التالية الواردة في الصحيحين: جاءت امرأة إلى رسول الله (ص) فقالت: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتِك فيه، تعلمنا مما علمك الله، فقال: ***اجتمعنَ يوم كذا وكذا في موضع كذا وكذا***، فاجتمعن فأتاهنّ النبي (ص)، فعلمهنّ مما علمه الله[280].

هذه الحادثة الصحيحة الثابتة في كتب السنة النبوية الشريفة، استُبدلت عند كثير من الناس بحديث موضوعٍ على لسان النبي (ص) يقول: (لا تعلموهنّ القراءة والكتابة)!

وبناء على هذا الحديث الموضوع، حُجبت المرأة عن كل دورٍ مجتمعيّ، فعاشت رهينة المحبسين: الفقر والجهل أكثر من ستة قرون.. وتراوحت نسبة أمّية المرأة في بعض العصور المتأخرة ما بين 75% إلى وربما أكثر! 90%

طبعاً هذه النسبة بدأت بالتراجع مع حلول القرن العشرين، حين بدأ العالمُ العربيّ والإسلامي يفيق من غفوته، ويعيد حساباتِه بناء على نظرة تأصيليّة، لما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الصحيحة.

وعلى سبيل المثال أذكر أنَّ الشيخ رفاعة الطهطاوي، وهو من شيوخ الأزهر الشريف، ألّف كتاب: (المرشد الأمين للبنات والبنين)، يدعو فيه المسلمين إلى تحرير المرأة من أغلال العادات والتقاليد البالية، التي لا تمتّ إلى الإسلام بصلة، وغيرُ الشيخ رفاعة من علماء الصحوة والتجديد كثيرون..

وتبرز الباحثةُ الملتزمة اللبنانية الأصل المصرية المنشأ الأديبة زينب فواز، لتدافع عن حقوق النساء، وتنادي بالعدالة بين الرجل والمرأة، مؤكّدة أن منع المرأة من المشاركة في الأنشطة الحياتية أمر لا يأمر به الشرع الحنيف ولا يرضى عنه.

ونرى الباحثة المصرية الشاعرة ملك حفني ناصيف الملقّبة بباحثة البادية، تطوف منازل صويحباتها ومعارفها، تثقفهنّ وتعلمهنّ وترشدهنّ، وكانت تجعل من بيتها نادياً علمياً ومركزاً ثقافياً، يقصده كثير من النساء.

وكانت ملك ترى أن للمرأة أن تباشر من الأعمال المجتمعية -بزيّها المحتشم المنضبط- ما لا يتنافى مع الشرع الإسلامي.

وأمام هذه الدعوات الإصلاحية والتجديدية، استطاعت المرأة المسلمة في القرن العشرين، أن تمزّق بعضاً من الحُجب والآصار، التي كبّلتها قروناً عديدة، وتراجعت نسبة الأميّة في العالم العربي حتى وصلت إلى من عدد الإناث مقابل ٢٩٪ من عدد الذكور، وذلك في إحصائية قامت بها الأمم المتحدة عام ٢٠٠٣م، ٤٩٪ وهي نسبة ما تزال كبيرة وتحتاج مكافحتها إلى جهود جبارة.

نعود إلى السؤال الثاني الذي طرحناه:

هل أمرُ النبي (ص) لأمّ ورقة بإمامة النساء أمرٌ خاصّ بها دون غيرها من النساء؟

بعض العلماء كالحنفية والمالكية يرون أن هذا خاصّ بها، وبالتالي يُكره عندهم للمرأة أن تكون إمامةً للنساء، بل تصلي النساء منفردات، ولو كنّ مجتمعاتٍ في مكان معين. ويباح لهنّ إن أردن ثواب الجماعة، أن يحضرن الجماعة في المساجد بشرط التزام الاحتشام والانضباط في اللباس والمظهر، عملاً بقول النبي ص): ***لا تمنعوا إماء الله مساجد الله***[281].)

أما الشافعية والحنبلية فيرون أنّ إذن النبيّ (ص) لأمّ ورقة، أن تكون إمامةً للنساء، ليس خاصاً بها، بل هو حكم عامٌّ لكل النساء. فيستحب عندهم لجماعة النساء، إذا أردن الصلاة، فرضاً كانت الصلاة أم نفلاً مطلقاً، أن تؤمَّهن أقرؤهنّ للقرآن الكريم عملاً بقول النبي (ص): ***يؤمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله***[282].

استدل الشّافعية والحنبلية على عموم الحكم وعدم خصوصيته بأمّ ورقة، بما ورد عن عائشة رضي الله عنها، أنها صلّت بنسوة صلاة العصر، فقامت وسطهن[283]، وبما ورد أيضاً أنّ أمَّ سلمة رضي الله عنها، أمّت جماعة من النساء، فقامت وسطهنّ[284]. ورُوي عن علي بن الحسين، أنه كان يأمر جاريةً له أن تقوم بأهله في رمضان، وكانت التابعيّة الحافظة عَمرةُ بنت عبد الرحمن تأمر إحدى النساء، أن تصلي إمامة بجماعة النساء في قيام ليل رمضان[285].

وبناء على هذا فإنّ إمامةَ المرأة لجماعة النساء مشروعةٌ ومستحبة عند الشافعية والحنبلية، وتتحقق بها صلاة الجماعة، وتنال المصليات ثواب الجماعة، التي تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة. ويستحب

في هذا أن تقف المرأة الإمامة في وسط النساء لا في صفّ منفردٍ، خلافاً لما عليه الحال في صلاة الرجال جماعةً...

ولإمامة النساء أن تجهر بالقراءة في الصلوات الجهرية، إذا لم يكن هناك رجل غريب في مكان إقامة الصلاة، ويُستحب أن يكون صوتها في الجهر أخفضَ من جهر الرجال.

قد يتساءل البعض عن مدى مشروعية أذان المرأة وإقامتها الصلاة، إذا كانت إمامة للنساء. والجواب نجده في قصة أم ورقة، حيث أمر النبيّ خادمها أن يؤذّن لها..

وبناء على هذا ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يُكره للمرأة أن تؤذن، لأن الأذان إعلام بدخول وقت الصلاة المفروضة، وفي رفع المرأة لصوتها بهذه الشعيرة مظنّة الفتنة، لما قد يحتمله هذا من تليينٍ وتمطيطٍ للصوت، وهو منهيّ عنه بقوله تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾[286].

أما إقامة الصلاة: الله أكبر.. الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

هذه الإقامة مندوبة للمرأة عند الشافعية والحنابلة، لأن القصد من الإقامة استنهاض هِمم الحاضرين للمجلس، الذي يُنادى فيه لصلاة الجماعة، وليس فيه رفعٌ للصوت كالأذان.

ولكن، ماذا لو أذّنت المرأة ولم ترفع صوتها بالأذان، أو لم يكن هناك رجال أجانب؟

ذهب الإمام الشافعي إلى جوازه، مستدلاً على هذا بأن عائشة رضي الله عنها كانت تؤذّن، وتقيم الصلاة، وتؤمّ النساء، وتقوم وسطهن[287].

قصة أم ورقة هذه وردت في كتب السّير والتراجم... وربما وافقني إخوتي وأخواتي من القرّاء على أنّ لأم ورقة أثرَها في حياة المسلمات إلى يومنا هذا. فإمامة النساءِ موضوعٌ مهم، لأنّ فيه استنهاضاً لهمم الحاضرات في المجالس النسوية لأداء الصلاة، وفيه مزيد من الخشوع وخصوصاً إذا كانت الإمامةُ ذاتَ صوتٍ شجيّ وحفظٍ متين وقلبٍ خاشع وعين بكّاءة، والأهم من هذا وذاك أن في صلاة النساء جماعة دليلاً مهماً على أن منعهنّ من إمامة الرجال ليس انتقاصاً من أهليتهنّ، ولا تفضيلاً للرجال عليهن، كما قد يفهم البعض، إذا لو كان كذلك، لمُنعت المرأةُ حتى من أن تكون إمامةً للنساء..

ومن البدهيّ أن نعرف أنّ ما يعتري المرأة من أمورٍ تحول بينها وبين الصلاة أحياناً (كالحيض والنفاس)، وما قد يترتب على وقوفها في مقدّمة الصفوف وجهرِها بالقراءة من إثارةِ التشويش النفسيّ والافتتان لدى بعض المصلّين خلفها من الرجال. ولهذه الأسباب وربما لأسبابٍ أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، لم يُجِز الإسلام للمرأة أن تكون إمامةً للرجال، ولا يعني هذا أنها أقلُّ شأناً من الرجال كما قد يفهم بعض الناس.. أو كما يحبون أن يفهموا!! **هناك دعوات فوضويّة اليوم تدعو إلى أن تكون المرأة إمامةً للرجال**، وقد تخطّت هذه الدعوات مجرد الكلام لتطبّق فعلاً في أمريكا على يد امرأة تدعى أمينة ودود، وهي أستاذة الدراسات الإسلامية في جامعة (فرجينيا كومونولث) الأمريكية، إذ أمّت أمينةُ المصلين في أحد مساجد نيويورك، الأمر الذي أثار ضجَّة كبيرة واستياءً في الأوساط الإسلامية، خصوصاً وأن هذا الفعل قد جرّأ امرأةً أخرى

تدعى إسراء نعماني على اقتحام الصفوف عنوةً في أحد مساجد لوس أنجلوس في الولايات المتحدة، لتصلي إمامة بالمصلين رجالاً ونساء.

وقد انتقلت عدوى إمامة المرأة للرجال في المساجد إلى كندا، وصوّرت لنا بعض الصحف الغربية والعربية بعضاً من هؤلاء الإمامات، وهنّ يقفن أمام الصفوف، وعن يمينهنّ وشمالهنّ يقف المصلّون نساءً ورجالاً بشكل مختلط وفوضوي. والأغرب في الموضوع أن هذه المرأةَ الإمامة تلبس البنطال، وتضع شالاً صغيراً على رأسها، لا يغطي إلا أعلاه، بينما يظهر ما استرسل من شعرها على كتفها، الأمر الذي اعتبره علماءُ المسلمين مخالفاً لتعاليم الإسلام.

قد يردّد بعض الناعقين بأبواق الغرب قائلين: لمَ تتكرون علينا أن نؤيّد إمامة المرأة، رغم أن الموضوع اجتهاديٌّ، وقد اختلف حوله الفقهاء القدامى، فذهب أبو ثور والطبريّ إلى جوازه!!

أقول: ذهب أبو ثور والطبريّ إلى جواز أن تكون المرأة إمامةً لأهل دارها من الرجال المحارم. ولم يتحدثوا عن جواز إمامتها للرجال الأجانب أو في المساجد، كما فعلت أمينة ودود وإسراء نعماني وغيرهنّ، وشتّان بين هذا وذاك!!

ويحتج أبو ثورٍ والطبريُ لما ذهبا إليه بإذن النبي (ص) لأم ورقة أن تؤمّ أهل دارها، ويؤوّلان هذا بأنه إذنٌ عام يشمل رجال الدار ونساءهم، وأن أم ورقة كانت تؤمّ بأهل دارها رجالاً ونساءً.

والحقيقة أن الحديث الذي رواه أبو داوود حديث ظنّي الدلالة، يحتمل كلا المعنين: الإذن لأمّ ورقة بالإمامة لنساء دارها فقط أو لنساء ورجال دارها. ونص الحديث كما يلي: ***كَانَ رَسُولُ اللهِ (ص) يَزُورُ أم ورقة فِي بَيْتِهَا، وَجَعَلَ لَهَا مُؤَذِّنًا يُؤَذِّنُ لَهَا، وَأَمَرَهَا أَنْ تَؤُمَّ أَهْلَ دَارِهَا***[288].

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن خلاّد راوي الحديث:فَأَنَا رَأَيْتُ مُؤَذِّنَهَا شَيْخًا كَبِيرًا.

لكنّ رواية الدارقطني للحديث تقتصر على أن النبي (ص) أذن لأمّ ورقة أن تؤمّ نساء أهل بيتها[289].

بينما ذهب جمهور الفقهاء إلى تحريم إمامة المرأة للرجال مطلقاً، سواء كانت تلك الإمامة للرجال الأجانب أو المحارم، لعدم ورود دليل صحيح صريح ينص على جواز ذلك، مبينين أن أمّ ورقة كانت تؤمّ بنساء دارها فقط، وأنه على فرض أنها كانت تؤمّ بنساء دارها ورجالها، فإن هذا خاصٌّ بها، ولا يعمّم حكمه إلا بدليل. واستدلوا أيضاً بأنه لم يرد في عصر الصحابة أو التابعين أو الفقهاء أن امرأة أمّت بالرجال.

لا شكّ أن العمل بمذهب الجمهور في هذا الموضوع أحوطُ وأبعد عن مواطن الفتن والشبهات، خصوصاً في هذا العصر الذي ظهرت فيه بوادر التحلّل من الدين وباسم الدين، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج..

وقد عقّب على هذا الدكتور القرضاوي بقوله:

ذهب الفقهاء إلى أن المرأة لا تؤمّ الرجال في الفرائض، وإنْ أجاز بعضُهم أن تصلي المرأة القارئة للقرآن بأهل دارها، باعتبارهم محارم لها، ولم يقل فقيهٌ مسلمٌ واحد من المذاهب المتبوعة أو خارجها بجواز أن تخطب المرأة الجمعة أو تؤمّ المسلمين.

وبعد هذا البيان الواضح على حرمة إمامة المرأة للرجال الأجانب في جميع المذاهب الإسلامية، اختار الدكتور القرضاوي الرأي القائل بجواز إمامة المرأة القارئة المتقنة الحافظة لأهل دارها فقط من الرجال المحارم كالزوج والأبناء فقال:

من كان في مثل حال أم ورقة من النساء، بأن تكون قارئةً مجيدة للقرآن، ولها من الأبناء والمحارم من يصلّي خلفها، جاز لها أن تؤمَّهم في الفرائض والنوافل، ولا سيما صلاة التراويح.

إذاً لم يقل أحد من الفقهاء القدامى بجواز إمامة المرأة للرجال الأجانب، ولا يمكن لأحد من العلماء المعاصرين أن يويّد هذا التحلّل الذي يجري في الغرب من قبل بعض المسلمات، سواء كان فعلهم عن حسن نيّة أو عن سوء نيّة، والجهل بالحكم الشرعيّ ليس مبرِّرا ولا محلِّلا من الإثم..

نعود إلى أمّ ورقة لنتساءل عن سبب تسميتها بالشهيدة!

يعود سبب هذه التسمية إلى أن النبي (ص) لقّبها بذلك، وكان إذا أراد زيارة عائلتها قال لصحابته: ***انطلقوا بنا نزور الشهيدة***[290].

ويروى أنه لما دعا النبي (ص) صحابته للخروج إلى بدر، قالت له أم ورقة: يا رسول الله ائذن لي أن أخرج معكم، فأمرّض مرضاكم، لعل الله تعالى أن يرزقني الشهادة في سبيله. فابتسم النبي (ص) وقال لها:

قرّي في بيتك، فإنّ الله تعالى يرزقك الشهادة*[291].*

لم تخرج أم ورقة مع النبي (ص) في تلك الغزوة ولا في غيرها من الغزوات، ولا شك أنها فهمت ما يرمي إليه النبي (ص)، فأولادها كانوا صغاراً يحتاجون إلى رعايتها وعنايتها، ومن الفقه في الدين أن يعرف المسلم الأولويات في حياته، فيقيم الفرائض ويؤدّيها على وجهها الأكمل قبل أن يقيم النوافل.

قد تتساءلون: متى تحققت نبوءة النبي (ص) في استشهاد أم ورقة وكيف؟!

بقيت أم ورقة تتشوّق إلى تحقّق هذه النبوءة، وتحلم بها، إلى أن تحققت في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب..

لم يكن استشهادها في أرض المعركة، بل تمّ وهي نائمة في فراشها، وذلك حين أقدم عبدٌ لها على قتلها بالتواطؤ مع جاريتها!

ولكن.. لماذا يقدِم هذان على قتلها، وهي الصالحة العابدة القارئة لكتاب الله تعالى؟

تذكر كتب التراجم أن أمّ ورقة أرادت أن تحسن إلى عبدها وجاريتها، فوهبتهنّ الحرية من العبودية بعد موتها، وهو ما يسمّى بلغة الفقه *التدبير*، أي تعليق عتق العبد على موت سيده، وكان من المفترض أن يقابل هذان العبدان إحسان أمِّ ورقة بالإحسان، ولكنّ الحقد الأسود الذي ملأ قلبيهما، أدى بهما إلى مقابلة الإحسان بالإساءة، فعمدا إليها وهي نائمةٌ في فراشها، فغطّيا وجهها بقطيفةٍ كانت تتدّثر بها، حتى اختنقت وماتت.

عندما علم عمر بن الخطاب بما جرى لأمّ ورقة، دمعت عيناه وهو يتذكر بشرى النبي (ص) لها بالشهادة وتلقيبه لها بالشهيدة ...

ونظراً لملابسات الحادثة ومعالم الاختناق البادية على وجه أم ورقة، أدرك عمر بثاقب نظره أن للجارية والعبد علاقةً بما جرى، فجيء بهما إليه، فاعترفا بما اقترفته أيديهما، وحكم عليهما أمير المؤمنين بعقوبة تتناسب مع عملهما الشنيع: بالموت صلباً! ليكونا عبرة لمن يعتبر...

قد يستغرب البعض تسمية أم ورقة بالشهيدة، ظناً منهم أن الشهادة في سبيل الله تعالى تنحصر فيمن استشهد في ساحة المعركة في سبيل الله تعالى.

والحقيقة أن هذا نوعٌ من أنواع الشهادة، وهناك شهداء آخرون وهب الله تعالى لهم ثواب الشهادة رغم موتهم خارج ميادين الجهاد في سبيل الله. اسمعوا معي حديث النبي (ص)..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سألنا رسولُ الله (ص) يوماً: ***ما تعدّون الشهيد فيكم؟ قالوا: من قُتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: فإنَّ شهداء أمتي إذاً لقليل! قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ فقال: من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن**[292] **فهو شهيد*.** وفي رواية: ***والغريق شهيد***[293].

إذاً ليس الشهيد هو فقط من مات في المعركة جهاداً في سبيل الله، وقد ذهب العلماء إلى أن كل من مات بسبب مرض عضال (كالسرطان والسّل) صابراً محتسباً، أو بسبب حادثٍ مفاجئ كالقتل ظلماً أو الغرق والهدم والزلازل والصواعق..

طبعاً يُشترط ليكونَ من مات بمثل هذه الأسباب شهيداً أن لا يكون موتُه بسبب معصية أو مرافقاً لمعصية، فمن كان يرتكب الكبائر من المعاصي في عرض البحر، ومات غرقاً لا يسمى شهيداً. ومن مات بسبب مرض عضال، وهو معترض ساخط على قضاء الله، لا يسمى شهيداً. ولا يمكن أن ينسحب على هؤلاء الحكم الشرعي للشهيد الذي ورد في قوله تعالى: **(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)**.[294] والله أعلم..

يبقى علينا أن ننوّه إلى أن الشهادة التي تجري في حق هؤلاء، تتعلق بثواب الآخرة فقط، أي ثواب الشهادة، أما في حكم الدنيا فلا يجري في حقهم ما يجري على الشهيد من عدم تغسيله والصلاة عليه، بل إن هؤلاء يُغسّلون ويكفّنون ويُصلّى عليهم.

* * *

عند هذا الحدّ تنتهي قصّة الشهيدة القارئة الإمامة أمّ ورقة بنت نوفَل الأنصارية.

رحمها الله وطيّب ثراها، وأنالنا ثواب الشهادة في سبيله، ولقد قال النبي (ص) في هذا: ***من سأل الله الشهادةَ بصدقٍ، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه***[295].

أرجو لي ولكم حسن الحياة وحسن الممات.. حسن البدء وحسن الختام...

بدأنا هذا الكتابَ بالحديث عن السيدة خديجةَ بنتِ خويلد، ورأينا أنها كانت من أقربِ الناس إلى قلبه، منذ أن عرفها وهو شابٌّ في الخامسة والعشرين من عمره.

سنختم هذا الكتاب بالحديث عن سيّدات، كنّ من أقرب المخلوقات إلى قلبه منذ طفولته الباكرة وحتى آخر يوم من حياته.

من هنّ هؤلاء السيدات؟!

إنّهنّ أمهاته عليه الصلاة والسلام.

ماذا أعني بكلمة (أمّهاته)؟!

وهل كان له أكثر من أمّ؟!

نعم كان له أكثر من أمّ، واقرؤوا مسك الختام في الصفحات التالية، لتعرفوا من هنّ هؤلاء الأمّهات.

***

---

278 سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

279 سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

280 رواه البخاري في الصحيح، ٦/٢٦٦٦، حديث (٦٨٨٠).

281 رواه مسلم في الصحيح، ٢/٣٢، حديث (١٠١٨).

282 رواه مسلم في الصحيح، ٢/١٣٣، حديث (١٥٦٤).

283 رواه الحاكم في المستدرك، ١/٣٢٠، حديث (٧٣١). وصححه الألباني.

284 رواه عبد الرزاق في مصنّفه، حديث (٥٠٨٢). وصححه الألباني.

285 معرفة السنن والآثار للبيهقي.

286 سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

287 رواه الحاكم في المستدرك، ١/٣٢٠، حديث (٧٣١). وصححه الألباني.

288 رواه أبو داود في السنن، ١/٢٣٠، باب إمامة النساء، حديث (٥٩٢). وحسّنه الألباني.

289 سنن الدارقطني، ١/٢٧٩، باب في ذكر الجماعة، حديث (٢).

290 رواه البيهقي في السنن الكبرى، ٣/١٣٠.

رواه الطبراني في المعجم الكبير، ٢٥/١٣٥، حديث (٢١٤٤٥). وحسّنه الألباني. 291

البطن: شدة الإسهال. 292

رواه مسلم في الصحيح، ٦/٥١، حديث (٥٠٥٠). 293

سورة آل عمران، الآية: ١٦٩. 294

أخرجه مسلم في الصحيح، ٦/٤٨، حديث (٥٠٣٩). 295

أمّهات النبيّ (ص)

هذا هو بحثنا الأخير في هذا الكتاب، وبه أختم حديثي عن هذه النّخبة من صحابيّت رسول الله (ص).

كنت أريد أن أروي لكم سيرةَ صحابيّةٍ ما، ولكنني بعد تفكيرٍ وتمحيصٍ وسبر، قرّرت أن أتحدث عدّة نسوةٍ، يجمعهنّ رابطٌ واحدٌ عظيم ومقدس وشريفٌ من جهَتين: جهةٌ مقدسةٍ بحدّ ذاتها، وجهة مقدسةٍ لارتباطها بسيد الخلق والمرسلين محمد بن عبد الله (ص)...

بماذا تذكّركم الأسماء التالية؟

آمنة بنت وهب..

بركة (أمّ أيمن)..

حليمة السعدية..

فاطمة بنت أسد..

هل تعني لكم هذه الأسماء شيئاً كبيراً وعظيماً وجليلاً؟!

لكأني أسمع من تهتف قائلة: **إنهنّ أمُّهات النبّي (ص)..**

نعم.. هذا صحيح..

إنهنّ أمهاتُ النبي عليه الصلاة والسلام..

قد يستغرب البعض مصطلح الأمّهات، فكل الناس لهم أمٌّ واحدة، حملتهم تسعة أشهرٍ في بطنها، ثم ولدتهُم وربّتهم، فكيف يكون للنبيّ أكثر من أمّ؟!

هذا الاستغراب في محلّه.. رغم أن الجواب عنه معروفٌ لمن يعرف التاريخ. فسيرة هؤلاء النسوة تخبرنا أن الأمّهات أنواعٌ: منهنّ من تحمل وتلد، ومنهنّ من ترضع، ومنهنّ من ترعى وتربّي وتحضُن، وكلهنّ يشتركن في حقوق الأمومة.. ربما بدرجاتٍ متفاوتة...

نبدأ حديثنا بأم النبي (ص) آمنة بنت وهب.

قد ينكر البعض علي أن أتحدث عن أمّ النبي (ص) آمنة ضمن حديثي عن صحابيات الرسول (ص)، لأنها توفيت قبل بعثة النبي (ص)، فكيف تكون صحابية؟!

لكني أقول: هذه السيدة العظيمة، هي من تخّيرها الله تعالى من بين نساء العالمين، ليشرّفها بحمل سيد المرسلين..

وهي وحدها التي تلقّب بأمّ الرسول الأمين...

وهي من صاحبت روح النبيّ وقلبه ووجدانه، فظلّ طوال عمره يذكرها، ويحنّ إلى صوتها وحضنها ولمستها وقُبلتها وطَيفها، الذي لم يفارق قلبه أبداً...

هي وحدها من وقف النبي**(ص)** على قبرها، وقد شارف الستين من عمره، فبكى وبكى حتى خشي الصحابة عليه من كثرة البكاء...

ماذا تتوقعون أن تفعل آمنةُ، لو شهدت مبعث ولدها محمد؟!

أنا لا أشك في أنها ستكون أوَّل من يؤمن به، ويصدقه ويؤازره ويؤيده... والله أعلم...

رحلتنا مع آمنة بنت وهب، تبدأ من اليوم الذي اختار فيه عبد المُطلب لابنه عبد الله زهرةَ قريش: آمنة بنت وهب بن عبد مناف، وهي زهرةٌ طاهرةٌ زفّت إلى زينة شباب بني هاشم، الشاب النقيّ الطاهر عبد الله بن عبد المطلب، فكانت رحلةُ النبي (ص) رحلةً مكتملة الطهر والنقاء، تنقّل فيها من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة، وفي هذا يقول النبي (ص): ***إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِى مِنْ بَنِى هَاشِمٍ***[296].

إذن، فقد تنقّل النبي (ص) كما قلنا من أصلاب الآباء الطيبين إلى أرحام الأمهات الطاهرات بأنكحةٍ صحيحةٍ، لم يمسسها شيءٌ من سفاح الجاهلية وعهرها وأنظمة الزواج الفاسدة التي كانت تسود فيها.

زُفّت آمنة إلى عبد الله على مرأى ومسمع الكثيرات من فتيات قريش، اللواتي غَبطنها بل وحسدنها على ذلك العريس، الذي تميّز من بين فتيان مكة بغرّة بيضاء، تنير ما بين عينيه...

لم تكن تلك الغرّة البيضاء تفارق وجه عبد الله طيلة شبابه، لكنها زالت منه بعد أن تزوّج آمنة!!

أين ذهبت تلك الغرّة؟!

أمر أثار دهشة الكثيرين...

وظلّ هذا السؤال يحيّرهم إلى أن وضعت آمنة مولودها محمداً بن عبد الله، وعندها رأوا بأعينهم ذلك النور الوضيء والجلال البهيّ، يفيض من محيّا المولود الرضيع، وأدركوا أنّ الغرّة البيضاء، انتقلت من عبد الله إلى عروسه آمنة، ثم تجلّت كياناً بشرياً يمشي على وجه الأرض...

لا شك أنهم تساءلوا آنذاك عن مغزى هذا النور وسرّه! وكان عليهم أن ينتظروا أربعين سنة أخرى، إلى أن يبعث هذا الوليد نبيًّا، فيدركوا السبب والسرّ والمغزى...

نعود إلى عبد الله وآمنة.

أيام قليلة فقط مكثها هذان العروسان في بيت الزوجية، تذوّقا فيها حلاوة الحب، وارتشفا رحيق الأُنس والإلفة والمودة... ولكن، شاء الله تعالى أن يقع اختيارُ عبد المطلب على ابنه عبد الله، ليرسلَه في قافلة قريشٍ التجارية المسافرة إلى غزّة والشام...

ابتعد عبد الله مع القافلة عن مكة، لكنّ قلبه ظل هناك.. عند عروسه آمنة، وظلت عيناه تراقب طيفها، الذي رافقه في رحلته تلك، ولم يفارقه في حلّ أو ترحال...

ما تزال كلماتها التي ودّعته بها ترنّ في أذنيه:

سوف أشتاق إليك يا عبد الله.. لا تُطل الغَيبة.. صحِبتكَ السلامة.. صحبتك السلامة. -

مرت أيامٌ وليالٍ وآمنةُ في بيتها مع خادمتها بركة، تمنّي نفسها بعودة الحبيب، وتترقب بفارغ الصبر قدومه.

استيقظت مرةً من نومها، وهي تصيح: عبدَ الله، عبد الله...

كان قلبُها يخفق بشدّة، وحبّات من العرق تكسو جبينها...

دارت عيناها هنا وهناك، تبحثان عن عبد الله، ولكنها سرعان ما تذكرت أنه مسافرٌ، فأسندت رأسها إلى الجدار، وراحت تستعيد تفاصيل الرؤيا التي حلمت بها، لتخزّنها في ذاكرتها، وتخبر بها عبدَ الله عندما يعود...

ماذا رأت آمنة في منامها؟

رأت شهاباً خرج منها أضاءت له الأرض، حتى إنها رأت بصرى من أرض الشام**!!** وسمعت هاتفاً يهتف بها: إنك تحملين سيّد هذه الأمة...

تلمّست آمنةُ بطنها بيدها المرتجفة، وردّدت بذهول: أنا أحمل سيد هذه الأمة**!!**

عادت ذاكرتُها إلى الوراء قليلاً، وتوقّفت عند عبارات، كان الناسُ في جزيرة العرب يتناقلونها عن اقتراب مبعث نبي منتظر... وتساءلت: أتراها هي من بين جميع النساء من أكرمت بأمومة سيد البشر.. ذاك النبيِ المنتظر**؟!**

تكررت هذه الرؤيا أكثر من مرة...

أين أنت يا عبد الله**؟!**

ما أصعب أن يلتفت المرء نحو شريك القلب والروح، ليقاسمه طعم الفرح، فلا يجده**!**

كانت آمنة تتلهّف وتتمتم: أين أنت يا عبد الله؟ تعالَ أبّشرك.. أنا حاملٌ بسيد هذه الأمة.. وأنت والدُ سيد الأمّة يا عبد الله.. أنت أبوه وأنا أمه..

مضت الأيام على آمنة بطيئةً ثقيلةً، ولم يكن يزيّنها إلا الأملُ برجوع الحبيب الغائب.

بعد مدةٍ بدأت الأخبار السعيدة تتوارد: القافلة على مشارف مكة.. قفزت مبتهجة مسرورة، وتهيّأت للقاء الحبيب...

علا ضجيجُ القادمين في الدّور المتاخمة لدار آمنة، ووصلت إلى مسامعها كلمات الاستقبال والحنين وقُبلات اللقاءات البهيجة...

اقتربت آمنة من الباب، و قدماها لا تحملانها من شدة الفرح... نظرت من شقّ الباب، فرأت كثيراً من المسافرين، ولكنها لم ترَ عبد الله.

بحثت عنه هنا وهناك، ولكنها لم تره!

مرّت الدقائق كساعات طويلة، ولم يأت عبد الله.

ها هو عمّها عبد المطلب وأسلافُها الحارث والزبير إخوة عبد الله، يأتون نحوها واجمين، يعلو وجوهَهم حزنٌ غريبٌ.

فتحت الباب وهتفت بهلع: أين عبدُ الله يا عمّي؟

تلكّأ عبد المطلب قليلاً ثم أجابها: صبراً يا آمنة، لقد أصابته وعكةٌ بسيطة، فتخلف عند أخواله في يثرب، وسوف أرسل أخاه، ليصحبه إلينا بالسلامة.

جلست آمنة مهمومة مغمومة، وجلست معها خادمتها بركة، تواسيها وتطمئنها.

ولكن هل حقاً كان عبد الله مريضاً في يثرب؟!

نعم، فقد أراد أن يزور أخواله من بني النّجار، وهو عائدٌ من الشام، فمرض عندهم مرضاً، حال بينه و بين الرجوع مع القافلة إلى مكة.

تجمّلت آمنة بالصبر، وهي تنتظر عودة عبد الله مع أخيه الحارث، ولكنَّ الحارث عاد وحيداً.. فقد مات عبد الله في يثرب، ودُفن عند أخواله بني النّجار.

غامت الدنيا في عيني آمنة، التي ترمّلت وما يزال خضاب عرسها في يديها..

مات عبد الله، وهو لا يعلم أن زوجته حاملٌ بسيد هذه الأمة منذ شهرين..

اسودّت الدنيا، وضاع الأمل، وذاب الفرح.. ونطقت آمنة بشعر الرثاء فقالت:

عفا جانبُ البطحاء من زينِ هاشمِ

وجاور لحداً خارجاً في الغمائمِ

دعته المنايا دعوةً فأجابها

وما تركتْ في الناس مثلَ ابن هاشمِ

عشيّة راحوا يحملون سريره

تعاورَه أصحابُه في التزاحمِ

فإن يكُ غالته المنونُ وريبُها

فقد كان معطاءً كثيرَ التراحمِ

إذن، ستتابع آمنة حياتها وليس معها اليوم عبد الله.. لكنَّ معها منه جنينٌ، بدأ يدبّ في أحشائها... فيه عزاءٌ.. وأيّ عزاء!

لم تشعر السيدة آمنة أثناء حملها، بما تشعر به الحوامل من تعب وإرهاق وإعياء، بل على العكس تماماً، كانت تغدو مع إشراقة كل فجر جديد أكثر قوَّة وأعظم نشاطاً. وكانت كثيراً ما ترى في منامها تلك الرؤيا، التي تسمع فيها هاتفاً يهتف: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيّها...

فلما اقتربت ولادتها، هتف بها ذلك الهاتف:

إنك ستلدين سيّد هذه الأمة، فإذا وقع على الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شرّ كل حاسد.. وسمّيه محمداً.

في عام (٥٧٠ م) ميلادي (المسمّى بعام الفيل)، وفي الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول، ولدت آمنةُ بنت وهب ابنها محمد بن عبد الله، كما تلد كل أنثى...

تتحدث الصحابيةُ أم عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكانت ممن حضرن ولادة آمنة، فتقول: شهدت ولادة آمنة ليلة ولدت محمداً (صلى الله على محمد)، فما شيءٌ أنظره في البيت إلا نوراً، ولقد رأيت النجوم تدنو، حتى لقد خشيت أن يقعن عليّ.

قد يحلو هنا لبعض كتّاب السيرة والتاريخ أن يتحدثوا عن بعض العجائب والغرائب، التي اقترنت بمولد سيد البشر، وهي أخبار أسانيدها غير صحيحة. كقولهم: اهتز إيوان كسرى، وسقطت بعض شرفات قصره، خمدت نار فارس، جفت بحيرة ساوى من بلاد فارس، أنه ولد صلى الله عليه وسلم مختوناً، ونزل معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء.

كل هذه أخبار مشهورة على ألسنة الناس، وتتلى في الاحتفالات بمولده، ولكنها غير صحيحة[297].

الصحيح أن نار فارس خمدت وعرش كسرى اهتز بعد بعثته لا حين مولده. حدث هذا حين وصلت رسل رسول الله إلى فارس تحارب ظلم الفرس وطغيانهم، وتنصر الشعوب المظلومة المقهورة في بلادهم.

انتبهوا يا إخوتي: فعندما نخترع قصصاً لنثبت للنبي معجزات لم تحدث، نكون قد أسأنا له ولمقام نبوته.

لنتشبث بالأخبار الصحيحة وننبذ الأخبار الكاذبة ولو كانت مشهورة.

* * *

كان أول ما فعلته آمنة بعد ولادتها أن أرسلت الى عبد المطلب من يبشرّه بقدوم حفيده، فهرع عبد المطلب إليها فرحاً بهذا الحدث السعيد.

أخبرت آمنة عمّها بالرؤى والهواتف التي رأتها، والتي تأمرها أن تسمي المولود محمداً.

حمل عبد المطلب حفيده محمداً، وأسرع به إلى الكعبة وطاف حولها، يشكر الله تعالى على هذه النعمة ويقول:

الحمـد لله الذي أعطـاني

هذا الغلامَ الطَّيب الأردانِ

قد ساد في المهد على الغلمانِ

أعيذه بالبيتِ ذي الأركان

حـتى أراه بالـغَ البنيـانِ

أعيذه من شرّ ذي شنآن

من حاسدٍ مضطربِ العنانِ

لا تسعفنا الكلماتُ هنا لنصف فرحة الأمّ بالوليد الجميل الجليل.. ورغم أنه كان لها سلوى عن فقد الزوج الحبيب عبد الله، إلا أنها ما فتئت تتذكره، وتتمنى لو أنه كان معها، ليشاركها فرحها بابنهما محمد... صلى الله على محمد...

كان على آمنة أن تُرضع وليدَها، ريثما تصل المراضع، فيذهبن به مع أترابه إلى البادية، بعيداً عن جوّ مكة الملوّث، كما كانت العادة جارية عند العرب..

ولكنّ حليب الأمّ آمنة ما لبث أن جفّ بعد أيام قليلة، فعهدت إلى ثويبة جارية أبي لهب بإرضاعه، فأرضعته مع ابنها مسروح، كما أرضعت قبله عمّه حمزة وابن عمته أبا سلمة المخزومي، فكانوا جميعهم إخوةً للنبي الكريم من الرضاعة..

إذاً ثُويبةُ جارية أبي لهب، التي أعتقها سيّها أبو لهبٍ، عندما بشّرته بولادة ابن أخيه محمد، هي أمّ للنبي ص) بالرضاع..)

وبمناسبة الحديث عن هذا يحلو لنا أن نتساءل: **كيف كان النبي (ص) يتعامل مع أمه بالرّضاع ثُويبة ؟**

يرجّح كتاب التّراجم أن ثُويبة ماتت على الشرك، ومع هذا كان (ص) يبرّها ويحسن إليها، فكان يصلها حين كان في مكة، كما كانت زوجته خديجة أمّ المؤمنين تكرمها وتصلها أيضاً، ولم ينسها النبيّ حتى بعد أن هاجر إلى يثرب، فكان يبعث لها بالهدايا حتى ماتت سنة سبعٍ للهجرة. ولما دخل مكة فاتحاً، لم ينسِه ظفرُه أن يسأل عن ابنها مسروح، فقيل له: مات قبلها، ولما سأل عن قرابتها ليصلهم، قيل له: لم يبقَ من قرابتها أحدٌ...

نعود إلى السيدة آمنة ووليدِها الرضيع، لنرى مراضع بني سعد يصلن من نجدٍ إلى مكة، ويتسابقن إلى مواليد العوائل الغنية سعياً وراء المال...

عرضت آمنةُ ابنها على المرضعات، فزهدن به بسبب يتمه وقلّة ثروة عائلته..

في الواقع لم تكن تلك الثروة بالقليلة ولا بالكثيرة: جاريةٌ حبشية تدعى بركة، وخمسةُ جمال، وشيء من الغنم... لكنّ مراضع بني سعد كن يطمعنَ بأكثر من هذا...

عزّ على آمنة أن ترى المراضع يزهدن بابنها، لكنَّ الله جبر خاطرها بمرضعةٍ تدعى حليمة، كانت قد رأت الرضيعَ أول النهار، فأحبّته وتعلّق قلبها به، لكنها كانت ترجو أن تحظى برضيعٍ يدرّ عليها من الأموال ما تستعين بها على مواجهة الجفاف والفاقةِ، التي ابتلي بها قومها بنو سعد في سنتهم تلك، ولكنّها عندما لم يسعفها الحظُّ بما ترجو، عادت وأخذت الرضيع محمد... صلى الله على محمد.

شاء الله تعالى أن يكتب لحليمة حُظوة وأيّ حظوة، حين اختارها لتكون أمًّا لسيد هذه الأمّة..

وتروي حليمةُ السعدية قصصاً كثيرةً، تؤكد أنَّ البركة والخير حلّت عليها وعلى قومها، منذ أن أمسكت الرضيع محمداً بين يديها.

ومما روته: أنها حين أمسكت الرضيع محمداً بين يديها، وألقمته صدرها، وكان حليبها قد جفّ من اللبن، أو كاد يجفّ، وأنه لم يكن ليكفي ولدَها الرضيع وحده، ولكنّ صدرها فاض باللبن، فشرب الرُّضيع محمدٌ حتى ارتوى، ثم شرب معه ابنها الرّضيع حتى ارتوى هو الآخر...

كما تروي حليمة أنها كانت تملك ناقةً مسنّة، غاض لبنُها فلا تبضّ بقطرةٍ، فما إن حلّ الرّضيع المبارك في مضاربها، حتى حفل ضرعُها باللبن الغزير... وكذلك الأتان التي كانت تركب عليها حليمة، عندما قدمت إلى مكة، وكانت صويحباتُها يضحكن من عجزها عن اللّحاق بركب القوم، باتت تسبقهنّ فلا يستطعن لها لحوقاً...

وأيضاً: أغنامُ حليمة التي ترعى في أرض بني سعد المجدبة، صارت تعود شِباعاً، يكاد اللبن يتفجر من ضروعها، بينما ترجع أغنام القوم، وقد جفّت ضروعُها، لا تجود بقطرة لبنٍ، فيقول الناس لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي حليمة بنت أبي ذؤيب ..

عاش محمدٌ (ص) مع حليمة في بادية بني سعد خمسَ سنواتٍ، اشتدّ بها عوده وفصح لسانه... لكنها كانت خمس سنواتٍ من البعد عن أمه آمنة.. عن حضنها وحنانها.

كيف كان حال آمنة في تلك السنوات؟

لا شك أنها تتألم لفراقه، ولكنّ خوفها عليه من وباء مكة، ورغبتها في أن يترعرع في بيئة صحيّة، جعلها تحرص على ذهابه إلى البادية... فمصلحة ولدها خيرٌ وأحبّ إلى قلبها، رغم ما سيلحقها من لوعةٍ لفراقه...

قبل أن نعود إلى السيدة آمنة وقد عاد إليها ابنها محمد، أحب أن أعرّج على موقف النبي (ص) من أمّه بالرضاع حليمة السعدية، حين بُعث برسالة الإسلام وصار نبيًّا...

ورد أن حليمة السعدية آمنت بالنبي، هي وزوجها الحارث بن عبد العزى المعروف بأبي كبشة، فكانا يأتيان لزيارته في مكة بين الفينة والأخرى، فيقوم إليهما النبي (ص) مرحباً، ويبسُط لهما رداءه ليجلسا عليه.

وفي غزوة حنين وقعت الشيماء بنت الحارث أخت النبي (ص) بالرضاع في سبي هوازن، ولم تكن قد آمنت بعد، فلما علم النبي (ص) بذلك فكّ أسرها وقال لها: إن أحببت فأقيمي عندي مكرّمة محبّبة، وأن أحببتِ أن أمتّعك[298] وترجعي إلى قومك[299]؟ فقالت: بل تمتّعني وتردّني إلى قومي.

فمتّعها ووصلها بأحسن ما تكون الصلة، وردّها إلى أهلها معزّزة مكرمة، فأسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها ..

نعود إلى أمّ النبي آمنة.

بعد عدة شهور من عودة ولدها إليها، أرادت أن تزور قبر زوجها في يثرب.. فصحبت معها ولدها محمداً، صلى الله على محمد، وعمره آنذاك ستُ سنوات، ومعهما خادمتُها بركة، وخرجت مع قافلة متّجهة من مكة نحو الشام..

وصلت آمنةُ إلى يثرب، ومكثت عند بني النّجار أخوال زوجها شهراً كاملاً، وزارت قبر الحبيب، وروته بدموع عينيها، وحدّثته بأشجانها وآلامها وأشواقها..

وهناك رأى محمدٌ.. الطفل الصغير.. رأى أمَّه تبكي وتبكي، ولربما شاركها بكاءها على أبيه، الذي عرفه قلبُه، ولم ترَهُ عيناه...

ولربما شعر هناك بمرارة اليتم، وهو واقف هناك أمام قبر الوالد الحبيب...

ظل النبي (ص) يذكر تلك الرحلة المؤثّرة، ويرويها لأصحابه فيقول: ***هنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي، وأحسنت العومَ (أي السباحة) في بئر بني النجار***[300].

انتهت زيارة آمنة ليثرب، وحان وقت العودة... فانتزعت نفسها من أمام قبر عبد الله، كمن يَنتزع السفُّود من الصوف**!**

لا بدّ من الرحيل مع القافلة العائدة إلى مكة...

شيءٌ ما كان يجذبها نحو قبر الحبيب، ولربما اعتراها إحساسٌ غريب، جعلها تهزّ رأسها، وتومئ بطرف عينها، وهي تودّع قبر زوجها، وكأنها تعده بشيء**!**

لملمت ثيابها وأغراضها على عجل، واحتضنت ولدها، وأسرعت مع القافلة بسيرٍ حثيث.

وصلت القافلة إلى الأبواء، وهي قرية بين مكة والمدينة.. وهناك شعرت آمنةُ بضعفٍ طارئ، وهَنَ له جسدُها، وخارت قواها، فاستلقت على الأرض، وقد تشبّثت بولدها محمد، صلى الله على محمد، وأنشدت تقول بصوتٍ لاهث:

بارك اللهُ فيك من غلام

يا بنَ الذي من حَومة الحِمام[301]

نجا بعونِ الملكِ المنعامِ

فُودِي غداةَ الضرب بالسهامِ

بمئةٍ من إبل سوام

نظر محمد، صلى الله على محمد، إلى أمّه ثم إلى بركة، وكأنه يرجوها أن تفسر ما يحدث، ولكنّ بركة كانت تقف مذهولة، لا تدري ماذا تفعل!

نظرت آمنةُ إلى ولدها برأفةٍ ورحمة، ويدُها المرتجفة تمسك بيدهِ، وقالت:

كلُّ حيٍّ ميِّت، وكلُّ جديدٍ بالٍ، وكلُّ كبيرٍ يفنى، وأنا ميِّتة وذكري باقٍ، فقد تركتُ خيراً وولدت طُهراً...

حشرجت آمنةُ حشرجةً مسموعةً، شخص بعدها بصرُها إلى السماء، وارتخت يدُها الممسكة بيد الغلام، وغاب صوتُها، وهمدت أنفاسُها....

لم يفهم محمد، صلى الله على محمد، ما حدث لأمّه، حتى رأى بركة تجهش بالبكاء، وهي تصيح بالقوم قائلة: ماتت آمنةُ بنت وهب ... ماتت آمنة بنت وهب...

ماتت آمنة... فمن لهذا الطفل بعدها، وقد أصبح بلا أبٍ ولا أمّ؟

بكى محمدٌ أمَّه بكاء مريراً، وهو صغير عمره ست سنوات، وبكاها بكاء مريراً، وهو كبير عمرُه ستّون سنة..

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: زار رسول الله (ص) قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: ***استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي***[302].

وروي أن النبي (ص) لما مرّ بالأبواء في صلح الحديبية، أُذِنَ له في زيارة قبر أمه، فأتاه وأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه، فقيل له في ذلك، فقال: ***أدركتني رحمتُها فبكيتُ***[303].

هنا لي وقفة...

بعض الناس يقولون: أمّ النبي وأبوه في النار..

فماذا يقول العلماء في ذلك؟

ذهب بعض العلماء، ومنهم الشافعيةُ والأشاعرة، إلى أنّ أهل الفترة ناجون، لأنهم لم تبلغهم الدعوة إلى دين الله عز وجل، (وأهل الفترة هم الذين عاشوا قبل مبعث النبي(ص) ولم يدركوه)، وبناءً على هذا فهم يرون أن والديّ النبي (ص) ناجيان يوم القيامة، لقوله تعالى: (مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً).[304]

وهذه المسألة على كل حال اجتهادية، ونتمنى أن تعمّ رحمة الله تعالى كل مخلوقاته، وعلى رأسهم أمُّ النبي وأبوه، فهما سبب وجود الحبيب المصطفى في هذه الدنيا.

نعود إلى الطفل الصغير محمد، صلى الله على محمد، لنراه يعود الى مكة يتيماً مضاعف اليتم، وقد فقد الأمَّ إثر الأب، فكفله جدّه عبد المطلب، ورعتهُ وحضنتهُ جاريتُه بركة.

وكان النبي (ص) يُحبّ حاضنته بركة، وكثيراً ما كان يناديها: يا أمّه...

وكان حين يراها يرقّ قلبه لها، ويقول لأصحابه: ***هي أُمّي بعد أمي***[305].

ويقول أيضا: ***هذه بقيّة أهلِ بيتي***[306].

وقد أعتق النبي (ص) بركة، عندما تزوج من أمّ المؤمنين خديجة. فتزوجت بركةُ عبيداً بن زيد وولدت له أيمن، فأصبحت تكنّى بأمّ أيمن... ولما بُعث النبي (ص) آمنت به أم أيمن، ثم تزوجت من زيد بن حارثة، فأنجبت له أسامة بن زيد.

إذن، أمهات النبي (ص) هنَّ: آمنةُ بنتُ وهب، وأمّه بالرضاعة حليمةُ السعدية، وأمُّه بالحضانة بركة.

هناك سيدةٌ رابعة كان النبي (ص) يُنزلها في حياته بمنزلة الأمهات، لأنها أمّ ربُّته، ولا يمكننا أن نختم الحديث دون أن نشير إليها.. **تلك هي الصحابيةُ الجليلة فاطمةُ بنت أسد**، زوجةُ أبي طالب عمّ النبي (ص)، فقد كان لها دورٌ بارز في رعاية النبي (ص)، حين كفله عمّه أبو طالب بعد موت جدّه عبد المطلب، وكان عمره آنذاك ثمانيَ سنوات..

لما ماتت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها، دخل عليها رسول الله، وجلس عند رأسها وقال: ***رحمك الله يا أمّي. كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتَعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيِّبا وتطعيمني***[307]..

ثم خلع رسول الله (ص) قميصه فألبسها إياه وكُفِّنت فوقه. ولما حُفر قبرها، نزل النبي (ص) واضطجعَ فيه قبل إنزالها، وهو يدعو قائلاً: ***اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقّنها حجّتها، ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين قبلي، فإنك أرحم الراحمين***[308].

* * *

هؤلاء النسوة هنّ أمهات النبي (ص) رضوان الله عنهن أجمعين... أمّ أنجبت، وأمّان أرضعتا، وأمَّان حضنتا وربّتا ورعتا...

وبرّ الأمهات حسب هذا الهدي النبوي، يجب أن يشمل كل هذه الأنواع، ولو بدرجات متفاوتة...

ذاك هو البرّ، الذي قرنه الله تعالى بذاته، حين أكّد على وحدانيته، ثم أردفه ببرّ الوالدين، فقال:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا)[309].

وهو ذاته البرّ، الذي ما فتئ النبي (ص) يؤكد قدسيته قائلاً: ***الوالد أوسط أبواب الجنة، فأضِع هذا البابَ أو احفظه***[310].

ولما سئل: أيّ العمل أحبّ إلى الله؟ قال: ***الصلاة على وقتها***. قيل: ثم أي؟ قال: ***برّ الوالدين***. قيل: ثم أيّ؟ قال: ***الجهاد في سبيل الله***[311].

وقال مرهِّبا من العقوق ومحذِّرا: ***ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟! الشركُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وشهادةُ الزور***[312].

ومن هذا المنطلق قال (ص) لجاهمة السلمي، لما جاءه يبتغي الجهاد في سبيل الله: ***ويحك أحيَّة أمُّك؟*** قال: نعم. قال: ***فارجع إليها فبرّها***. فلما كرر جاهمةُ على النبيّ (ص) الطلب، قال له: ***ويحك الزم رجلَها، فثمّ الجنّة!***[313].

انتهت رحلتنا هذه، وقد رافقتنا فيها أطيافٌ محبَّبة إلى قلب نبينا الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم...

عشنا معها، ورشفنا من دوحتها عسلاً مصفّى، واغتنمنا من واحتها ثماراً يانعة وهدايا نبويةً لكل أمٍّ أنجبت... ولكل أمٍّ أرضعت... ولكل أمٍّ ربّت وحضنت...

فهنيئاً لكل الأمهات هذه الهدايا النبوية الكريمة...

* * *

بالحديث عن أمهات النبي عليه الصلاة والسلام أختتم كتابَ (صحابيات)، وأرجو أن أرافقكم إخوتي القرّاء في كتبٍ أخرى..
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدكتورة لينة الحمصي

***

---

296 أخرجه مسلم في الصحيح، ٧/٥٨، حديث (٦٠٧٧).

297 وقد وردت هذه العجائب بسندها في كتاب عيون الأثر لابن سيد الناس.

298 أصلك بعطية.

299 مغازي الواقدي، لمحمد بن عمر الواقدي، ١/٩١٣.

300 سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ٢/١٢٠.

301 أي من الموت))

رواه مسلم في صحيحه، حديث (٢٣٠٣). ونصّ الحديث: *استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي*. 302

الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١١٧. 303

سورة الإسراء، الآية: ١٥. 304

جامع الأحاديث للسيوطي، حديث (٥١٧٣)، وضعفه الألباني. 305

رواه الحاكم في المستدرك، حديث (٧٠١٢). 306

رواه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث (١٩٥). 307

رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٤/٣٥١، حديث (٨٧١). وضعفه الألباني. 308

سورة الإسراء، الآية: ٢٣. 309

رواه ابن ماجه في السنن، ٢/١٢٠٨، حديث (٣٦٦٣). وصححه الألباني. 310

رواه البخاري في الصحيح، ٥/٢٢٢٧، حديث (٥٦٢٥). 311

رواه البخاري في الصحيح، ٥/٢٢٣٠، حديث (٥٦٣٢). 312

رواه ابن ماجه في السنن، ٢/٩٢٩، حديث (٢٧٨١). وصححه الألباني. 313